الرجل الخفي

هربرت جورج ويلز

- المؤلف: هربرت جورج ويلز
- العنوان: الرجل الخفي
- ترجمة: شهرت العالم
- الطبعة: الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

رقم الإيداع:
٢٥٩٧٠ / ٢٠٢١
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 314 - 5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هربرت جورج ويلز

الرجل الخفي

ترجمة

شُهرت العالم

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

ويلز، هربرت جورج

هربرت جورج ويلز - الرجل الخفي

ترجمة: شهرت العالم

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

240 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25970 / 2021

الترقيم الدولي 5 - 314 - 765 - 977 - 978

1 - روايات

2 - العنوان

الفصل الأول

وصول الرجل الغريب

وصل الرجلُ الغريب مبكرًا، في أحد أيام شهر فبراير الشتوية، وسط رياحٍ لاذعة وثلوجٍ متدفقة، آخر تساقُط للثلوج هذا العام. خرج من محطة السكك الحديدية برامبلهرست فوق التلِّ، وسار حاملًا حقيبة سوداء صغيرة في إحدى يديه ذات القفَّازات السميكة. كان متدثِّرًا من رأسه إلى قدميه، وأخفت حافة قبَّعته الناعمة -المصنوعة من اللباد- كلَّ شبرٍ من وجهه باستثناء طرف أنفه اللامع. تراكمت الثلوج على كتفيه وصدره، وأضافت قمةً بيضاء إلى العبء الذي يحمله. دخل إلى فندق «العربة والحصان» مترنِّحًا، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وألقى بحقيبته على الأرض. صاح: «نار، باسم الكرم الإنساني! أحتاج إلى غرفة ونارٍ للتدفئة!». نفَّض الثلج عن نفسه عند البار، ثم تبِع السيِّدة هول إلى قاعة الاستقبال للاتفاق معها. بهذه المقدمة، وبعد أن ألقى على الطاولة جنيهيْن ذهبييْن، استأجر غرفة في الفندق الصغير.

أشعلتْ السيِّدة هول النار وتركته هناك، بينما ذهبتْ لإعداد وجبة له بيديها. فقد كان توقُّف ضيفٍ في إيبينج خلال فصل الشتاء يُعتبَر ضربة حظٍّ لم يسمع بها أحدٌ من قبل، ناهيك عن ضيفٍ لا «يساوم» في السعر، ولذا كانت مصمِّمة على أن تُثبِت لنفسها أنَّها جديرةٌ بهذا الحظ السعيد. وما إن بدأ اللحم ينضج، حتى انتعشت قليلًا خادمتُها الكسول ميلي، بعد أن رمقتها السيِّدة هول ببعض تعبيرات الازدراء المُختارة بمهارة. حملت المفرش، والأطباق، والأكواب إلى قاعة الاستقبال، وبدأت في رصِّها بأناقة شديدة. على الرغم من أنَّ المدفأة كانت مشتعلة بقوة، فوجئت السيِّدة هول عندما رأت زائرها لا يزال يرتدي قبعته ومعطفه، ويقف وظهره لها مُحدِّقًا من النافذة إلى الثلج المتساقط في الفناء. كانت يداه منعقدتين خلفه وما زال يرتدي القفَّازات، وبدا شاردَ الذهن. لاحظتْ أنَّ قطرات الثلج الذائب التي لا تزال تتناثر على كتفيه تتساقط على سجادتها. سألته: «هل يمكنني أن آخذ قبعتكَ ومعطفكَ يا سيدي؟ وأتولَّى تجفيفهما جيِّدًا في المطبخ؟».

قال: «لا»، دون أن يلتفت.

لم تكن متأكدة من أنَّها سمعته، وكانت على وشك تكرار سؤالها.

أدار رأسه، ونظر إليها من فوق كتفه، ثم قال مؤكِّدًا: «أنا أُفضِّل أن أظلَّ مرتديًا القبعة والمعطف». لاحظتْ أنَّه يرتدي نظَّارة زرقاء كبيرة ذات أضواءٍ جانبية، ويُغطي شعرٌ جانبيٌّ كثيفٌ ياقةَ معطفه التي تخفي خديه ووجهه تمامًا.

قالت: «حسنًا، يا سيدي. كما تريد. سرعان ما ستصبح الغرفة أكثر دفئًا».

لم يردّ، وأدار وجهه ثانية بعيدًا عنها. شعرتْ السيِّدة هول أنَّ اختيارها لتوقيت المحادثة لم يكن مناسبًا، ووضعتْ بقية الأشياء على الطاولة على نحوٍ متقطِّعٍ وسريعٍ، وخرجت من الغرفة. وعندما عادت، وجدته لا يزال واقفًا هناك، كتمثالٍ لرجلٍ من الحجر، ظهره منحنيٌّ، وياقة معطفه مرفوعة لأعلى، وحافة قبَّعته التي تتساقط منها قطرات الماء تخفي وجهه وأذنيه تمامًا. وضعتْ طبق البيض واللحم المقدَّد، ونادت عليه: «الغداء جاهز، يا سيدي».

قال، في الوقت نفسه: «شكرًا لكِ»، ولم يتحرك إلى أن أغلقتْ الباب. استدار واقترب من الطاولة بسرعة ولهفة.

عندما ذهبتْ خلف البار إلى المطبخ، سمِعتْ صوتًا يتكرَّر على فتراتٍ منتظمة. استمرَّ الصوت «شيرك، شيرك، شيرك»؛ إنَّه صوت ملعقة تُحرَّك بسرعة في حوضٍ. قالت: «تلك الفتاة! هناك! لقد نسيتُها. إنَّها هناك من فترة طويلة جدًّا!». وبينما أنهت بنفسها خلط المستردة، أعطتْ ميلي بعض الطعنات اللفظية لبطئها المفرط. لقد طبختْ اللحم والبيض، ورتَّبتْ الطاولة، وفعلتْ كلَّ شيءٍ، في حين أنَّ ميلي (يا لها من مساعِدة، في الواقع!) لم تنجح سوى في تأخير المستردة. وهو ضيفٌ جديدٌ ويريد البقاء! ملأتْ وعاء المستردة، ووضعته بفخامة على صينية شاي ذهبية وسوداء، وحملته إلى قاعة الاستقبال.

طرقتْ الباب ودخلتْ على الفور. وعندئذٍ تحرَّك زائرها بسرعة، بحيث لم ترَ سوى لمحة فقط من كائن أبيض يختفي وراء الطاولة. يبدو أنَّه كان يلتقط شيئًا من الأرض. وضعتْ وعاء المستردة على الطاولة،

ثم لاحظتْ أنَّ الزائر خلع المعطف والقبعة، ووضعهما على كرسيٍّ أمام المِدفأة، فضلًا عن حذاءٍ مبللٍ يهدِّد درابزينها الفولاذي بالصدأ. توجَّهتْ إلى هذه الأشياء بإصرارٍ، وقالت بصوتٍ لا يحتمل الرفض: «أعتقد أنَّ بإمكاني تجفيفهم الآن». قال الزائر بصوتٍ مكتومٍ: «اتركي القبعة». استدارتْ ورأته يرفع رأسه، ويجلس ناظرًا إليها.

ظلَّت واقفة للحظة تتطلَّع إليه، والدهشة تعقد لسانها.

كان يحمل قطعة قماشٍ بيضاء -عبارة عن منديل مائدة أحضره معه- فوق الجزء السفلي من وجهه، بحيث كان فمه وفكه مختفيين تمامًا؛ وهذا سبب صوته المكتوم. لم يكن ذلك هو ما أذهل السيِّدة هول؛ بل ما أدهشها هو أنَّ كلَّ جبهته فوق نظارته الزرقاء كانت مُغطَّاة بضمادة بيضاء، بالإضافة إلى ضمادة أخرى تغطي أذنيه، دون أن يوجد أيُّ جزءٍ من وجهه مكشوف باستثناء أنفه الوردي المُدبَّب. كان مشرقًا، ووردِيًّا، ولامعًا تمامًا كما رأته في البداية، ويرتدي سترة مخملية من اللون البني الداكن، ذات ياقة سوداء عالية مبطَّنة بالكتان تلتفُّ حول رقبته. وكان الشعر الأسود الكثيف، يبرز من تحت الضمادات المتقاطعة ومن خلالها، ويظهر على شكل ذيولٍ وقرونٍ غريبة، مما يعطيه أغرب مظهرٍ يمكن تصوره. كما كانت هذه الرأس الملفوفة بالضمادات على عكس ما كانت تتوقَّعه، لدرجة أنَّها بقيت جامدة للحظات.

لم يقم بإزالة منديل المائدة، بل ظلَّ يحمله بيده المرتدية قفَّازًا بنيَّ اللون، كما رأته الآن، وهو ينظر إليها خلال نظَّارته الزرقاء الغامضة. قال، بوضوحٍ شديدٍ من خلال قطعة القماش البيضاء: «اتركي القبعة».

بدأتْ أعصابُها تتعافى من الصدمة التي تلقَّتها. وضعتْ القبعة على الكرسي مرَّة أخرى بجانب المِدفأة. قالت: «لم أكن أعرف، يا سيدي، أنَّ...»، ثم توقَّفت لشعورها بالإحراج.

«شكرًا لكِ»، قال بجفاءٍ، وهو ينقل بصره من عليها إلى الباب، ثم عليها مرَّة أخرى.

قالت: «سأجفِّفها بشكلٍ جيِّدٍ، يا سيدي، في الحال»، ثم حملتْ ملابسه وخرجت من الغرفة. ألقت نظرة سريعة على رأسه المكسوَّة بضماداتٍ بيضاء ونظَّارته الزرقاء مرَّة أخرى وهي تخرج من الباب؛ لكنَّ المنديل الذي يحمله كان لا يزال يغطي وجهه. ارتجفتْ قليلًا وهي تغلق الباب خلفها، وكانت تعبيرات وجهها تنمُّ بوضوحٍ عن دهشتها وحيرتها. همستْ: «لم أتصوَّر أبدًا». ذهبتْ إلى المطبخ بهدوءٍ وذهنها مشغولٌ، بحيث لم تسأل ميلي عمَّا تفعله الآن.

جلس الزائر، وأخذ ينصت إلى خطواتها وهي تبتعد عن الغرفة. نظر إلى النافذة متحقِّقًا، قبل أن يزيل المنديل، ثم استأنف وجبته. ملأ فمه بالطعام، ثم نظر بريبة إلى النافذة، ثم ملأ فمه بالطعام مرة أخرى. قام، وأخذ منديل المائدة في يده، وسار عبر الغرفة، وأسدل الستائر بحيث غطَّت النافذة تمامًا، وأصبحت الغرفة معتمة. عاد بعد ذلك إلى الطاولة ووجبته، وهو يشعر بالراحة.

قالت السيدة هول: «لقد تعرَّض هذا المسكين إلى حادثٍ أو خضع لجراحة، أو شيء من هذا القبيل. لكم أفزعتني تلك الضمادات!».

أضافتْ المزيدَ من الفحم إلى المِدفأة، وفتحتْ المنشر وفردتْ معطف المسافر فوقه كي يجف. «ويرتدي نظارات واقية! لماذا؟ بدا كخوذة غوص أكثر منه رجل بشري!». قامت بتعليق الكوفية الخاصة بالزائر على زاوية المنشر. «وهو يمسك بذلك المنديل ويضعه على فمه طوال الوقت، ويتحدث من خلاله! ربما فمه مُصابٌ أيضًا، ربما».

استدارتْ، كأنَّما تذكَّرت شيئًا فجأة. «ليباركني الله!» قالت، وهي تستدير، «ألم تنتهي من البطاطس بعد، يا ميلي؟».

عندما ذهبتْ السيِّدة هول لتنظيف الطاولة بعد أن أكل الغريب، تأكَّدت فكرتها أنَّ فمَه لا بُدَّ أنَّه قد أصيب أيضًا بقطعٍ أو تشويه في الحادث الذي افترضتْ أنَّ الرجل تعرَّض له؛ لأنَّه كان يدخن الغليون، كما أنَّه كان يرتدي طوال وقت وجودها في الغرفة تلك الكوفية الحريرية ويلفَّها حول الجزء الأسفل من وجهه. ومع ذلك، لم يكن غافلًا عن تلك الكوفية؛ لأنَّها رأته ينظر إليها وسط الدخان المتصاعد من المِدفأة. كان يجلس في الزاوية وظهره إلى ستارة النافذة وبدأ يتحدث، بإيجازٍ وأقل عدوانية من ذي قبل، بعد أن أكل وشرب وشعر بدفءٍ مريحٍ. أعطى انعكاس النار الحمراء نوعًا من الحيوية على نظارته الكبيرة التي كان يفتقر إليها حتى الآن.

قال: «لديَّ بعضُ الأمتعة، في محطة برامبلهيرست»، وسألها عن كيفية إحضارها. حنى رأسه المضمد بأدبٍ شديدٍ تقديرًا لتفسيرها. قال: «غدًا؟ ألا يوجد وسيلة تسليم أسرع؟»، وبدا مُحبطًا إلى حدٍّ كبيرٍ عندما

أجابت «لا». هل كانت متأكدة تمامًا؟ «ألا يوجد رجلٌ لديه عربة صغيرة يمكنه الذهاب وإحضار الأمتعة؟».

أجابت السيِّدة هول عن أسئلته دون ترددٍ، وبدأت محادثة. قالت ردًّا على سؤاله عن العربة: «إنَّه طريقٌ شديدُ الانحدار، يا سيدي». ثم أضافت: «وقد انقلبتْ عربةٌ هناك، قبل عامٍ أو أكثر. وقُتِل رجلٌ، بجوار سائقه. تقع الحوادث في لحظة، يا سيدي، أليس كذلك؟».

لكنَّ الزائر لم يكن لينجذب بهذه السهولة. «هذا صحيحٌ»، قال من خلال الكوفية، وهو ينظر إليها بهدوءٍ عبر نظَّارته التي يتعذَّر اختراقها.

«لكنَّ تعافي المصابين يستغرق وقتًا طويلًا، أليس كذلك؟ فها هو توم، ابن أختي، جُرِح ذراعه بمنجلٍ، عندما وقع فوقه في الحقل، يا إلهي! وظلَّ طريحَ الفراش لمدة ثلاثة أشهرٍ يا سيدي. قد لا تصدق ذلك، إنَّما جعلني هذا الحادث أشعر عادة بالرهبة من المناجل، يا سيدي».

أجاب الزائر: «يمكنني أن أفهم ذلك تمامًا».

«كان خائفًا، ويخشى أن يضطر إلى إجراء عملية جراحية؛ فقد كانت حالته سيئة جدًّا، يا سيدي».

ضحك الزائر فجأة، ضحكة أشبه بنباح كلبٍ. وقال: «هل كانت حالته بهذا السوء؟».

«نعم يا سيدي. ولم يكن الأمر يسيرًا على من قاموا برعايته، مثلي، حيث كانت أختي تتولَّى رعاية صغارها. كان لا بُدَّ من وضع ضماداتٍ،

يا سيدي، وإزالة ضماداتٍ أخرى. أرجو أن تغفر لي جرأتي للتحدُّث في هذا الموضوع، يا سيدي...».

وفجأة قال الزائر: «هل يمكنكِ أن تحضري لي بعضَ أعواد الثقاب؟ فقد انطفأ غليوني».

صمتتْ السيِّدة هول؛ فقد كان موقفه وقحًا بالتأكيد بعد أن أخبرته بكلِّ ما فعلته. شهقتْ في وجهه للحظة، لكنَّها تذكَّرت الجنيهيْن الذهبييْن؛ وذهبت لإحضار أعواد الثقاب.

قال بإيجازٍ: «شكرًا»، وهي تضع أعواد الثقاب أمامه، ثم أدار كتفه لها وحدَّق من النافذة مرَّة أخرى. كان الوضع مثيرًا للإحباط. من الواضح أنَّ الحديث عن العمليات والضمادات أثار حساسيته. على أنَّها لم «تجرؤ على القول». لكنَّ طريقته في الازدراء أغضبتها؛ وأخرجتْ غضبها على ميلي بعد ظهر ذلك اليوم.

ظلَّ الزائر في قاعة الاستقبال حتى الساعة الرابعة، دون أن يعطي أحدًا أيَّ مبررٍ للدخول. بقي ساكنًا تمامًا أغلب الوقت؛ ربما جلس في الظلام المتزايد يدخن في ضوء نار المدفِأة، وربما غفا قليلًا.

ربَّما سمِعه مستمعٌ فضوليٌّ مرَّة أو مرتين وهو يجلس أمام المدفأة، أو على مدى خمس دقائق وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. يبدو أنَّه كان يتحدث مع نفسه، ثم سُمِع صرير الكرسي عندما جلس عليه ثانية.

الفصل الثاني

الانطباعات الأولى للسيِّد تيدي هينفري

في الساعة الرابعة، عندما كان الظلام حالكًا إلى حدٍّ ما، وكانت السيدة هول تستجمع شجاعتها للدخول وسؤال زائرها إذا كان يرغب في شربِ الشاي، جاء تيدي هينفري، تاجر الساعات، إلى البار قائلًا: «يا إلهي! سيِّدة هول، هذا طقسٌ رهيبٌ لا تصلح معه الأحذية الخفيفة!»؛ كان الثلج يتساقط في الخارج بشكلٍ أسرع.

وافقته السيِّدة هول، ثم لاحظتْ أنَّه يحمل معه حقيبته. قالت: «سيِّد تيدي، أنتَ هنا الآن، لكم يسعدني أن تلقي نظرة على الساعة القديمة في صالة الاستقبال. إنَّها تعمل، وتدقُّ جيِّدًا وبقوة؛ لكنَّ عقرب الساعة يشير إلى السادسة ولا يتحرك».

قادتْ الطريق إلى باب صالة الاستقبال، وطرقتْ الباب، ودخلتْ.

رأتْ زائرها، وهي تفتح الباب، يجلس على كرسيٍّ بذراعين أمام المدفأة. بدا نائمًا، ورأسه المضمد يميل إلى أحد الجانبين. كان الضوء الوحيد في الغرفة هو التوهُّج الأحمر المنبعث من نار المِدفأة، وقد أضاء عينيه مثل إشارات السكك الحديدية المنعكسة، لكنَّه ترك وجهه

الكئيب في الظلام، فضلًا عن بقايا ضوء النهار الهزيلة التي دخلت من الباب المفتوح. كان كلُّ شيءٍ ضاربًا إلى الحُمرة، ومظللًا، وغير واضحٍ لها. وعندما أضاءت مجرد مصباح البار، امتلأت عيناها بالانبهار. بدا لها للحظة أنَّ الرجل الذي تنظر إليه لديه فمٌ هائلٌ مفتوحٌ على اتساعه -فمٌ واسعٌ على نحوٍ لا يُصدَّق- إلى حدِّ أنَّه ابتلع الجزء السفلي من وجهه بأكمله. كان إحساسًا لحظيًّا: رأسٌ ملفوفٌ بضماداتٍ بيضاء، وعينان جاحظتان وحشيتان، وفمٌ ضخمٌ في الأسفل. بدأ الزائر يتحرَّك ويستعدُّ للنهوض، واضعًا يده على ذراع الكرسي. فتحتْ الباب على مصراعيه، بحيث يدخل الضوء إلى الغرفة. رأته أكثر وضوحًا، والكوفية تغطي وجهه تمامًا، مثلما رأته من قبل وهو يحمل منديلَ المائدة. تخيَّلت أنَّ الظلال خدعتها.

قالت، بعد أن تعافتْ من صدمتها: «هل تمانع يا سيدي، أن يلقي هذا الرجل نظرة على الساعة؟».

«يُلقي نظرة على الساعة؟»، قال محدِّقًا بما حوله وهو نعسانٌ، ويتحدَّث ويده على فمه؛ ثم أضاف بعد أن استيقظ تمامًا: «بالتأكيد».

ذهبتْ السيِّدة هول لإحضار مصباحٍ. نهض الزائر وتمطَّى. ثم وصل الضوء، ودخل السيِّد تيدي هينفري وواجه هذا الشخص المضمد. حكى بعد ذلك أنَّ «المفاجأة كانت صاعقة».

قال الزائر: «مساء الخير»، وهو ينظر نحو السيِّد هينفري؛ الذي قال فيما بعد إنَّ الزائر الغريب وهو يرتدي نظاراتٍ معتمة كان «مثل سرطان البحر».

قال السيِّد هينفري: «آمل أَلَّا يزعجك وجودي».

قال الغريب: «كلا، على الإطلاق». ثم التفتَ إلى السيِّدة هول قائلًا: «لكنَّني فهمتُ أنَّ هذه الغرفة لاستخدامي الخاص».

قالت السيِّدة هول: «تصوَّرتُ، يا سيدي، أنَّك تفضِّل إصلاح الساعة...».

قال الغريب: «بالطبع، بالطبع. لكنَّني أفضِّل البقاء وحدي، دون إزعاجٍ».

وعندما رأى بعض التردُّد لدى السيِّد هينفري، أضاف: «لكنَّني سعيدٌ حقًّا بإصلاح الساعة، سعيدٌ جدًّا». كان السيِّد هينفري ينوي الاعتذار والانسحاب، لكنَّ هذا الحديث طمأنه. استدار الغريب وظهره إلى المِدفأة، واضعًا يديه خلف ظهره. قال: «والآن، عندما ينتهي إصلاح الساعة، أعتقد أنَّني أودُّ احتساء الشاي. ولكن ليس قبل أن ينتهي إصلاح الساعة».

عندما كانت السيِّدة هول على وشك مغادرة الغرفة، دون أن تحاول محادثته هذه المرَّة، لأنَّها لم ترغب في أن يتجاهلها أمام السيِّد هينفري، سألها زائرها عمَّا إذا كانت اتخذتْ أيَّ ترتيباتٍ حول أمتعته في برامبلهيرست. أخبرته أنَّها تحدَّثتْ مع ساعي البريد، وسوف يحضرهم المسؤول عن النقل في الغد. قال: «وهل أنتِ على يقينٍ بأنَّ هذا هو أقرب موعدٍ؟».

أخبرته، ببرودة ملحوظة، أنَّها متأكدة مما تقول.

أضاف: «يجب أن أوضح ما لم أتمكَّن من توضيحه منذ وصولي، لأنَّني كنتُ أشعر ببرودة وإرهاق شديدين؛ وهو أنَّني باحثٌ تجريبيٌّ».

«صحيحٌ؟! يا سيدي»، قالت السيِّدة هول في إعجابٍ.

«وأمتعتي تحتوي على عدَّتي وأدواتي».

قالت السيِّدة هول: «هي بالتأكيد أشياءٌ مفيدة جدًّا، يا سيدي».

«وأنا متلهِّفٌ، بطبيعة الحال، في أن أبدأ أبحاثي».

«بالطبع، يا سيدي».

«وسبب مجيئي إلى إيبينج»، واصَلَ بطريقة متأنيَّة، «هو... الرغبة في العزلة. لا أريد أن يزعجني أحدٌ خلال عملي. هذا بالإضافة إلى تعرُّضي لحادثٍ...».

قالت السيدة هول لنفسها: «كما توقعتُ تمامًا».

«... يتطلَّب نوعًا معيَّنًا من العزلة. تضعف عيناي أحيانًا وتؤلمني لدرجة أنَّني أغلق على نفسي لساعاتٍ في الظلام. أغلق على نفسي بين الحين والآخر. ليس في الوقت الراهن، بالتأكيد. وفي مثل هذه الأوقات، يُعد أدنى اضطرابٍ، مثل دخول شخصٍ غريبٍ إلى الغرفة، مصدرَ إزعاجٍ شديدٍ بالنسبة لي. من الجيِّد أن تدركي هذه الأشياء».

قالت السيِّدة هول: «بالتأكيد، يا سيدي. «وإذا تجرَّأتُ لأسأل...».

«أعتقد أنَّ هذا كلُّ شيءٍ»، قال الغريب بصيغة هادئة تنم عن انتهاء الحديث، وهي الصيغة التي يستخدمها وفق إرادته. واحتفظتْ السيدة هول بسؤالها وتعاطفها لمناسبة أفضل.

بعد أن غادرتْ السيدة هول الغرفة، ظلَّ واقفًا أمام المِدفأة غاضبًا، وفقًا لِمَا قاله السيِّد هينفري، يراقب عملية إصلاح الساعة. لم يكتفِ السيِّد هينفري بخلع عقارب الساعة وسطحها الخارجي، بل أخرج أيضًا محتوياتها الداخلية. حاول العمل بأقصى بطءٍ وهدوءٍ وتواضُعٍ ممكنٍ. كان يعمل والمصباح قريبٌ منه، وألقى الظلُّ الأخضر ضوءًا رائعًا على يديه، وعلى إطار الساعة وتروسها، وترك بقية الغرفة مظلمة. وعندما نظر إلى أعلى، سبحت بقعٌ ملونة في عينيه. ونظرًا لطبيعته الغريبة، أزال أجزاءً من الساعة، وهو إجراءٌ لا لزوم له على الإطلاق، وفي ذهنه فكرة تأخير رحيله، وربما لتجاذب أطراف الحديث مع الغريب. لكنَّ الغريب وقف هناك صامتًا وساكنًا تمامًا، إلى درجة أثارت توتُّر هينفري. شعر بأنَّه وحيدٌ في الغرفة، ونظر إلى أعلى؛ وعندئذٍ رأى تلك الرأس المضمدة، رمادية ومعتمة، والعدسات الزرقاء الضخمة تحملِق بشكلٍ ثابتٍ، مع ضبابٍ من بُقعٍ خضراء ينجرف أمامها. كان الوضع شديد الغرابة على هينفري؛ بحيث ظلَّ كلاهما يحدِّق بالآخر لدقيقة. خفض هينفري بصره ثانية. يا له من وضعٍ غير مريحٍ! يودُّ المرء أن يقول شيئًا. هل يتحدث عن الطقس وشدة برودته في ذلك الوقت من السنة؟

نظر إلى أعلى كأنَّما يقتنص فرصة للحديث. بدأ يقول: «الطقس...».

قاطعه الغريب بصرامة: لماذا لا تنتهي وتذهب؟»، وكان من الواضح أنَّه في حالة من الغضب المكبوت المؤلم، «كلُّ ما عليكَ هو تثبيت عقرب الساعة على محوره. أنتَ ببساطة مخادعٌ...».

«بالتأكيد، يا سيدي. دقيقة واحدة فقط. لقد نسيتُ أنَّ...»، انتهى السيِّد هينفري وذهب.

لكنَّه ذهب وهو يشعر بضيقٍ مفرطٍ. «اللعنة!»، قال السيِّد هينفري لنفسه وهو يسير في القرية خلال تساقُط الثلوج، «يجب أن يقوم المرء أحيانًا بإصلاح ساعة، بالتأكيد».

ثم همس لنفسه ثانية: «ألا يمكن للمرء أن ينظر إليكَ؟... أيُّها القبيح!».

ثم مرَّة أخرى: «كلا، على ما يبدو. وإذا كانت الشرطة تبحث عنك، لن تتمكَّن من الاختفاء بمزيدٍ من الأربطة والضمادات».

وعند ناصية جليسون، رأى السيِّد هول. وكان السيِّد هول قد تزوَّج مؤخرًا من صاحبة فندق «العربة والحصان»، ويتولَّى الآن قيادة عربة النقل في إيبينج، عندما يحتاجه الناس من حينٍ لآخر، إلى تقاطع سيدربريدج. كان عائدًا من رحلة نقلٍ، واتجه نحو السيِّد هينفري. من الواضح أنَّه كان «يتوقَّف قليلًا» في سيدربريدج، لضبط عربته. قال وهو يمرُّ بهينفري: «كيف حالُكَ، يا تيدي؟».

أجاب تيدي: «لديكم نزيلٌ غريبٌ في الفندق!».

أوقف هول العربة، وسأله: «ماذا قلتَ؟».

أجاب تيدي: «نزيلٌ جديدٌ غريبُ الشكل في فندق «العربة والحصان». يا للغرابة!».

وبدأ يقدِّم لهول وصفًا حيًّا لضيفه البشع. ثم قال هينفري: يبدو أنَّه متنكرٌ، أليس كذلك؟ أنا أرغب في رؤية وجه الرجل إذا دخل عندي. لكنَّ النساء يثقن في الناس، وخاصة الغرباء. لقد استأجر غرفة، يا هول، دون حتى أن يترك اسمه».

«أهذا صحيحٌ؟!»، قال هول، الذي كان بطيء الإدراك.

قال تيدي: «نعم، ولمدة أسبوع. ومهما كان، لا يمكنكَ التخلُّص منه قبل أسبوعٍ. ويقول إنَّ لديه الكثيرَ من الأمتعة التي ستصل في الغد. لنأمل، يا هول، ألَّا تكون حجارة في صناديق».

كما أخبر هول كيف تعرَّضت عمَّتُه في هاستينجز للخداع من جانب شخصٍ غريبٍ يحمل حقائب سفر فارغة. وفي النهاية، ترك هول في حالة من الشكِّ الغامض. قال هول مخاطبًا حصانه: «انهضي أيَّتُها الفتاة العجوز. يجب أن أذهب لأرى ماذا حدث».

واصل تيدي طريقه، مع شعورٍ بالارتياح إلى حدٍّ كبيرٍ.

عاد هول إلى الفندق، وبدلًا من رؤية «ماذا حدث»، عنَّفته زوجته بشدة لطول الفترة التي قضاها في سيدربريدج، وأجابت على استفساراته البسيطة بطريقة لاذعة وملتوية. لكنَّ بذرة الشكِّ التي زرعها تيدي قد نبتتْ في ذهن السيِّد هول، على الرغم من شعوره بالإحباط. قال السيِّد هول: «أنتِ لا تعرفين كلَّ شيء»، وكان مصمِّمًا على زيادة التأكُّد من شخصية ضيفه في أقرب فرصة ممكنة. وبعد أن ذهب الغريب إلى الفراش، في نحو التاسعة والنصف، توجَّه السيِّد هول بعدوانية إلى قاعة الاستقبال، ونظر بجدية إلى أثاث زوجته، لمجرد إظهار أنَّ الغريب ليس

هو السيِّد هناك؛ وفحص من كثبٍ -وببعض الازدراء- ورقة الحسابات الرياضية التي تركها الغريب. وعندما عاد إلى فراشه، طلب من السيِّدة هول أن تدقِّق النظر في أمتعة الغريب عندما تصل في اليوم التالي.

فقالت له السيِّدة هول: «عليكَ أن تهتم بشؤونك، يا هول، وأنا سوف أهتم بشؤوني».

كانت أكثر ميلًا لتعنيف هول، لأنَّ النزيل كان بلا شكٍّ نوعًا غريبًا غير عادي من الغرباء، ولم يكن ذهنها صافيًا بأيِّ حالٍ تجاه هذا الغريب. استيقظتْ في منتصف الليل على حُلم برؤوس بيضاء ضخمة، مثل اللفت، تتعقبها؛ رؤوس فوق أعناق طويلة، وذات أعين سوداء واسعة. ولكونها امرأة عاقلة، تخلَّصتْ من خوفِها، واستغرقتْ في النوم مرَّة أخرى.

الفصل الثالث

ألف زجاجة وزجاجة

وهكذا، هبط هذا الشخص المتفرِّد على قرية إيبينج في اليوم التاسع والعشرين من فبراير، فترة بداية ذوبان الجليد. وفي اليوم التالي، وصلتْ أمتعتُه عبر طريقٍ مكسو بثلوجٍ في مرحلة الذوبان: أمتعة لافتة للنظر؛ ضمَّت حقيبتيْن كبيرتيْن عاديتيْن، مثل تلك الحقائب التي يحتاجها أيُّ مسافرٍ، فضلًا عن صندوقٍ من الكتب –كتبٍ كبيرة وسميكة، بعضها مكتوبٌ بخطِ اليد وتصعب قراءته– فضلًا عن عشرات أو أكثر من الحاويات والصناديق والحقائب، التي تحتوي على أشياءٍ ملفوفة في قشٍّ، ورأى هول وهو يفضُّ القشَّ من حولِها بفضولٍ أنَّها قنيناتٌ زجاجية. خرج الغريب، نافد الصبر، وهو يرتدي قبعة وسترة ومعطفًا وقفازات، لمقابلة عربة فيرينسايد؛ في حين كان هول يتجاذب أطرافَ الحديث مع فيرينسايد قبل أن يساعده في إدخال الأمتعة. خرج الرجل الغريب ولم يلحظ وجود كلب فيرينسايد، الذي كان يتشمَّم ساقي هول بحنانٍ. قال الغريب: «هيَّا، عليكما إدخال تلك الصناديق. لقد انتظرتُ بما يكفي».

ونزل على السلَّم متجهًا نحو مؤخرة العربة، كما لو كان يريد وضع يديه على الصندوق الأصغر.

وما إن رآه كلب فيرينسايد، حتى بدأ ينبح ويزمجر بوحشية؛ وعندما اندفع أسفل درجات السلم، قفز الكلب متردِّدًا، ثم هاجم يده مباشرة. صرخ هول: «يااااه!»، وهو يقفز متراجِعًا لأنَّه كان يخشى الكلاب. صاح فيرينسايد للكلب: «استلقِ!»، وأخرج سوطه.

شاهدوا أسنان الكلب تبتعد عن اليد، وسمعوا ركلة، ثم شاهدوا الكلب يقفز قفزة جانبية مستهدفًا ساق الغريب، وسمِعوا تمزيق سرواله. وصلت نهاية سوط فيرينسايد الرفيعة إلى جسم الكلب، فتراجع إلى أسفل عجلات العربة وهو ينبح بفزعٍ. لم يستغرق الأمرُ أكثرَ من نصف دقيقة سريعة. لم يتحدَّث أحدٌ، وإنَّما صرخ الجميع. ألقى الغريبُ لمحةً سريعةً على قفَّازه المُمزَّق وعلى ساقه، وبدا كأنَّما سيهاجم الكلب؛ ثم استدار وانطلق مسرعًا إلى أعلى السلم، إلى داخل الفندق. سمِعوه يذهب مندفعًا عبر الممرِّ، ويصعد الدرج غير المكسو بسجادٍ، متجهًا إلى غرفة نومه.

قال فيرينسايد للكلب: «يا لكَ من متوحشٍ!»، ثم تسلَّق العربة وسوطه في يده، بينما كان الكلب ينظر إليه من خلال العجلات، ثم أضاف: «تعالَ هنا، من الأفضل لكَ أن تأتي».

وقف هول فاغرًا فاهه، ثم قال: «لقد عضَّه الكلب. من الأفضل أن أذهب لأطمئنَّ عليه»، وهرول خلف الغريب. التقى بالسيِّدة هول في الممرِّ، وقال لها: «لقد عضَّه كلب سائق عربة النقل».

توجَّه إلى الطابق العلوي مباشرة، ووجد باب الغريب موارِبًا، فدفعه ودخل دون استئذانٍ لتعاطفه الطبيعي مع الرجل.

كانت الستائر مُسدَلة والغرفة مُعتِمة. لكنَّه لمح شيئًا شديدَ الغرابة؛ ما بدا أنَّه ذراعٌ بلا يدٍ تلوِّح نحوه، ووجه أبيض به ثلاث بقعٍ ضخمة غير محدَّدة، يشبه كثيرًا وجه رجلٍ ضعيفٍ شاحبٍ. ثم شعر بضربة عنيفة في صدره أخرجته من الغرفة، وأُغلِق الباب في وجهه، كما أُغلق بالمفتاح من الداخل. حدث ذلك كلُّه بسرعة مذهلة، بحيث لم يتمكَّن من رؤية أيِّ شيءٍ. أشكالٌ غير مفهومة تلوِّح، وضربة، وصدمة. وقف في الممرِّ الصغير المعتم، متسائلًا عمَّا رآه.

انضم بعد دقيقتين إلى المجموعة الصغيرة التي تجمَّعت خارج فندق «العربة والحصان». أخذ فيرينسايد يعيد الحكاية ثانية؛ والسيِّدة هول تقول إنَّ كلبَه يجب أن يبتعد عن نزلائها، وهوكستر، صاحب المتجر، يستفسر عمَّا حدث؛ وساندي وادجرز، من الإدارة القضائية المعنيَّة بالتزوير، إلى جانب النساء والأطفال، وجميعهم يقولون حماقات: «لن أدعه يعضني»، «ليس لديه الحق»، هل عضَّه بالفعل؟»، وهلُمَّ جرًّا.

وقف السيِّد هول على السلَّم، يحدِّق بهم ويستمع إليهم، وهو في ذهولٍ، ولا يستطيع أن يصدِّق ما حدث له في الطابق العلوي. علاوة على ذلك، كانت مفرداته محدودة جدًّا للتعبير عن انطباعاته.

قال ردًّا على سؤال زوجته: «إنَّه لا يريد أيَّ مساعدة. ومن الأفضل أن نحمل أمتعته إلى الداخل».

وقال السيِّد هوكستر: «كان يجب كي الكلب على الفور، وخاصة إذا كان مهتاجًا».

قالت سيِّدة في المجموعة: «كنتُ لأطلِق عليه النار، هذا ما كنتُ سأفعله».

وفجأة بدأ الكلب يزمجر ثانية.

«هيَّا»، صاح صوتٌ غاضبٌ عند المدخل؛ وهناك وقف الغريب بضماداته، وياقة معطفه مرفوعة لأعلى، وحافة قبعته منحنية لأسفل. وأضاف: «كلَّما أسرعتم في إدخال هذه الأشياء، سيزداد سروري». وذكر أحد المارة المجهولين أنَّ الغريب غيَّر سرواله وقفَّازاته.

قال فيرينسايد: «هل تأذيتَ يا سيدي؟ أعتذر لكَ أنَّ الكلب...»

قاطعه الغريب: «لم أُصَبْ بأيِّ ضررٍ، ولا حتى بخدشٍ. أسرِعوا بإدخال هذه الأشياء».

ثم أطلق لعناتٍ، كما يؤكِّد السيِّد هول.

ووفقًا لتوجيهاته، حُمِل الصندوق الأول مباشرة إلى قاعة الاستقبال، وتوجَّه نحوه الغريب بشغفٍ غير عاديٍّ وبدأ في تفريغه، وهو يبعثر القشَّ متجاهلًا تمامًا سجادة السيِّدة هول. بدأ في إخراج الزجاجات: زجاجات صغيرة سميكة تحتوي على مساحيق، وزجاجات صغيرة ونحيلة تحتوي على سوائل ملونة وبيضاء، وزجاجات زرقاء عليها ملصقٌ مكتوبٌ عليه «سُمّ»، وزجاجات مستديرة ذات أعناق نحيلة، وزجاجات خضراء كبيرة، وزجاجات بيضاء كبيرة، وزجاجات ذات

سدادات زجاجية وعليها ملصقاتٌ متجمدة، وزجاجات ذات سدادات من الفلين الناعم، وزجاجات ذات سدادات عادية، وزجاجات ذات أغطية خشبية، وزجاجات نبيذ، وزجاجات زيت السَّلَطة. وضعها في صفوفٍ على الخزانة، وعلى الرفِّ، وعلى الطاولة تحت النافذة، وعلى الأرض، وعلى رفِّ الكتب؛ في كلِّ مكانٍ. ليس بمقدور متجر الكيميائي في برامبلهيرست أن يتباهى بامتلاك نصف هذا العدد الكبير. كان مشهدًا بحقٍّ. كان يُخرِج الزجاجات من صندوقٍ بعد صندوقٍ، حتى أفرغ ستة صناديق، وارتفعت كومة القشِّ على الطاولة. الأشياء الوحيدة التي خرجتْ من هذه الصناديق، إلى جانب الزجاجات، كانت عددًا من أنابيب الاختبار وميزانًا مُغلَّفًا بعناية.

وبعد تفريغ جميع الصناديق، توجَّه الغريب مباشرة إلى النافذة وبدأ العمل، غير عابئ بفضلات القشِّ، أو نار المِدفأة التي انطفأت، أو صندوق الكتب في الخارج، أو الحقائب والأمتعة الأخرى التي حملوها إلى الطابق العلوي.

وعندما أحضرتْ له السيِّدة هول عشاءه، كان مستغرِقًا في عمله تمامًا، ويسكب قطراتٍ صغيرة من الزجاجات في أنابيب الاختبار، لدرجة أنَّه لم يسمعها حتى أزاحت الجزء الأكبر من القشِّ، ووضعتْ الصينية على الطاولة؛ وربما ركَّزت قليلًا عندما رأتْ حالة الأرضية. أدار رأسَه نحوها، ثم عاد إلى عملِه ثانية. رأتْ السيِّدة هول أنَّه خلع نظَّارته، ووضعها بجانبه على الطاولة. وبدا لها أن محجري عينيه كانا مجوفين بشكلٍ غير عادي. وضع نظَّارته مرَّة أخرى، ثم استدار وواجهها. كانت

على وشك أن تشتكي من القشِّ المُلقى على الأرض، لكنَّه بادرها بالكلام.

قال بنبرة من السخط غير طبيعية، وإن بدتْ مميَّزة له: «كنتُ أتمنَّى أن تطرقي الباب قبل أن تدخلي».

«طرقتُ الباب، وإنَّما على ما يبدو....».

«ربما فعلتِ. لكنَّني مستغرقٌ في تحقيقاتي، تحقيقاتي العاجلة والضرورية. أدنى إزعاجٍ، حتى جرَّة الباب، يجب أن أطلب منكِ...».

«بالتأكيد، يا سيدي. يمكنكَ أن تغلق الباب بالمفتاح إذا أردتَ ذلك، كما تعرف، في أي وقتٍ».

«فكرة جيِّدة جدًّا»، قال الغريب.

«ولكنَّ القشَّ، يا سيدي، إذا سمحت لي أن أتجرَّأ لإبداء ملاحظة...».

«كلا. وإذا كان القشُّ يسبِّب مشكلة، يمكنكِ إضافته على الفاتورة». وتمتم بكلماتٍ مريبة، تشبه اللعنات.

كان رجلًا شديدَ الغرابة، يقف هناك بعدوانية وانفعالٍ، في إحدى يديه زجاجة وفي اليد الأخرى أنبوبُ اختبارٍ؛ مما أثار انزعاج السيِّدة هول. لكنَّها كانت امرأة حازمة، قالت: «في هذه الحالة، أودُّ أن أعرف، يا سيدي، المبلغ الذي تراه مناسبًا لـ...».

«شلن، أضيفي شلنًا. بالتأكيد الشلن يكفي، أليس كذلك؟».

«فليكن ذلك»، قالت السيِّدة هول وهي تحمل مفرش المائدة وتفرده على الطاولة. ثم أضافت: «إذا كنت راضيًا، بالطبع...».

استدار، جلس وظهره تجاهها.

ظلَّ يعمل طوال فترة بعد الظهر والباب مغلقٌ بالمفتاح، كما تشهد السيِّدة هول، وفي معظم الأحيان يعمل في صمتٍ. وحدث أن سمعت صوتَ اهتزازٍ واصطدام زجاجات معًا، كأنَّما ضرب أحدٌ على الطاولة وسقطتْ زجاجة بعنفٍ متهشِّمة، وتناثر حطامُها على الأرض، ثم صوت خطواتٍ سريعة داخل الغرفة. ومن خوفها «أن هناك شيئًا»، ذهبت لتستمع دون أن تهتمَّ بالطرق على الباب.

كان يهذي: «لا يمكنني الاستمرار هكذا. لا يمكنني الاستمرار. ثلاثمائة ألف، أربعمائة ألف! الحشود الهائلة! لقد خُدِعت! قد يستغرق الأمر حياتي كلها!... الصبر! الصبر بالطبع!... أحمق! أحمق!».

صدرتْ ضوضاءٌ لوقع أقدامٍ في الحانة، واضطرَّتْ السيِّدة هول أن تغادر على مضضٍ دون أن تستكمل سماعه وهو يحدِّث نفسه. وعندما عادتْ، وجدتْ الغرفة صامتة ثانية، باستثناء صوت حركة كرسيه الخافتة وصلصلة زجاجة من حينٍ لآخر. لقد انتهى كلُّ شيءٍ، واستأنف الغريب عمله.

وعندما ذهبت إليه بصينية الشاي، رأت الزجاج المكسور في ركن الغرفة تحت المرآة المقعرة، وبقعة ذهبية مسحها بإهمالٍ. لفتت انتباهه إليها.

«يمكنكِ إضافتها على الفاتورة»، قاطعها الزائر، «باللهِ عليكِ لا تقلقيني؛ يمكنكِ إضافة أي أضرارٍ على الفاتورة»، ثم واصل وضع علاماتٍ على قائمة في دفتر التمارين أمامه.

قال فيرينسايد بغموضٍ: «سأقول لكم شيئًا». كان الوقت متأخرًا بعد الظهر، وكانوا في متجر البيرة الصغير في إيبينج هانجر.

تساءل تيدي هينفري: «حسنًا؟».

«هذا الشاب الذي تتحدَّثون عنه، الشاب الذي عضَّه كلبي. حسنًا، إنَّه أسود. ساقاه، على الأقل. لقد رأيتُ ذلك من خلال سرواله الممزق وقفازيه الممزقين. كنتم تتوقعون لونًا ورديًّا، أليس كذلك؟ حسنًا، لم يكن هناك شيءٌ. فقط سوادٌ. أقول لكم، إنَّه أسود مثل قبعتي».

قال هينفري: «يا للعجب! إنَّها حالةٌ غريبة برمتها. لماذا؟ إنَّ أنفه ورديٌّ مثل الطلاء!».

قال فيرينسايد: «هذا صحيحٌ. أعرف ذلك. وسأقول لكم ما أفكر فيه. هذا الرجل من لونين، أبيض وأسود، يا تيدي، أسود هنا وأبيض هناك، في بُقعٍ. وهو يخجل من ذلك. إنَّه من النوع الهجين، واللون لا يظهر كمزيجٍ وإنَّما على شكل بقعٍ. لقد سمعت عن مثل هذه الأشياء من قبل. وهذا شائعٌ بين الخيول، ونلحظه جميعًا». كما يمكن لأي شخصٍ أن يرى».

الفصل الرابع

السيِّد كاس ومقابلته مع الغريب

لقد حكيتُ عن ظروف وصول الغريب إلى إيبينج بالتفصيل، حتى يدرك القارئ مدى غرابة الانطباع الذي تركه. وباستثناء حادثتين غريبتين، كانت يمكن أن تمرَّ ظروف إقامته -حتى اليوم الاستثنائي لمهرجان النادي- بسرعة خاطفة. جرتْ بينه وبين السيِّدة هول بعضُ المناوشات حول المسائل المتعلقة بالنظام والترتيب داخل الفندق؛ لكنَّه في كلِّ مرَّة، حتى أواخر أبريل، عندما بدأت تظهر علامات الفقر الأولى، كان يتغلَّب عليها بتلك الوسيلة السهلة؛ بأنَّه سيدفع مبلغًا إضافيًّا. لم يكن السيِّد هول مُعجَبًا به، وكان يتجرَّأ أحيانًا ويتحدَّث عن استحسان التخلُّص منه؛ لكنَّه أظهر كرهه بشكلٍ رئيسيٍّ من خلال التباهي بكتمانه وتجنُّب زائره قدر الإمكان. قالت السيِّدة هول بطريقة حكيمة: «انتظر حتى الصيف، عندما يبدأ الحِرفيون في القدوم ثم سنرى. قد يكون متغطرِسًا بعض الشيء، قُل ما تريد، لكنَّه سدَّد الفواتير في الوقت المحدد».

لم يذهب الغريب إلى الكنيسة، ولم يكن يُفرِّق بين يوم الأحد والأيام غير الدينية، حتى من حيث الزي. تصوَّرت السيِّدة هول أنَّه يعمل بشكلٍ متقطِّعٍ. ففي بعض الأيام ينزل مبكرًا ويظل مشغولًا باستمرارٍ. وفي أحيان أخرى ينهض في وقتٍ متأخرٍ، ويقطع غرفته جيئة وذهابًا، وصوت غضبه مسموعٌ لساعات، ويُدخن، وينام على كرسيه أمام المِدفأة. لم يكن لديه أيُّ تواصُلٍ مع العالم خارج القرية. استمرَّ مزاجُه متقلِّبًا؛ كان يبدو غالبًا كرجلٍ يعاني من استفزازٍ لا يُحتَمَل، ومرة أو مرتين قام بقطع أشياءٍ، أو تمزيقها، أو سحقها، أو كسرها في نوبات عنفٍ متقطعة. بدا أنَّه يعاني من تهيُّجٍ مزمنٍ شديدٍ. تزايدتْ عادته في التحدُّث إلى نفسه بصوتٍ منخفضٍ؛ وعلى الرغم من أنَّ السيِّدة هول كانت تتنصت بجدية وانتباهٍ، فلم تتمكَّن من تحديد ما تسمعه.

نادرًا ما كان يخرج في ضوء النهار، لكنَّه كان يخرج عند الشفق متدثِّرًا بالكامل، سواء كان الطقس باردًا أم لا، ويختار المسارات المنعزلة أو التي تظلِّلها الأشجار. وكانت نظَّارته الجاحظة ووجهه المضمد المروع تحت سقيفة قبعته، يظهر بغيضًا فجأة في الظلام أمام واحدٍ أو اثنين من العمَّال العائدين إلى منازلهم؛ وظهر أمام تيدي هينفري أثناء خروجه متعثِّرًا من حانة «سكارليت كوت» ذات ليلة في التاسعة والنصف مساءً، وارتعد تيدي بشكلٍ مخزٍ من رأس الرجل الغريب الذي يشبه الجمجمة (إذ كان يمشي وقبَّعته في يده)، وظهرت مضاءة بالضوء المفاجئ الذي انبعث عند فتح باب الحانة. وكان الأطفال عندما يروْنه بعد حلول الظلام

يحلمون بالأشباح، ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كان الأولاد يكرهونه أكثر ممَّا يكرههم، أو العكس؛ وإنَّما المؤكد هو الكراهية المتبادَلة.

كان من الطبيعي أن يصبح شخصًا بهذا المظهر والسلوك الغريبين مثار حديثٍ متكررٍ في قرية مثل إيبينج. وانقسم الرأي إلى حدٍّ كبيرٍ حول مهنته. على أنَّ السيدة هول كانت حسَّاسة بشأن هذه النقطة؛ وعند سؤالها، أوضحتْ بدقة فائقة أنَّه «باحثٌ تجريبيٌّ»، مع التشديد بحذرٍ على مقاطع كلماتها وكأنها تخشى المزالق. وعند سؤالها عن طبيعة بحثه التجريبي، كانت تقول بنوعٍ من التفوق إنَّ معظم المتعلمين يعرفون مثل هذه الأشياء، وبالتالي توضِّح أنَّه «اكتشف أشياءَ». كما قالت إنَّ زائرها تعرَّض لحادثٍ أدى إلى تغيير لون وجهه ويديه مؤقتًا؛ ونظرًا لحساسيته، فإنَّه لا يودُّ أن يرى الناس أثر الحادث عليه.

وبعيدًا عن سمعها، كانت هناك وجهة نظر أخرى أنَّه مجرمٌ يحاول الهروب من العدالة عن طريق لفِّ نفسِه بالضمادات ليتخفَّى تمامًا عن أعين الشرطة. نَبَعَتْ هذه الفكرة في ذهن السيِّد تيدي هينفري. ولكن لم يسمع أحدٌ عن وقوع جريمة من أيِّ حجمٍ يعود تاريخها إلى منتصف أو نهاية فبراير. ومن هنا بدأ السيِّد جولد، وهو مساعدٌ تحت الاختبار في المدرسة الوطنية، يفكر في هذه النظرية؛ متصوِّرًا أنَّ الغريب كان فوضويًّا متنكرًا، ويقوم بتحضير متفجرات، وقرَّر القيام بعمليات المباحث حسبما يسمح وقته. كانت عملياته في معظمها عبارة عن النظر بإمعانٍ إلى الغريب كلَّما التقيا، أو سؤال الناس الذين لم يروْا الغريب أبدًا. لكنَّه لم يتحقَّق من أيِّ شيء.

وهناك تصوُّرٌ آخر استند إلى فكرة السيِّد فيرينسايد؛ إمَّا بقبول وجهة نظره عن التهجين، أو بتعديلها قليلًا. وعلى سبيل المثال، أكَّد سيلاس دورجان، بعد أن سمِع الموضوع، أنَّ الغريب «إذا اختار أن يعرض نفسه في الأسواق، سرعان ما سيجني ثروة»؛ وكونه لاهوتيًّا إلى حدٍّ ما، فقد قارن الغريب بالرجل ذي الموهبة الواحدة. على أنَّ وجهة نظرٍ أخرى رأت المسألة برمَّتها على أنَّ الغريب رجلٌ مجنونٌ غيرُ مؤذٍ. يا لها من ميزة، تفسِّر كل شيء على الفور.

وبين هذه المجموعات الرئيسة، هناك المتردِّدون والمساومون. يوجد لدى سكان ساسكس بعض المعتقدات الخرافية؛ وفقط بعد أحداث أوائل أبريل بدأ يسري همسٌ في القرية لأوَّل مرَّة بأنَّ الرجل الغريب هو رجلٌ خارقٌ، وتعود هذه الفكرة أساسًا إلى النساء.

وبغض النظر عن اختلاف تصوُّرات الناس في إيبينج حوله، فقد اتفقوا جميعًا على كرهه. كان تهيُّجه شيئًا مذهلًا لهؤلاء القرويين الهادئين في ساسكس، على الرغم من أنَّه قد يكون مفهومًا لعقلية سكان المناطق الحضرية. إيماءاته المتوتِّرة التي كانت تفاجئهم بين الحين والآخر، وسرعة خطواته المتهوِّرة بعد حلول الظلام عند النواصي الهادئة، وموقفه اللا إنساني تجاه أيِّ فضولٍ مؤقتٍ، وخروجه عند الشفق الذي أدَّى إلى إغلاق الأبواب، وإنزال الستائر، وإطفاء الشموع والمصابيح – من يمكنه الموافقة على مثل هذه الأمور؟ كانوا يتجنَّبونه عندما يسير في القرية. وعندما يمرُّ بمجموعة الشباب الفكاهيين، كان يسرع في خطواته بعصبية؛ لأنَّهم يقلدونه برفع ياقات معاطفهم وخفض

حواف قبَّعاتهم ويسيرون خلفه. كانت هناك أغنية شعبية في ذلك الوقت تُسمَّى «الرجل الشبح»، وقد غنَّتها الآنسة ستاتشيل في حفل المدرسة (للمساعدة في جمع مصابيح للكنيسة). وبعد ذلك، كلما التقى اثنان أو أكثر من القرويين وظهر الغريب، كان ينطلق من بينهم صفيرٌ حادٌّ أو خافتٌ بجزءٍ من هذا اللحن. كما كان الأطفال الصغار يسيرون خلفه ببطءٍ قائلين «الرجل الشبح!»، ثم ينطلقون مبتهجين وهم يرتجفون.

التهم الفضول دكتور كاس، الطبيب العام. أثارت الضمادات اهتمامه المهني، وأثار الحديث عن الألف زجاجة وزجاجة غيرته. ظلَّ يتوق طوال شهري أبريل ومايو إلى فرصة للتحدُّث مع الغريب. وأخيرًا، وقبل حلول العيد، لم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك، فلجأ إلى قائمة اشتراكات صندوق التمريض في القرية كذريعة. فوجئ بأنَّ السيِّد هول لا يعرف اسم ضيفه. قالت السيِّدة هول: «أعطاني اسمه»، وهو تأكيدٌ لا أساس له من الصحة، «لكنَّني لم أسمعه جيِّدًا». فقد كانت على يقينٍ أنَّ عدم معرفتها اسم الرجل يبدو سخيفًا.

طَرَقَ كاس بابَ غرفة الاستقبال ودخل. أتاه صوتٌ من الداخل، مسموعٌ إلى حدٍّ ما، يُطلِق اللعنات. قال كاس: «عفوًا على اقتحامي غرفتكَ»، ثم أغلق الباب، وبالتالي أبعد السيِّدة هول عن بقية المحادثة.

تمكَّنتْ من سماع همهمة الأصوات لعشر دقائق، ثم سمعتْ صيحة تنمُّ عن الاندهاش، وحركة أقدامٍ، ودفع كرسيٍّ إلى الجانب، وضحكًا بصوتٍ عالٍ، وخطواتٍ سريعة نحو الباب، ثم ظهر كاس ووجهه أبيض، وعيناه تحدِّقان من فوق كتفه. ترك كاس الباب مفتوحًا خلفه، وسار

عبر الردهة إلى السلَّم دون أن ينظر إليها. سمعت السيِّدة هول قدميه مسرعتين، وهو يحمل قبعته في يده. وقفت خلف الباب تنظر إلى باب غرفة الاستقبال المفتوح. سمعت الغريب يضحك بهدوءٍ، ثم صوت خطواته عبر الغرفة. لم تستطع رؤية وجهه من مكانها. أغلق الغريب الباب بقوة، وساد الصمت ثانية في المكان.

سار كاس خلال القرية، وتوجَّه مباشرة إلى القسِّ بونتينج. «هل أنا مجنونٌ؟»، هكذا بدأ كاس فجأة عندما دخل إلى غرفة مكتب القسِّ الصغيرة المتهالكة. «هل أبدو كشخصٍ مجنونٍ؟».

«ماذا حدث؟»، سأله القسُّ، وهو يضع صدفة متحجِّرة فوق مجموعة من الأوراق تضم موعظته القادمة.

«ذلك الشاب في الفندق...».

«حسنًا؟».

قال كاس: «أَعطني شيئًا أشربه»، ثم جلس.

وعندما هدأتْ أعصابه، بعد كأسٍ من شراب الشيري الرخيص، المشروب الوحيد المتاح لدى القسِّ الطيِّب، أخبره بالمقابلة التي أجراها للتَّوِّ. قال لاهثًا: «دخلتُ، وبدأتُ في مطالبته بالاشتراك في صندوق التمريض. كان يضع يديه في جيوبه عندما دخلتُ، وجلس متكئًا على كرسيه. أخذ يتشمَّم. أخبرته أنَّني سمعتُ عن اهتمامه بالأمور العلمية. قال نعم، ثم تشمَّم ثانية. ظلَّ يتشمَّم طوال الوقت؛ من الواضح أنَّه أُصيب مؤخرًا بنزلة بردٍ شديدة. لا عجب أنَّه يلفُّ

نفسه بهذه الطريقة! تحدَّثتُ عن صندوق التمريض، مع إبقاء عيني مفتوحتين طوال الوقت. لديه زجاجاتٌ، ومواد كيميائية في كلِّ مكانٍ. ولديه أيضًا ميزانٌ، وأنابيب اختبارٍ على حوامل. وهناك رائحة، رائحة زهرة الربيع المسائية. «هل سيشترك؟» قال إنَّه سيفكر في الأمر. سألته مباشرة عمَّا إذا كان يتناول شيئًا بالبحث. فقال نعم. «هل هو بحثٌ طويلٌ؟» تضايق جدًّا، وقال: «إنَّه بحثٌ طويلٌ ملعونٌ»، وهو يستشيط غضبًا، إن جاز التعبير. قلت: «أوه». ظهر غضبه. كان الرجل على شفا الغليان، وسؤالي جعله يغلي. كان قد حصل على وصفة، وصفة عالية القيمة، لكنَّه لم يقل السبب. هل هي وصفة طبية؟ «عليكَ اللعنة! لماذا تسأل؟» اعتذرتُ له. تشمَّم بقوة وسَعَلَ. استأنف، وقرأها. خمسة مكونات. وضعها على الطاولة. أدار رأسه. رفع تيار هواء من النافذة الورقة. صوت هسهسة، وحفيف. قال إنَّه كان يعمل في غرفةٍ ذات مدفِأة مفتوحة. رأيتُ وميضًا؛ كانت الوصفة تحترق وترتفع أعلى المدخنة. هرعتُ نحوها وهي تتحرك بخفَّة أعلى المدخنة. وعندئذٍ فقط، لتوضيح قصَّته، رفع ذراعه».

«حسنًا؟».

«لم أرَ يدًا، بل مجرد كُمٍّ فارغٍ. يا إلهي! تصوَّرتُ أنَّ هذا نوعٌ من التشوُّه! وافترضتُ أنَّ لديه ذراعًا من الفلين، وقد خلعها. ثم فكرتُ أنَّ هناك شيئًا؛ ما الذي يُبقي هذا الأكمام مرفوعة ومفتوحة، إن لم يوجد شيءٌ داخلها؟ أقول لكَ إنَّ الكُمَّ كان فارغًا؛ فارغًا وصولًا إلى المفصل. كنتُ أرى خلاله وصولًا إلى كوعه، وكان هناك بصيصٌ من الضوء يشعُّ

من قطعة قماشٍ. قلت: «يا إلهي!». توقَّف محدقًا بوجهي بنظَّارته السوداء، ثم في كُمِّه».

«وماذا بعد؟».

«هذا كلُّ شيءٍ. لم يقل كلمة واحدة، بل ظلَّ ينظر بغضبٍ، ثم وضع كُمَّه مرَّة أخرى في جيبه بسرعة. وبعد ذلك قال: «كنتُ أقول إنَّ الوصفة تحترق، أليس كذلك؟». سألني وهو يسعل. قلتُ له: «كيف يمكنكَ تحريك كُمٍّ فارغٍ على هذا النحو؟». «كمٍّ فارغٍ؟»، أجبتُ: «نعم، كمٍّ فارغٍ».

«إنَّه كمٌّ فارغٌ، أليس كذلك؟ رأيتَ أنَّه كُمٌّ فارغٌ؟»، وقف على الفور، ووقفتُ أنا أيضًا. جاء نحوي في ثلاث خطواتٍ بطيئة جدًّا، ووقف بالقرب مني. تشمَّم بشكلٍ بغيضٍ. لم أبتعد وهو يقترب مني، على الرغم من أنَّني كنتُ متردِّدًا حول تلك الكتلة المضمدة وتلك الومضات؛ أليست كافية لإصابة أيِّ شخصٍ بالتوتُّر.

«قال: «تقول إنَّه كُمٌّ فارغٌ؟». قلتُ: «بالتأكيد». استمرَّ في التحديق دون أن يتفوَّه بشيءٍ، وبدأ بوجهٍ وقحٍ خالٍ من أي نظرة في إصدار صريرٍ خفيفٍ. ثم سحب كُمَّه بهدوءٍ شديدٍ من جيبه ثانية، ورفع ذراعه نحوي كأنَّما يريدني أن أراه مرَّة أخرى. قام بذلك ببطءٍ شديدٍ جدًّا. نظرتُ إليه. بدا الزمن الذي مرَّ دهرًا. قلتُ له: «حسنًا؟ لا يوجد شيءٌ في الكُمِّ».

«كان لا بُدَّ أن أقول شيئًا، وقد بدأتُ أشعر بالخوف. كنتُ أرى الكُمَّ فارغًا. أخذ يمدُّ الكُمَّ نحوي مباشرة ببطءٍ شديدٍ، إلى أن أصبح طرف الكُمِّ على بُعد ست بوصاتٍ من وجهي. يا لغرابة أن أرى كُمًّا فارغًا يتجه ناحيتك هكذا! ثم...».

«حسنًا، ثم ماذا؟»

– شيء ما... شيء مثل الإصبع والإبهام، شعرتُ به يقرص أنفي.

بدأ بونتينج يضحك.

«لم يكن هناك أيُّ شيءٍ!»، قال كاس، وصوته يرتفع، ويكاد يصل إلى صرخة عند كلمة «هناك». ثم أضاف: «يمكنكَ أن تضحك؛ لكنَّني ذُهِلت، وضربتُ طرف كُمِّه بقوةٍ، ثم استدرتُ وخرجتُ مسرعًا من الغرفة... تركته...».

توقَّف كاس. لم يكن هناك شكٌّ في صدق شعوره بالذعر. استدار كشخصٍ مغلوبٍ على أمره، وتناول كأسًا ثانيًا من شراب الشيري الذي قدَّمه له القسُّ. قال كاس: «عندما ضربتُ طرف كُمِّه، أقول لكَ، شعرتُ كأنَّني أضرب ذراعًا. وإنَّما لم تكن هناك أيُّ ذراعٍ! ولا حتى شبح ذراع!».

أخذ السيد بونتينج يفكر في الأمر؛ ونظر متشكِّكًا نحو كاس، ثم قال: «إنَّها أغرب قصَّة». بدا حكيمًا ورزينًا بالفعل. قال السيد بونتينج، بتأكيدٍ حصيفٍ: «إنَّها بالفعل أغرب قصَّة».

الفصل الخامس

سرقة بيت القسِّ

وصلتنا أساسًا حقائق سرقة بيت القسِّ عن طريق وسيط القسِّ وزوجته. حدثتْ الواقعة في الساعات المبكرة من يوم عيد العنصرة[1]، اليوم المكرَّس في إيبينج للاحتفال في نادي القرية. يبدو أنَّ السيِّدة بونتينج استيقظتْ فجأة في فترة السكون الذي يسبق الفجر، ولديها انطباعٌ قويٌّ بأنَّ بابَ غرفة نومهما قد فُتِح وأُغلِق. لم توقِظ زوجها في البداية، لكنَّها جلستْ في السرير تتنصت ثم سمِعتْ بوضوحٍ صوتَ أقدامٍ حافية تصدر من غرفة الملابس المجاورة، وتسير على طول الممرِّ نحو السُّلَّم. وما إن شعرتْ بالاطمئنان، حتى أيقظتْ القسَّ السيِّد بونتينج بقدر ما استطاعت من هدوءٍ. لم يشعل أيَّ ضوءٍ، لكنَّه وضع نظَّارته والروب المنزلي، وانتعل خُفَّ الحمام، ثم خرج إلى الردهة عند السلَّم ليستمع. سمِع بوضوحٍ صوت حركة في غرفة مكتبه في الطابق الأسفل، ثم صوتَ عطسٍ عنيفٍ.

(١) عيد مسيحي يُحتفل به بعد عيد القيامة بخمسين يومًا – المترجمة.

وعندئذٍ عاد إلى غرفة نومه، وتسلَّح بالسلاح البدهي؛ قضيب المِدفأة الحديدي، ثم نزل السُّلَّم دون إحداث أيِّ صوتٍ قدر الإمكان. أمَّا السيدة بونتينج، فقد وقفتْ أعلى السُّلَّم.

كانت الساعة قرابة الرابعة، وظلام الليل ينقشع. ظهر وميضٌ خافتٌ من الضوء في الصالة، لكن باب غرفة المكتب كان مفتوحًا ومظلمًا تمامًا. كما كان السكون يلفُّ كلَّ شيءٍ، باستثناء صرير خافتٍ يصدر من السلَّم نتيجة خطوات السيِّد بونتينج، علاوة على حركة طفيفة في غرفة المكتب. ثم انكسر شيءٌ ما، وسُمِع دُرجٌ يُفتح، وصوت حفيف الأوراق، ثم انطلاق لعنات، وصوت إشعال عود ثقاب ملأ غرفة المكتب بضوءٍ أصفر. وصل السيِّد بونتينج إلى الصالة؛ واستطاع من فتحة الباب أن يرى المكتب، والدرج المفتوح، وشمعة مشتعلة فوق المكتب. لكنَّه لم يستطع رؤية السارق. وقف في الصالة متردِّدًا، لا يعرف ماذا يفعل. تسلَّلت السيِّدة بونتينج، ووجهها شاحبٌ وعاقد العزم، إلى الطابق السفلي ببطءٍ خلف زوجها. شيءٌ واحدٌ ساعد السيد بونتينج على الاحتفاظ بشجاعته: اقتناعه بأنَّ هذا اللص يقيم في القرية.

سمِعا رنينَ نقودٍ؛ فأدركا أنَّ السارق وجد الاحتياطي المالي المنزلي من الذهب: جنيهين وعشرة أنصاف الجنيه، من الذهب. توتَّر السيِّد بونتينج عند سماعه صوت العملات الذهبيَّة، وقرَّر القيام بتصرُّفٍ مفاجئ. أمسك بالقضيب الحديدي بحزمٍ، واندفع إلى الغرفة، ووراءه من كثبٍ السيِّدة بونتينج. صاح السيِّد بونتينج بشراسة: «استسلم!»، ثم وقف مندهشًا؛ فقد كانت الغرفة خالية تمامًا.

على أنَّ اقتناعهما كان يقينيًّا بأنَّهما سمِعا، في تلك اللحظة بالذات، شخصًا يتحرك في الغرفة. وقفا يحدِّقان ربما لنصف دقيقة، ثم تحرَّكت السيِّدة بونتينج عبر الغرفة ونظرتْ خلف الستارة، في حين نظر السيِّد بونتينج، بدافعٍ من طيبته، تحت المكتب. أعادتْ السيِّدة بونتينج ستائر النافذة، وفتش السيِّد بونتينج في المدخنة باستخدام القضيب الحديدي. ثم فحصتْ السيِّدة بونتينج سلة المهملات الورقية، وفتح السيِّد بونتينج غطاء ناقلة الفحم. ثم توقَّفا وهما يتبادلان نظرات الاستفهام.

قال السيِّد بونتينج: «يمكنني أن أُقسم...».

«الشمعة!»، قال السيِّد بونتينج، «مَن أشعل الشمعة؟».

«الدُّرج!»، قالت السيِّدة بونتينج، «لقد اختفت النقود!».

أسرعتْ إلى المدخل.

«من بين كل الأحداث الغريبة...».

سمِعا عطسًا عنيفًا في الممرِّ؛ فانطلقا خارج الغرفة. وفي هذه الأثناء، سمِعا صوت باب المطبخ يُغلَق. «أحضري الشمعة»، قال السيِّد بونتينج، وقاد الطريق. سمِع كلاهما صوت المزلاج ينغلق بسرعة مرَّة أخرى.

عندما فتح باب المطبخ، رأى من خلال غرفة الغسيل أنَّ الباب الخلفي كان قد فُتِح للتوِّ، وأظهر ضوء الفجر المبكِّر الخافت الكتل الداكنة في الحديقة. كان السيِّد بونتينج على يقينٍ بعدم خروج أي شيء من الباب. لكنَّ الباب فُتِح، وظلَّ مفتوحًا للحظة، ثم أُغلِق بعنفٍ. وفي

تلك الأثناء، كانت الشمعة التي حملتها السيِّدة بونتينج من غرفة المكتب لا تزال تومض وتشتعل. مرَّت دقيقة أو أكثر قبل دخولها المطبخ.

كان المكان فارغًا. فتحا الباب الخلفي ثانية، وفتشا في المطبخ والمخزن والمغسلة بدقة، وأخيرًا نزلا إلى القبو. لم يجدا أيَّ شخص في البيت، رغم دقة بحثهما.

ظهر ضوء النهار، والقس وزوجته (وهما زوجان صغيران يرتديان ملابس جذابة) لا يزالان مندهشين في الطابق الأرضي، على ضوء الشمعة المرتعش الذي لم يعُد ضروريًّا.

الفصل السادس

الأثاث الذي جُنَّ جنونه

نهض السيِّد والسيِّدة هول في الساعات المبكرة من عيد العنصرة، ونزلا إلى القبو في هدوءٍ، قبل إيقاظ ميلي لتبدأ عملها هذا اليوم. كان عليهما القيام بمهمة ذات طبيعة خاصة، تتعلَّق بتركيز شراب البيرة. وما أن دخلا القبو، اكتشفتْ السيِّدة هول أنَّها نسيت إحضار زجاجة السرساباريلا(٢) من غرفتهما المشتركة. ونظرًا لأنَّها كانت الخبيرة والمسؤولة الرئيسة في هذه العملية، فقد تولَّى هول بلطفٍ الصعود إلى الطابق العلوي لإحضار الزجاجة.

فوجئ أنَّ باب غرفة الغريب كان موارِبًا. ذهب إلى غرفته، ووجد الزجاجة في المكان الذي أخبرته به زوجته.

ولاحظ خلال عودته بالزجاجة أنَّ مزلاج الباب الأمامي مفتوحٌ، وأنَّ البابَ كان مستندًا في الواقع ببساطة على المزلاج. ومع ومضة من إلهامٍ،

(٢) سارساباريلا (**sarsaparilla**): نبات يُستخدم لإضافة النكهة في صناعة البيرة، والعصائر، والمشروبات – المترجمة

ربط هذا الوضع بغرفة الغريب في الطابق العلوي ورأي السيِّد تيدي هينفري. لقد تذكَّر بوضوحٍ أنَّه أمسك الشمعة لزوجته، بينما كانت تغلق المزلاج في الليلة الماضية. توقف محدِّقًا أمام هذا المشهد، ثم صعد إلى الطابق العلوي ثانية والزجاجة في يده. طَرَقَ باب غرفة الغريب، لم يتلقَّ ردًّا. طَرَقَ مرَّة أخرى، ثم دفع الباب وفتحه على مصراعيه ودخل.

كان الوضع كما توقَّع: السرير، والغرفة أيضًا، خاليان. والأغرب من ذلك، حتى مع ذكائه الشديد، أن وجد ملابس الغريب متناثرة على كرسي غرفة النوم وعلى طرف السرير؛ وبقدر علمه، هي الملابس الوحيدة التي يملكها الغريب. كما تناثرت ضمادات ضيفهم أيضًا؛ وحتى قبعته الكبيرة المترهِّلة كانت معلَّقة برشاقة فوق دعامة السرير.

سمِع هول، وهو يقف هناك، صوت زوجته أتيًا من عُمق القبو، تتداخل بسرعة مقاطع كلماتها وتتصاعد نبرتها مع تساؤلاتها الأخيرة، التي يعرف أيُّ قرويٍّ في غرب ساسكس أنَّها إشارة إلى نفاد الصبر: «جورج، هل وجدتَ ما أريد؟».

عندئذٍ استدار، ونزل مسرعًا إليها. قال وهو يستند إلى درابزين سلَّم القبو: «يا جاني، ما قاله هينفري حقيقي. النزيل ليس في غرفته. ليس في غرفته، ومزلاج الباب الأمامي ليس مغلقًا».

لم تفهم السيِّدة هول في البداية. وبمجرد أن أدركت ما يقول، قررت أن ترى الغرفة الفارغة بنفسها. تقدَّمها هول، والزجاجة لا تزال في يده. قال: «إن لم يكن هناك، كيف توجد ملابسه هناك. ماذا يفعل من دون ملابسه؟ يا لها من مسألة مثيرة للغرابة والفضول».

تخيَّل كلاهما، خلال صعودهما سلَّم القبو، سماع صوت الباب الأمامي يُفتَح ثم يُغلَق؛ لكنهما شاهداه مغلقًا وما من أحد هناك، فلم يقل أيٌّ منهما كلمة للآخر حول هذا الموضوع في ذلك الوقت؛ وقد تأكدا لاحقًا أنَّ ما سمعاه كان صحيحًا. سبقت السيِّدة هول زوجها في الممرِّ، وصعدت قبله إلى الطابق العلوي. شخصٌ ما عطس على السلم. تصوَّر هول، وهو على بُعد ست خطواتٍ خلفها، أنَّه سمعها تعطس. ونظرًا لأنَّها سبقته، فقد تصوَّرت أن هول هو من يعطس. فتحتْ الباب، ووقفتْ تنظر إلى داخل الغرفة. قالت: «هذا شيءٌ في منتهى الغرابة!».

سمِعت شخصًا يستنشق خلف رأسها تمامًا، فاستدارتْ؛ فوجئت لرؤية هول على بُعد اثني عشر قدمًا من أعلى السلم. لكنَّه أصبح بجانبها في اللحظة التالية. انحنت إلى الأمام، ووضعتْ يدها على الوسادة، ثم تحت الملابس.

قالت: «الفرش بارد. لقد استيقظ منذ ساعة أو أكثر».

وهنا حدث شيءٌ غير عاديٍّ بالمرة. تجمَّعت الملابس الموجودة على السرير من تلقاء نفسها فجأة على شكل كومة، ثم قفزت من فوق السرير. بدا الأمر كأنَّما يدٌ أمسكت بهم من المنتصف وقذفتهم جانبًا. وبعد ذلك مباشرة، قفزت قبعة الغريب من فوق دعامة السرير، وطارت في رحلة التفاف دائرية في الهواء، ثم اندفعت مباشرة نحو وجه السيِّدة هول. وبالسرعة نفسها، طار الإسفنج من المغسلة؛ ثم ألقى الكرسي معطفَ الغريب وبنطلونه جانبًا بإهمالٍ، وأصدر بجفاءٍ ضحكاتٍ بصعوبة مماثل لصوت الغريب، ثم أدار الكرسي نفسه بأرجله الأربعة

في اتجاه السيِّدة هول، وبدا للحظة وكأنَّه يستهدفها ويهاجمها. صرختْ السيِّدة هول واستدارتْ، لكن أرجل الكرسي لمستْ ظهرها بلطفٍ، وإن كان بإصرارٍ، ودفعها هي وزوجها للخروج من الغرفة. أُغلِق الباب بعنفٍ، ثم بالترباس من الداخل. بدا أنَّ الكرسي والسرير يمارسان رقصة الانتصار للحظة، ثم فجأة ساد السكون.

سقطتْ السيِّدة هول في حالة شبه إغماءٍ بين ذراعي السيِّد هول في الممرِّ. وبصعوبة بالغة نجح السيِّد هول وميلي (التي أيقظتها صرخة الرعب) في إنزالها إلى الطابق السفلي، واستخدام المواد الطبيَّة المعتادة في مثل تلك الحالات.

قالت السيِّدة هول: «إنَّها الأرواح، أعرف أنَّها الأرواح. لقد قرأتُ عنها في الصحف. الموائد والكراسي تقفز وترقص...».

قال هول: «خذي قطرة أخرى من هذا، يا جاني، سوف يجعلكِ أفضل حالًا».

قالت السيِّدة هول: «أغلِق الباب واتركه في الخارج. لا تدعه يدخل مرَّة أخرى. لقد خمَّنت... كان يجب أن أعرف. لديه تلك الأعين والرأس المضمدة، ولا يذهب أبدًا إلى الكنيسة يوم الأحد. وكل تلك الزجاجات... أكثر مما يوجد عند أيِّ شخصٍ. لقد وضع الأرواح داخل الأثاث... أثاثي القديم الجيِّد! لقد كان ذلك الكرسي تحديدًا هو كرسي أمي العزيزة المسكينة، كانت تجلس عليه عندما كنتُ طفلة صغيرة، والآن ينهض الكرسي لمهاجمتي!».

قال هول: «مجرد قطرة أخرى من هذا الدواء، يا جاني، أعصابكِ متوتِّرة جدًّا».

أرسلا ميلي إلى الشارع، تحت أشعة الشمس الذهبية في الساعة الخامسة، لإيقاظ السيِّد ساندي وادجرز، الحدّاد. كان هذيان السيِّد هول، والأثاث في الطابق العلوي، غير عاديين. هل سيأتي السيِّد وادجرز؟ كان رجلًا عليمًا، وواسع الحيلة. تمعَّن السيِّد ساندي وادجرز في القضية، ثم قال: «أرى أنَّ المسألة تتعلَّق بالسحر».

كان السيِّد وادجرز قلقًا عندما وصل. أرادا منه أن يقود الطريق إلى الغرفة، لكنَّه لم يكن في عجلة من أمره، وفضَّل التحدُّث في الممرِّ. ثم ظهر على الطريق الصبي المتدرب عند هوكستر، صاحب المتجر، وبدأ يفتح مصاريع نافذة التبغ. نادوه للانضمام إلى المناقشة. وصل السيِّد هوكستر خلال بضع دقائق. أكدت العبقرية الأنجلوسكسونية للحكومة البرلمانية نفسها؛ إذ كان هناك قدرٌ كبيرٌ من الكلام، دون القيام بأيِّ عملٍ حاسمٍ. قال السيِّد ساندي وادجرز بإصرارٍ: «دعونا نتعرَّف على الحقائق أولًا. دعونا نتأكَّد من أنَّ التصرُّف الصحيح هو الضغط على هذا الباب لفتحه. قد يؤدي الضغط على الباب إلى كسره».

وفجأة، وبشكلٍ عجيبٍ، انفتح باب الغرفة في الطابق العلوي من تلقاء نفسه، وهم ينظرون إلى أعلى في ذهولٍ. شاهدوا الرجل الغريب ينزل السلَّم وهو متدثرٌ في أربطته، ويحدِّق بفظاظة أكثر من أي وقت مضى بنظارته الزرقاء الكبيرة. نزل بعجرفة وببطءٍ، مُحدِّقًا طوال الوقت. سار عبر الممر محدِّقًا، ثم توقف.

قال: «انظروا هناك!». تتبَّعتْ أعينهم اتجاه إصبعه داخل القفاز، ورأوا زجاجة السارساباريلا بجانب باب القبو.

دخل قاعة الاستقبال، وفجأة، بسرعة وشراسة، أغلق الباب في وجوههم.

لم ينطق أحدهم بكلمة إلى أن تلاشت أصداء صفق الباب. كانوا يحدقون إلى بعضهم . قال السيِّد وادجرز: «حسنًا، إن لم ينهِ ذلك كل شيء!»، ولم يستكمل العبارة.

ثم وجَّه حديثه إلى السيِّد هول قائلًا: «لو كنتُ مكانكَ، لذهبتُ إليه وطلبتُ تفسيرًا».

استغرق الأمر بعض الوقت لإقناع زوج صاحبة الفندق بالقيام بذلك. وأخيرًا، توجَّه نحو القاعة، وطرق الباب، ثم فتحه قائلًا: «عفوًا...».

قال الغريب بصوتٍ هائلٍ: «اذهب إلى الجحيم!، وأغلِق هذا الباب خلفكَ». وهكذا انتهت تلك المقابلة القصيرة.

الفصل السابع

الكشف عن حقيقة الغريب

دخل الغريب إلى قاعة الاستقبال الصغيرة في فندق «العربة والحصان» قرابة الساعة الخامسة والنصف صباحًا، وظلَّ هناك حتى منتصف النهار تقريبًا. كانت ستائر الغرفة مُسدَلة، والباب مغلقًا. لم يغامر أيُّ شخصٍ بالاقتراب من الغرفة، بعد صدِّ هول.

لم يتناول الغريب أيَّ شيءٍ طوال هذا الوقت. دقَّ الجرس ثلاث مرات، وفي المرَّة الثالثة بشراسة وبشكلٍ مستمرٍ، ولم يُجِبه أحدٌ. قالت السيدة هول: « ليذهب إلى الجحيم هو وعبارته: «اذهب إلى الجحيم»». وصلتهم الآن شائعة غير مكتملة عن سرقة بيت القس، جعلتهم جميعًا يفكرون في ربط المعلومات ببعضها. ذهب هول، بمساعدة وادجرز، للبحث عن السيِّد شوكلفورث، القاضي، وأخذ نصيحته. لم يغامر أحدٌ بالصعود إلى الطابق العلوي. لا يعرف أحدٌ فيما انشغل الغريب. كان يخطو بعنفٍ بين الحين والآخر صعودًا وهبوطًا، وسمعوه مرتين يطلق لعناتٍ، كما سمعوا تمزيق أوراقٍ، وتحطيمًا عنيفًا للزجاجات.

زاد عدد تلك المجموعة الصغيرة من الناس الخائفين والفضوليين. وصلتْ السيِّدة هوكستر؛ كما انضمَّ بعض الشباب المرحين المتألقين في ستراتٍ سوداء جاهزة الصُنع وربطات عنق مبطَّنة بالورق، فقد كان يوم عيد العنصرة؛ وكانوا يستفهمون بغرابة. حاول الشاب أرتشي هاركر تمييز نفسه، بالتوجه إلى الفناء ومحاولة اختلاس النظر أسفل ستائر النافذة. لم يستطع رؤية أيِّ شيء، لكنَّ تصرُّفه أعطى سببًا لانضمام شبابٍ آخرين من إيبينج إليه.

كان الاحتفال هذا العام واحدًا من أفضل احتفالات عيد العنصرة. امتدَّ -على طول شارع القرية- صفٌ من حوالي دستة أكشاك، وصالة للعبة الرماية، وعلى العشب، بجوار ورشة الحداد، كانت تقف عرباتٌ صغيرة لبيع الحلوى، كما كان بعض الغرباء المتأنقين من الجنسين يلعبون لعبة إلقاء الكرات الخشبية على صفٍّ من ثمار جوز الهند. ارتدى الرجال قمصانًا زرقاء، وارتدتْ السيدات ملابس وتلك القبعات العصرية ذات الريش. كان وودجر، من فندق «الظبي الأرجواني»، والسيِّد جاجرز، الإسكافي -الذي يبيع أيضًا دراجاتٍ عادية قديمة مستعملة- يمدَّان سلسلة تضمُّ علم المملكة المتحدة والشارة الملكية (التي احتفلت في الأصل بأول يوبيل فيكتوري) على طول الطريق.

أمَّا في الداخل، في الظلام المُصطنع لقاعة الاستقبال، الذي اخترقه شعاعٌ رقيقٌ من أشعة الشمس، كان الغريب متخفيًا داخل ضماداته الثقيلة غير المريحة، وهو خائفٌ -ولا بُدَّ أن نفترض أنَّه جائعٌ أيضًا- ويتأمَّل أوراقه من خلال نظَّارته الداكنة، أو يهزُّ زجاجاته الصغيرة

القذرة، وأحيانًا يشتم بوحشية الأولاد المتجمعين خارج النوافذ، حيث يسمعونه دون أن يروه. وفي الركن، بجانب المِدفأة، تكوَّمت شظايا نصف دزينة من الزجاجات المُحطَّمة، كما لوَّثتْ رائحة الكلور النفَّاذة هواء الغرفة. أصبحنا نعرف الكثير ممَّا سمعناه في ذلك الوقت، وممَّا شاهدناه لاحقًا في الغرفة.

فتح الغريب فجأة باب قاعة الاستقبال عند الظهر تقريبًا، ووقف مركزًا نظره على الأشخاص الثلاثة أو الأربعة في الحانة، ثم قال: «يا سيِّدة هول». ذهب شخصٌ بجُبنٍ لاستدعاء السيِّدة هول.

ظهرتْ السيِّدة هول بعد فترة قصيرة، وهي تلهث من شدة غضبها. وكان السيِّد هول لا يزال في الخارج. كانت قد تأمَّلت المشهد قبل قدومِها، ولذا جاءت وهي تحمل صينية صغيرة عليها فاتورة غير مدفوعة. قالت: «هل هي فاتورتكَ التي تريدها يا سيدي؟».

«لماذا لم تقدِّمي لي فطوري؟ لماذا لم تُجهزي وجباتي وتُجيبي على جرسي؟ هل تعتقدين أنَّني أعيش دون تناول الطعام؟».

أجابت السيدة هول: «لماذا لم تدفع فاتورتي؟ هذا ما أريد معرفته».

«أخبرتكِ قبل ثلاثة أيامٍ أنَّني أنتظر تحويلًا...».

«وأنا أخبرتكَ قبل يومين أنَّني لن أنتظر أيَّ تحويلاتٍ مالية. لا يمكنكَ التذمُّر إذا تأخَّر إفطاركَ قليلًا، إذا كانت فاتورتي تنتظر منذ خمسة أيامٍ. أليس كذلك؟».

تمتم الغريب بشتائم قصيرة، لكنَّها واضحة.

تصاعدتْ أصواتٌ من البار: «نرجسي، نرجسي!».

قالت السيِّدة هول: «سأكون شاكرة، يا سيدي، إذا احتفظتَ بشتائمك لنفسكَ».

وقف الغريب وبدا، أكثر من أي وقت مضى، كأنَّه خوذة غوص غاضبة. ساد شعورٌ في البار أنَّ السيِّدة هول تغلَّبتْ عليه؛ وقد أظهرت كلماته التالية الشيء نفسه.

بدأ قائلًا: «انظري، أيتُها المرأة الطيبة...».

قاطعته السيِّدة هول: «لا تقل إنَّني «امرأة طيبة»».

«لقد أخبرتكِ أنَّ حوالتي المالية لم تصل بعد».

قالت السيِّدة هول: «التحويلات المالية، بالطبع!».

«ومع ذلك، فإنَّني أجرؤ على القول بأنَّ في جيبي...».

«لقد أخبرتني قبل ثلاثة أيامٍ أنَّك ليس لديك أيُّ شيءٍ سوى جنيه من الفضَّة».

«حسنًا، لقد وجدت كمية أكبر...».

تصاعدت أصواتٌ من البار: «أوه ... أوه!».

قالت السيِّدة هول: أتساءل أين وجدتها».

يبدو أن تساؤلها أغضب الغريب كثيرًا، فضرب الأرض بقدمه قائلًا: ماذا تعنين؟».

قالت السيِّدة هول: «أنا أتساءل أين وجدتها. وقبل أن آخذ قيمة فواتيري أو تحصل على أي وجبات إفطارٍ، أو أفعل أي شيء على الإطلاق، عليكَ أن تخبرني شيئًا أو شيئين لا أفهمهما، ولا يفهمهما، ويتوق الجميع إلى الفهم. أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل لمقعدي في الطابق العلوي، وأريد أن أعرف كيف كانت غرفتكَ فارغة، وكيف دخلتَها مرة أخرى. يدخل النزلاء إلى هذا الفندق من الباب؛ هذه هي القاعدة المعمول بها في هذا المنزل، وأنتَ لا تفعل ذلك، وأريد أن أعرف كيف تدخل، وأريد أن أعرف…».

وفجأة رفع الغريب قبضة يديه في القفازين، وخبط على الأرض بقدمه، وصاح بعنفٍ غير عاديٍّ، أسكتها على الفور: «كفى!».

قال: «أنتِ لا تدركين من أنا، أو ما أنا عليه. سوف أُريكِ. بحق السماء! سوف أُريكِ». وضع راحة يده على وجهه، ثم سحبها. أصبح وسط وجهه تجويفًا أسود. قال: «هنا». تقدَّم، وسلَّم السيدة هول شيئًا تقبَّلته تلقائيًّا وهي تحدِّق بوجهه المتحوِّل. وعندما رأت هذا الشيء، صرخت بصوتٍ عالٍ، وأسقطته، وترنَّحت إلى الخلف. الأنف، كان الشيء هو أنف الغريب! وردي اللون ولامع، وأخذ يتدحرج على الأرض.

خلع بعد ذلك نظارته؛ فشهق كلٌّ من البار. ثم خلع قبعته، وبحركة عنيفة مزَّق سوالفه وضماداته؛ حيث استغرق الأمر لحظة. مرَّت لحظة من الترقُّب الرهيب في الحانة؛ ثم قال رجلٌ: «أوه، يا إلهي!»، وأسرع خارجًا.

ما حدث كان فظيعًا. وقفتْ السيدة مرتعدة من الصدمة وفمها مفتوحٌ، وركضتْ صارخة نحو باب الفندق. بدأ الجميع يتحركون. كانوا يتوقَّعون رؤية ندوبٍ وتشوهاتٍ وأشياءٍ مرعبة ملموسة، لكنَّهم فوجئوا! طارت الضمادات والشعر الزائف عبر الممرِّ إلى الحانة، في قفزة متعرجة لتجنبهم. سقط الجميع بعضهم فوق بعضٍ وهم يهرولون على السُّلَّم. وقف الرجل صائحًا يقدِّم تفسيرًا غير متماسكٍ، لكنَّه كان مجرد هيكلٍ مجسَّمٍ يصل إلى ياقة المعطف، وبعد ذلك لا شيء، لا شيء مرئي على الإطلاق!

سمِع النَّاس في القرية صيحاتٍ وصرخاتٍ، وشاهدوا النَّاس يتدافعون بقوة من فندق «العربة والحصان» إلى الشارع. شاهدوا السيِّدة هول تسقط، والسيِّد تيدي هينفري يقفز لتجنُّب السقوط فوقها. ثم سمِعوا صرخاتٍ مخيفة من ميلي، التي خرجتْ فجأة من المطبخ عند سماعها ضجيج الاضطراب، ورأت جسد الغريب من الخلف بلا رأسٍ. تصاعدت الأمور فجأة.

اندفع الجميع على الفور إلى الشارع الذي يوجد به الفندق: بائع الحلويات، ومالك كشك لعبة إلقاء الكرات الخشبية ومساعده، ومالك الأرجوحة، والفتيان والفتيات الصغار، والمتأنِّقون الريفيون، والفتيات المتأنِّقات، وكبار السن في ستراتٍ خاصة بالأعياد، والغجر في ملابسهم الغريبة؛ اندفعوا جميعًا يركضون نحو الفندق. وبأعجوبة، احتشد قرابة أربعين شخصًا عند الفندق في فترة زمنية قصيرة، وأعدادهم تتزايد بسرعة؛ وهم يترنَّحون، ويصيحون، ويستفسرون، ويصرخون،

ويقترحون، أمام فندق السيِّدة هول. بدا الجميع متلهفين للحديث في وقتٍ واحدٍ، وكانت النتيجة مطالبات صارخة. أيَّدتْ مجموعة صغيرة السيِّدة هول، التي كانت في حالة انهيارٍ. كان هناك مؤتمرٌ، وأدلَّة مذهلة لشاهد عيان يصرخ. «يا للهول!»، «ماذا كان يفعل؟»، «هل ألحق أيَّ أذى بالفتاة؟»، «أعتقد أنَّه كان يطاردهم بسكينٍ»، «كلا. بل أقول لكَ، ولا أقصد أي إساءة، إنَّه رجلٌ بلا رأسٍ!»، «هذا هراءٌ، هذه خدعة ساحرٍ»، «لقد نزع الضمادات...».

في محاولة للرؤية من خلال الباب المفتوح، تدافع الحشد متخذًا شكل مثلثٍ متعرجٍ، مع قمته المغامِرة أقرب إلى الفندق. «لقد وقف للحظة، وسمعت الفتاة تصرخ، فاستدار نحوها. رأيتُ تنورتها تتحرك، وهو يطاردها. لم يستغرق عشر ثوانٍ، ثم عاد وفي يده سكينٌ ورغيفٌ، ووقف كأنَّما يحملق. هذا منذ أقل من عدة لحظاتٍ. دخلت من الباب. أقول لكم، ليس لديه رأسٌ على الإطلاق...».

ساد اضطرابٌ في الخلف، وتوقَّف المتحدِّث وتنحَّى جانبًا ليفسح الطريق لموكبٍ صغيرٍ يسير بحزمٍ شديدٍ نحو الفندق: أولًا السيِّد هول، وجهه شديد الاحمرار ويبدو عليه التصميم، ثم السيِّد بوبي جافرز، شرطي القرية، ثم السيِّد وادجرز الحكيم. جاؤوا الآن وهم مسلحون بمذكرة تفتيشٍ.

تصايح الناس بمعلوماتٍ متضاربة حول الظروف الأخيرة. قال جافرز: «برأسٍ أو من دون رأسٍ، يجب أن أقبض عليه، وسوف أفعل».

صعد السيِّد هول السلَّم، وتوجَّه مباشرة إلى باب قاعة الاستقبال وفتحه؛ ثم قال: «أيُّها الشرطي، قُم بواجبكَ».

دخل جافرز، وبعده هول، وخلفهما وادجرز. رأوا في الضوء الخافت شخصًا بلا رأسٍ في مواجهتهم؛ أمسك بإحدى يده قطعة من الخبز قضم بعضها، وفي اليد الأخرى قطعة من الجبن.

«هذا هو!»، قال هول.

صدر صوتٌ غاضبٌ من فوق ياقة الشخص: «ما هذا بحق الشيطان؟».

قال السيد جافرز: «أنتَ زبونٌ غريبٌ، أيها السيِّد. وسواء كنتَ برأسٍ أو من دون رأسٍ، تقول المذكرة القبض على «شخص»، والواجب هو الواجب....».

قال الشخص: «ابتعد!»، وهو يتراجع إلى الخلف.

وفجأة ألقى الخبز والجبن، وأمسك السيِّد هول بالسكين على الطاولة في الوقت المناسب. صفع الغريب وجه جافرز بقفازه الأيسر. وفي اللحظة التالية، أوجز جافرز بعض العبارات الواردة بمذكرة التوقيف، وهو يمسك بمعصم الغريب وحلقه غير المرئيين. أصابه الغريب بركلة قوية على ساق جعلته يصرخ، لكنَّه حافظ على قبضته. ألقى هول السكين لينزلِق على طول الطاولة ويصل إلى وادجرز –الذي كان بمثابة حارس مرمى للهجوم، إذا جاز التعبير– ثم خطا للأمام، بينما كان جافرز والغريب يتمايلان ويترنَّحان نحوه، وهما مشتبكان

ومتصارعان. اصطدما بكرسي، فسقط جانبًا متحطِّمًا، ووقع الاثنان على الأرض.

قال جافرز من بين أسنانه: «أمسكوا قدميه».

وعندما حاول السيِّد هول تنفيذ هذه التعليمات، تلقَّى ركلة قوية في ضلوعه اتعبته للحظة. تراجع السيِّد وادجرز نحو الباب والسكين في يده، عند رؤيته للرجل الغريب مقطوع الرأس يتدحرج ويجثم فوق جافرز؛ وهكذا اصطدم وادجرز بالسيِّد هوكستر وسائق عربة سيدربريدج الذي جاء للمساعدة في إنفاذ القانون والنظام. وفي اللحظة نفسها، سقطتْ ثلاث أو أربع زجاجات من على الرفِّ متهشِّمة، وأطلقتْ رائحة نفاذة في هواء الغرفة.

صاح الغريب: «إنَّني أستسلم»، على الرغم من أنَّه أسقط جافرز. وفي اللحظة التالية، وقف يلهث؛ شخصٌ غريبٌ، بلا رأسٍ، وبلا أيدٍ، لأنَّه خلع قفازه الأيمن، وكذلك الأيسر. قال متنهدًا: «ما من فائدة!».

كان أغرب شيء في العالم أن تسمع صوتًا قادمًا كأنَّه من الفضاء الخالي، لكنَّ فلَّاحي ساسكس ربَّما هم أكثر الناس واقعية تحت الشمس. نهض جافرز أيضًا، وأخرج زوجًا من الأصفاد ثم أخذ ينظر محدِّقًا. قال جافرز بارتباكٍ، نتيجة إدراكٍ باهتٍ لهذا التناقض برمَّته: «أقول! يا إلهي! كيف أتعامل معه وأنا لا أراه».

حرَّك الغريب ذراعَه على صدريته، وكأنَّما بمعجزة انفكَّت الأزرار التي أشار إليها كُمُّه الفارغ. ثم قال شيئًا عن ساقه، وانحنى إلى أسفل. بدا أنَّه يتحسَّس حذاءه وجواربه.

قال هوكستر فجأة: «لماذا! هذا ليس رجلًا على الإطلاق. إنَّها مجرد ملابس فارغة. انظروا! يمكنكم رؤية أسفل ياقته وبطانات ملابسه. يمكنني مدُّ ذراعي...».

مدَّ ذراعَه؛ بدا أنَّها وجدت شيئًا في الهواء، ثم سحبها ثانية وهو في حالة من التعجُّب الشديد. وبنبرة رفضٍ وحشية، قال الصوت الصادر من الهواء: «كنتُ أتمنَّى أن تُبقي أصابعك بعيدًا عن عيني. الحقيقة هي أنَّني هنا بكامل جسدي -الرأس، اليدين، الساقين، وبقية جسدي- لكنَّني غير مرئيٍّ. هذا أمرٌ مزعجٌ ويثير الارتباك، لكنَّها الحقيقة. وهذا ليس سببًا لأن يتعرَّض كلُّ جزءٍ من جسمي إلى الوخز من جانب كلِّ ريفيٍّ غبيٍّ في إيبينج، أليس كذلك؟».

وبعد أن فكَّ جميع الأزرار، أصبحت ملابسه تقف فضفاضة وخالية تمامًا، والأكمام الخالية مستندة على الردفين مع المرفقين نحو الخارج.

ازدحمتْ الغرفة الآن بعد دخول العديد من الرجال الآخرين. قال هوكستر، متجاهلًا إساءة الغريب: «رجلٌ خفيٌّ، هه؟ من سمِع منكم بهذا من قبل؟».

«ربَّما يبدو الأمر غريبًا، لكنَّه ليس جريمة. لماذا يعتدي عليَّ شرطيٌّ بهذه الطريقة؟».

قال جافرز: «آه! هذه مسألةٌ مختلفة. لا شكَّ أنَّه يصعُب عليكَ قليلًا الرؤية في هذا الضوء، لكن معي مذكرة لإلقاء القبض عليك، وهي مذكرة صحيحة. لكنها ليست بتهمة أنَّكَ رجلٌ خفيٌّ، وإنَّما بتهمة السرقة. فقد تعرَّض منزلٌ للاقتحام وسرقة النقود».

«ماذا؟».

«جميعُ الدلائل تشير بالتأكيد إلى...».

قال الرجل الخفي: «هذا كلامٌ فارغٌ وهراءٌ!».

«آمل ذلك، يا سيدي؛ لكن لديَّ تعليمات».

قال الغريب: «حسنًا، سوف آتي. سوف آتي، ولكن بلا أصفادٍ».

أجاب جافرز: «هذا هو الشيء المعتاد».

اشترط الغريب: «بلا أصفادٍ».

قال جافرز: «أعذرني».

فجأة جلس الغريب، وقبل أن يدرك أيُّ شخصٍ ما يفعله، كان قد ألقى بالحذاء والجوارب والسروال أسفل الطاولة. ثم نهض ثانية وألقى بمعطفه.

«توقَّف، كُف عن ذلك»، قال جافرز مدركًا فجأة ما يحدث؛ وأمسك في صدرية الغريب الخفي، لكن القميص انزلق منه وتركه يتأرجح ويده فارغة. صاح جافرز: «أمسكوه! فلو خلع قميصه أيضًا...».

صاح الجميع: «أمسكوه!»، واندفعوا نحو القميص الأبيض المتحرك، الذي كان الشيء الوحيد المرئي من الغريب.

وجَّه كُمُّ القميص لكمة قوية إلى وجه هول، أوقفت تقدُّمه بذراعيه المفتوحتين، وقذفتْ به إلى الخلف نحو توثسوم، شمَّاس الكنيسة العجوز. وفي اللحظة التالية، ارتفع القميص إلى أعلى، وأخذ يتحرك بعنفٍ حول الذراعين، كأنَّ أحدًا يحاول خلعه من فوق رأسه. تشبَّث

جافرز بالقميص، ولم يسهم ذلك إلَّا في خلع القميص. فوجئ بلكمة في فمه قادمة من الهواء، فسحب عصاته وأخذ يحركها بشكلٍ متقطِّعٍ، لكنَّها أصابت قمة رأس تيدي هينفري بوحشية.

صاح الجميع: «احترسوا!»، والكلُّ يسدِّد ضرباتٍ عشوائية في الفراغ. «أمسكوه! أغلقوا الباب! لا تتركوه طليقًا! لقد أمسكتُ بشيءٍ! ها هو!»، يا لها من جلبة وصخبٍ، تلك التي تسبَّبوا فيها. يبدو أنَّهم جميعًا كانوا يتلقون الضربات دفعة واحدة. فتح ساندي وادجرز الباب ثانية، حيث شحذت ضربة مخيفة في الأنف ذكاءه، مما أدَّى إلى اضطرابٍ شديدٍ. أما الآخرون، الذين كانوا يتبعونهم بشكلٍ متقطِّعٍ، فقد وجدوا أنفسهم محشورين للحظة في الركن عند المدخل. واستمرَّ الضرب. انكسر السنُّ الأمامي لدى فيبس، التوحيدي؛ وأصيب غضروف أذن هينفري. وتعرَّض جافرز لضربة تحت الفك، لكنَّه استدار وأمسك بشيءٍ يوجد بينه وبين هوكستر خلال العِراك، ويحول دون تقاربهما. شَعَرَ بصدرٍ عضلي، وفي اللحظة التالية انطلقت مجمل كتلة الرجال المكافحين المتحمسين إلى القاعة المزدحمة.

«أمسكتُ به!»، صاح جافرز مختنِقًا ومترنِّحًا خلال الحشد الموجود، وهو يكافح بوجهٍ أرجوانيٍّ وأوردة متورمة عدوَّه الخفي.

ترنَّح الرجال يمينًا ويسارًا مع انتقال العِراك الغريب بسرعة نحو باب الفندق، خلال نصف دزينة من سلالمه. صاح جافرز بصوتٍ مخنوقٍ، وهو يمسك عدوَّه بإحكامٍ مستخدمًا ركبته، ثم دار وسقط بقوة واصطدمت رأسه بالحصى. وعندئذٍ فقط، ارتخت أصابعه.

انطلقتْ صرخاتٌ مضطربة: «أمسكوه!»، «إنَّه خفي!»، وهلُمَّ جرًّا. وعلى الفور، اندفع شابٌّ غريبٌ عن المكان، ولا يعرف أحدٌ اسمه، وأمسك شيئًا، ثم أفلت الشيء من قبضته، وسقط الشاب فوق الشرطي على الأرض. صرختْ امرأةٌ عن بُعدٍ، في منتصف الطريق، لأنَّ شيئًا ما دفعها. نبح كلبٌ، بعد أن تعرَّض لركلة غير مرئية، وركض يعوي إلى فناء بيت هوكستر. وخلال هذه المعمعة، أفلتَ الرجل الخفي. وقف الناس في ذهولٍ للحظات، ثم حلَّ عليهم شعورٌ بالذعر جعلهم يركضون متفرقين عبر أنحاء القرية، كما تُفرِّق الريحُ أوراقَ الشجر الذابلة.

أمَّا جافرز، فقد رَقَدَ بلا حراكٍ أسفل سلالم الفندق، وجهه لأعلى وركبتاه مثنيتان.

الفصل الثامن

على الطريق

الفصل الثامن موجز للغاية ويتناول جيبونز، عالِم الطبيعة الهاوي في المنطقة. بينما كان جيبونز مستلقيًا في منطقة فسيحة لا يوجد فيها شخصٌ على بُعد بضعة أميالٍ منه، كما كان يعتقد، وعلى وشك أن يغفو، سمِع بالقرب منه صوتَ رجلٍ يسعل ويعطس، ثم يشتم نفسه بوحشية. تطلَّع جيبونز حوله، ولم يجد أيَّ شيء. لكنَّ الصوت كان حقيقيًّا؛ فقد استمرَّ في شتائم متنوعة، تُميز الرجل المثقف، نمت إلى ذروتها، ثم تضاءلت، إلى أن تلاشت مع ابتعاد المسافة؛ حيث بدا له أنَّها تذهب في اتجاه أديردين. علا الصوت إلى عطسٍ تشنجيٍّ ثم انتهى. لم يسمع جيبونز شيئًا عن أحداث الصباح، لكن هذه الظاهرة أثارت اندهاشه وإزعاجه، بحيث أجهزت على هدوئه الفلسفي. نهض جيبونز على عجلٍ، وتوجَّه بأسرع ما يمكن أسفل منحدر التلِّ نحو القرية.

الفصل التاسع

السيِّد توماس مارفل

عليكَ أن تتخيَّل مظهر السيِّد توماس مارفل كشخصٍ ضخمٍ، وأنفه ذات نتوءٍ أسطوانيٍّ، وفمه متسعٌ ومموجٌ وشهوانيٌّ، ولحيته خشنة غريبة الشكل. يميل جسمه إلى الامتلاء؛ وأبرزتْ أطرافه القصيرة هذا الميل. كان يرتدي قبعة حريرية من الفرو، كما كان تكرار استخدام الخيوط وأربطة الأحذية محل الأزرار –وهو ما يبدو واضحًا في ملبسه– ما يميِّزه أساسًا كرجلٍ أعزب.

جلس السيِّد توماس مارفل ليريح قدميه على جانب الطريق في اتجاه أديردين، على بُعد قرابة ميلٍ ونصفٍ من إيبينج. كانت قدماه، باستثناء الجوارب المثقوبة دون انتظامٍ، عاريتين؛ وكانت أصابع قدميه كبيرة وواسعة مثل آذان كلب الحراسة. كان يفكر على مهلٍ (كما يفعل كلَّ شيءٍ على مهلٍ) في محاولة ارتداء حذاء. كان أفضل حذاءٍ ارتداه منذ فترة طويلة، لكنَّه كبيرٌ جدًّا عليه؛ في حين أنَّ الحذاء الذي كان لديه خلال فترة الطقس الجاف كان مناسبًا ومريحًا جدًّا، لكنَّه خفيفٌ ولا

يصلح في فترة الرطوبة. يكره السيَّد توماس مارفل الأحذية الواسعة، لكنَّه يكره الرطوبة. لم يفكر أبدًا في ما يكرهه أكثر. كان اليوم لطيفًا، ولا يوجد شيءٌ أفضل يمكن القيام به. ولذلك، وضع الحذاءين -أربعة فِرد- في مجموعة رشيقة على العشب وأخذ يتطلَّع إليها. وعند رؤيتهما بين العشب ونبتات الأزهار، خطر له فجأة أنَّهما قبيحان للغاية. لم يذهله على الإطلاق سماع صوت خلفه.

قال الصوت: «لكنَّها أحذية، على أي حالٍ».

أجاب السيِّد توماس مارفل، وهو يميل برأسه جانبًا لينظر إلى الأحذية بكراهية: «إنَّها أحذية من جمعية خيرية. وهذا أقبح زوجٍ من الأحذية في العالم!».

قال الصوت: «همم».

«لقد ارتديتُ أسوأ؛ في الواقع، لم أرتدِ أيَّ شيء. لكنَّني لم ارتدِ شيئًا قبيحًا هكذا -إذا سمحت لي بهذا التعبير. لقد أخذتُ أتجوَّل لعدة أيامٍ لاستجداء أحذية؛ لأنَّني سئمتُ منهما. إنَّها أحذية سليمة بالطبع، لكنَّ الرجل المحترم يختلف عن الصعلوك، ويهتم بحذائه. وإذا كنت ستصدقني، فإنَّني لا أملك شيئًا في البلد المبارك بأكمله إلا هذين الحذاءين. انظر إليهما! إنَّه بلدٌ جيِّد للأحذية، أيضًا، بشكلٍ عامٍّ. لكنَّه حظي السيِّئ. لديَّ حذائي في هذا البلد منذ عشر سنوات أو أكثر؛ ثم يعاملونني هكذا».

قال الصوت: «إنَّه بلدٌ وحشيٌّ، وسكانه خنازير».

قال السيِّد توماس مارفل: «أليس كذلك؟ يا إلهي! لكنَّ أحذيتها! أحذيتها تتفوَّق عليها».

أدار رأسه من فوق كتفه إلى اليمين، لينظر إلى حذاء محاوره بهدف المقارنة، لكنَّه لم يجد شيئًا، لا حذاء أو ساقين. أصابه ذهولٌ رهيبٌ. «أين أنتَ؟»، قال السيِّد توماس مارفل، وهو ينظر من فوق كتفه، وينهض على أربع. رأى امتدادًا من المساحات الشاسعة الخالية، وشجيرات النباتات المزهرة تتمايل مع الرياح.

قال السيِّد مارفل: «هل أنا مخمورٌ؟ هل تنتابني هلاوس؟ هل كنتُ أتحدَّث مع نفسي؟ ما...».

قال صوتٌ: لا تنزعج.

قال السيد توماس مارفل، وهو ينهض بقوة واقفًا على قدميه: «لا تتكلَّم من بطنِكَ، أين أنتَ؟ أنا منزعجٌ بالطبع!».

قال الصوت مكرِرًا: لا تنزعج».

قال السيِّد توماس مارفل: «أنتَ من سينزعج بعد دقيقة، أيُّها الأحمق السخيف. أين أنتَ؟ سوف ترى ما أفعله بكَ...».

وبعد فترة، قال السيِّد توماس مارفل: «هل أنتَ مدفونٌ؟».

لم يتلقَّ ردًّا. وقف السيِّد توماس مارفل حافيًا ومندهشًا، وكاد أن يلقي بسترته.

صدر صوت طائر الهدهد من بعيد: «بيويت».

قال السيِّد توماس مارفل: «الهدهد! هذا ليس وقت الحماقة». كان المكان مقفرًا؛ من الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب. وكان الطريق، بقنوات الصرف الضحلة وأوتاد الحدود البيضاء، يمرُّ خاليًا بسلاسة شمالًا وجنوبًا؛ وباستثناء صوت طائر الهدهد، كانت السماء الزرقاء خالية أيضًا. قال السيِّد توماس مارفل، وهو يضع معطفه على كتفيه ثانية: «ساعدني إذن. إنَّه الخمر! كان يجب أن أعرف».

قال الصوت: «كلا، ليست الخمر. عليكَ أن تحتفظ بهدوء أعصابِكَ».

«آه!»، قال السيِّد مارفل، وشحب وجهه وسط البقع التي تملؤه. «إنَّه الخمر!»، كرَّرت شفتاه بصوتٍ خافتٍ. استمرَّ يحدِّق بما حوله، ويدور ببطءٍ إلى الخلف؛ ثم قال همسًا: «أقسم إنَّني سمعتُ صوتًا».

«هذا صحيحٌ».

قال السيِّد مارفل: «ها هو الصوت يعود ثانية»، ثم أغلق عينيه، وشبَّك يديه فوق جبينه بإيماءة مأساوية. وفجأة جذبه شيءٌ ما من ياقته وهزَّه بعنفٍ، وتركه مذهولًا أكثر من ذي قبل. ثم قال الصوت: «لا تكن أحمق». قال السيد مارفل: «لقد جننتُ. هذا ليس جيِّدًا. إمَّا إنَّني جننتُ، وإمَّا إنَّها الأرواح».

قال الصوت: «لا هذا ولا ذاك. اسمع!».

قال السيِّد مارفل: «لقد جننتُ».

قال الصوت بحدَّة وثقة في النفس: «دقيقة واحدة».

«ماذا؟»، قال السيِّد توماس مارفل بشعورٍ غريبٍ، بعد أن شعر بإصبع لمست صدره.

«هل تعتقد أنَّني محض خيال؟ مجرد خيالٍ؟».

أجاب السيِّد توماس مارفل، وهو يفرك مؤخرة رقبته: «ماذا يمكن أن تكون؟».

قال الصوت بنبرة ارتياحٍ: «حسنًا. سوف أقذفُكَ بالحجارة إلى أن تغيِّر تفكيركَ».

«ولكن أين أنتَ؟».

الصوت لم يرد. صدر أزيز الحجر وهو يطير في الهواء، وأخطأ كتف السيِّد مارفل بمسافة قصيرة جدًّا. استدار السيد مارفل، ورأى الحجر يقفز في الهواء، ويتبع مسارًا معقَّدًا، ويتدلَّى للحظة، ثم يتدحرج نحو قدميه بسرعة تكاد تكون غير مرئية. أدهشته جدًّا حركة الحجر. صدر صوتُ الأزيز، ثم ارتدَّ الحجر من إصبع قدمه العارية إلى مصرف المياه. قفز السيِّد توماس مارفل، وصاح بصوتٍ عالٍ؛ ثم بدأ يركض، وتعثَّر بشيء غير مرئي، ووقع رأسًا على عقب، ثم اتخذ وضع الجلوس.

قال الصوت، والحجر الثالث يرتفع إلى أعلى منحنيًا ويظل معلقًا في الهواء: «والآن، هل أنا مجرد خيالٍ؟».

وعلى سبيل الرد، حاول السيِّد مارفل أن يقف على قدميه، لكنَّه وقع على الفور ثانية. ظلَّ ساكنًا تمامًا للحظة. قال الصوت: «إذا واصلتَ المقاومة، سوف ألقي الحجر نحو رأسِكَ».

جلس السيِّد توماس مارفل، وأمسك بإصبع قدمه المصابة، وهو يثبت عينيه على الصاروخ الثالث، ثم قال: «هذا يكفي. أنا لا أفهم. أحجارٌ تقذف نفسها؛ أحجارٌ تتحدث. ما هذا. لقد انتهيتُ».

سقط الحجر الثالث.

قال الصوت: «الأمر في منتهى البساطة. أنا رجلٌ خفيٌّ».

قال السيِّد مارفل وهو يلهث من الألم: أخبرني بشيء لا أعرفه. أين اختبأتَ، وكيف تفعل ذلك. لا أعرف. أنا مهزومٌ».

«هذا كلُّ شيءٍ»، قال الصوت، «أنا رجلٌ خفيٌّ. وهذا ما أريدُكَ أن تفهمه».

«يمكن لأي شخصٍ أن يرى ذلك. ولا حاجة لكَ أن تفقد صبركَ يا سيدي. والآن، إذن، أخبرني كيف تختبئ؟».

«أنا رجلٌ خفيٌّ. هذه هي النقطة الأساسية. وما أريدكَ أن تفهمه هو...».

قاطعه السيِّد مارفل: «ولكن، أين أنتَ؟»مكان وجودك؟».

«أنا هنا! على بُعد ست يارداتٍ أمامكَ».

«أوه، لا تقل ذلك! أنا لستُ أعمى. سوف تخبرني الآن أنَّك مجرد هواءٍ رقيقٍ. أنا لستُ واحدًا من أولئك الصعاليك الجاهلين...».

«نعم، أنا هواءٌ رقيقٌ. أنت تنظر من خلالي».

«ماذا! أليس لكَ جسدٌ. ما معنى هذا؟ هذا لغوٌ. أليس كذلك؟».

«أنا مجرد إنسانٍ. كائن حي، أحتاج إلى الطعام والشراب، وأحتاج إلى ملابس أيضًا. لكنَّني غيرُ مرئيٍّ. هل فهمتَ؟ أنا رجلٌ خفيٌّ. فكرة بسيطة. رجلٌ خفيٌّ».

«ماذا، أنتَ إنسانٌ حقيقيٌّ؟».

«نعم، إنسانٌ حقيقيٌّ».

قال مارفل: «دعني ألمسكَ، إذا كنتَ حقيقيًّا. وما من غرابة في ذلك. يا إلهي! كيف جعلتني أقفز! وكيف أمسكتَ بياقتي!».

شعر مارفل باليد التي التفَّتْ حول معصمه وأصابعه منفصلة، ثم ارتفعت أصابعه إلى أعلى الذراع، وربتتْ على صدرٍ عضلي، واستكشفت وجهًا ملتحيًا. ارتسم الذهول على وجه مارفل.

فقال: «أنا مذهولٌ! يا للروعة! ويمكنني أن أرى خلالك أرنبًا بوضوحٍ، على بُعد ميلٍ! لا يظهر منكَ أيُّ شيءٍ، باستثناء...».

دقَّق مارفل في المساحة الخالية بحرصٍ. وسأله، وهو يمسك بالذراع الخفية: «أنتَ لا تأكل خبزًا وجُبنًا؟».

«أنتَ مُحقٌّ تمامًا، فهو لا يُهضَم تمامًا».

قال السيِّد مارفل: «آه! نوعٌ ما شبحي، هه».

«بالطبع، كلُّ هذا لا يصل إلى نصف ما لديَّ من أشياءٍ رائعة، كما تعتقد».

أجاب السيِّد توماس مارفل: «هذا رائعٌ بما يكفي لرغباتي المتواضعة. كيف أمكنكَ ذلك! كيف تفعل ذلك؟».

«إنَّها قصةٌ طويلة. وبالإضافة إلى ذلك...».

قاطعه السيِّد مارفل: «أقول لك، هذه المسألة كلها تفوق قدراتي».

«ما أريد قوله الآن هو إنَّني بحاجة إلى المساعدة، لقد جئتُ لهذا السبب. وصلتُ إليكَ فجأة. كنتُ أتجوَّل؛ غاضبًا، وعاريًا، وعاجزًا. كان يمكنني أن أقتل. ورأيتكَ...».

«يا إلهي!»، قال السيِّد مارفل.

«سرتُ خلفكَ، ترددتُ، ثم واصلتُ...».

كان تعبير السيِّد مارفل بليغًا.

ثم توقفت «هنا»، قلت لنفسي: «يوجد شخصٌ منبوذٌ مثلي، وهذا هو الرجل المناسب لي». لذا رجعتُ، وأتيتُ إليكَ. أتيت إليكَ أنت. و...».

«يا إلهي!»، قال السيِّد مارفل: «لكنَّ رأسي يدور. هل لي أن أسأل كيف أساعدكَ؟ ما المساعدة التي تحتاج إليها؟ ...أيَّها الرجل الخفي!».

«أريدكَ أن تساعدني في الحصول على ملابس ومأوى، وبعد ذلك، أشياء أخرى. لقد تركتُ كلَّ شيء لفترة طويلة. وإن لم تساعدني – حسنًا! لكنَّك سوف تساعدني. يجب أن تساعدني».

قال السيِّد مارفل: «أنا في حالة ذهولٍ. لا تضغط عليَّ أكثر من ذلك. دعني أذهب. يجب أن أستعيد توازني قليلًا. أنتَ كدتَ تكسر إصبع قدمي. هذا كلُّه غيرُ معقولٍ. المساحة الفسيحة أمامي خالية، والسماء خالية. وما من شيءٍ يمكن رؤيته على مسافة أميالٍ سوى الطبيعة. ثم

يأتي صوتٌ. صوتٌ قادمٌ من الهواء! والحجارة! وقبضة يد – يا إلهي!».

قال الصوت: «استجمع شتات نفسك، لأنَّك يجب أن تقوم بالمهمة التي اخترتها لكَ».

نفخ السيد مارفل وجنتيه، واستدارتْ عيناه.

قال الصوت: «لقد اخترتكَ. أنتَ الرجل الوحيد، باستثناء بعض الحمقى هناك، الذي يعرف بوجود رجلٍ خفيٍّ. يجب أن تكون مُساعدي. ساعدني، وسأقدِّم لكَ أشياءً ممتازة؛ فالرجل الخفي يتمتَّع بسلطة». توقَّف للحظة ليعطس بعنفٍ.

ثم واصل قائلًا: «أمَّا إذا خنتني، إذا فشلتَ في تنفيذ توجيهاتي...» توقَّف عن الكلام، وربت على كتف السيِّد مارفل برقة. صرخ السيد مارفل من الرعب عندما لمسه الرجل الخفي. وقال، مبتعدًا عن اتجاه الأصابع: «أنا لا أريد أن أخونك، ولا تفكر في ذلك أبدًا، مهما فعلت. كلُّ ما أريده هو مساعدتكَ. قل لي فقط ما يجب أن أفعل. (يا إلهي!). أي شيء تريدني أن أقوم به، أنا على استعدادٍ للقيام به».

الفصل العاشر

زيارة السيِّد مارفل إلى إيبينج

أصبحتْ إيبينج مكانًا مولعًا بالجدل، بعد أن ولَّى الذعر الشديد الأوَّل. أطلَّ الشكُّ فجأة برأسه - شكوك عصبية، لا تستند إلى دليلٍ، لكنَّها شكوكٌ. من الأسهل كثيرًا عدم الاقتناع بوجود رجلٍ خفيٍّ؛ أما أولئك الذين رأوه يذوب في الهواء، أو شعروا بقوة ذراعه، فعددهم لا يتجاوز أصابع اليدين. ومن بين هؤلاء الشهود، كان السيِّد وادجرز الغائب حاليًّا؛ حيث انسحب متحصِّنًا خلف أقفالٍ وقضبان منزله. هناك أيضًا جافرز، الذي يرقد مذهولًا في قاعة استقبال فندق «العربة والحصان». إنَّ الأفكار العظيمة والغريبة التي تتجاوز التجربة، غالبًا ما يكون تأثيرها على الرجال والنساء أقل من تأثير الاعتبارات الأصغر والأكثر واقعية. كانت إيبينج ترفع الرايات مبتهجة، والجميع يرتدون الملابس الاحتفالية. كانوا يتطلَّعون إلى عيد العنصرة منذ شهرٍ أو أكثر. وبحلول فترة ما بعد الظهيرة، بدأ الجميع –حتى أولئك الذين يؤمنون بالأشياء غير المرئية– في استئناف التسلية قليلًا ولو مؤقتًا، على

افتراض أنَّه ابتعد. وبالنسبة للمتشككين، كان الأمر مزاحًا بالفعل. على أنَّ الجميع، المتشككين والمقتنعين على حد سواء، كانوا اجتماعيين بشكلٍ ملحوظٍ طوال ذلك اليوم.

كانت مرجة هايسمان مبتهجة؛ حيث كانت السيِّدة بونتينج وسيدات أخريات يقمن بإعداد الشاي في خيمة، بينما يركض في الخارج أطفال مدرسة الأحد في سباقاتٍ، ويمارسون الألعاب تحت إشراف صاخب من مساعد القسيس، والسيدتين كاس وساكبوت. هناك، دون شكٍّ، شعورٌ بالقلق، لكن أغلب الناس كانت تودُّ إخفاء أي مخاوف خياليَّة عانوا منها. فوق ساحة القرية الخضراء، كان يميل حبل قوي، يتدلَّى منه مقبض بكرة متأرجحة، يمكن أن يقذفها شخصٌ بعنفٍ نحو كيسٍ عند النهاية الطرفية الأخرى. هي لعبة يفضِّلها المراهقون، مثلها مثل المراجيح وإلقاء الكرات الخشبية على صفٍ من ثمار جوز الهند. هناك أيضًا التنزُّه، وجهاز البخار المُعلَّق على دوارٍ صغيرٍ مملوءٍ بالهواء مع نكهة حادَّة من الزيت، فضلًا عن موسيقى حادَّة أيضًا. أمَّا أعضاء النادي، الذين حضروا الكنيسة في الصباح، فقد كان مظهرهم رائعًا في شاراتهم الوردية والخضراء. كما قام بعضُ المرحين بتزيين قبَّعاتهم السوداء المستديرة بشرائط رائعة الألوان. وهناك فليتشر العجوز -وكانت تصوراته عن قضاء العطلات قاسية- الذي كان مرئيًّا بين زهور الياسمين عند نافذته أو من خلال الباب المفتوح (أيًّا كانت الطريقة التي اخترتها للنظر)، وهو مستقرٌّ بدقة على لوحٍ خشبيٍّ مدعومٍ على كرسيين، ويتولَّى طلاء سقف غرفته الأمامية.

دخل شخصٌ غريبٌ، قادمٌ من اتجاه المنحدرات إلى القرية قرابة الساعة الرابعة، كان قصيرَ القامة وقويَّ البنية، ويرتدي قبعةً رثَّة. بدت أنفاسه متقطِّعة؛ كانت وجنتاه مترهلتين ومنتفختين بشدَّة. ارتسم على وجهه الخوف، وكان يتحرك بنوعٍ من الحماس المتردِّد. التفَّ عند ناصية الكنيسة، واتخذ طريقه في اتجاه فندق «العربة والحصان». يتذكر فلتشر العجوز رؤيته، وأصابته الدهشة من طريقته الغريبة لدرجة أنَّه ترك– عن غير قصدٍ– كميَّة من سائل البياض تتساقط من الفرشاة في كُمِّ معطفه وهو ينظر إليه.

تصوَّر مالك كشك إلقاء الكرات الخشبية أنَّ هذا الغريب يتحدَّث إلى نفسه، كما لاحظ السيِّد هوكستر الشيء نفسه. توقَّف الرجل عند سلالم فندق «العربة والحصان». ووفقًا للسيد هوكستر، بدا وكأنَّه يعاني من صراعٍ داخليٍّ حادٍّ قبل أن يتمكَّن من حثِّ نفسه على دخول الفندق. وأخيرًا صعد السلَّم، وشاهده السيِّد هوكستر وهو ينعطف يسارًا ويفتح باب قاعة الاستقبال. سمِع السيِّد هوكستر أصواتًا من داخل الغرفة ومن الحانة تخبر الرجل بأنَّه أخطأ بدخوله. قال هول: «إنَّها غرفة خاصة!»، وعندئذٍ أغلق الغريب الباب بشكلٍ أخرق ودخل الحانة.

وفي غضون بضع دقائق ظهر ثانية وهو يمسح شفتيه بظهر يده، في جوٍ من الارتياح الهادئ الذي أثار إعجاب السيِّد هوكستر. وقف ينظر حوله لبضع لحظاتٍ، ثم رآه السيِّد هوكستر يمشي بطريقة خفيَّة غريبة نحو بوابات الفناء، التي تفتح عليها نافذة قاعة الاستقبال. استند الغريب، بعد تردُّدٍ، إلى إحدى دعائم البوابة؛ ثم أخرج غليونًا قصيرًا من

الطين، واستعدّ لملئه. ارتعشت أصابعه وهو يقوم بذلك، وأشعله بشكلٍ أخرق، وبدأ يدخن في حالة من الفتور، وهي الحالة التي كانت تناقضها تمامًا نظراته إلى الفناء بين الحين والآخر.

رأى السيِّد هوكستر هذا المشهد من فوق عبوات نافذة التبغ، ودفعه تفرُّد سلوك الرجل إلى مواصلة مراقبته.

وقف الغريب فجأة، ووضع غليونه في جيبه، ثم اختفى في الفناء. وعلى الفور تصوَّر السيِّد هوكستر أنَّه كان شاهدًا على سرقة تافهة؛ فقفز من منضدته، وركض نحو الطريق لاعتراض اللص، وما إن فعل ذلك، حتى عاود السيِّد مارفل الظهور، وقبعته مائلة، وحزمة كبيرة من مفرش طاولة أزرق في إحدى يديه، وفي اليد الأخرى ثلاثة دفاتر مربوطة معًا، كما ثبت بعد ذلك. تنهَّد بمجرد رؤية هوكستر، واستدار بحدَّة إلى اليسار، وبدأ يركض. «توقَّف يا لص!»، صرخ هوكستر، وانطلق خلفه. كانت لهفة السيِّد هوكستر قوية، لكنَّها قصيرة. رأى الرجل أمامه مباشرة، يندفع بسرعة إلى ناصية الكنيسة ليصل إلى طريق التلِّ. رأى أعلام القرية والاحتفالات وراءها، ونظر نحوه وجهٌ أو أكثر. صاح مجددًا: «توقَّف». كان قد سار بالكاد عشر خطواتٍ قبل أن يمسك شيءٌ ما بساقه على نحوٍ غامضٍ، ولم يعد يركض، وإنَّما طار في الهواء بسرعةٍ مذهلة. وفجأة رأى الأرض بالقرب من وجهه. وبدا له أنَّ العالَم يتناثر في مليون بقعة دائرية من الضوء، ولم تعد الإجراءات اللاحقة تثير اهتمامه.

الفصل الحادي عشر

في فندق «العربة والحصان»

لكي نفهم الآن بوضوحٍ ما حدث في الفندق، من الضروري أن نعود إلى لحظة ظهور السيِّد مارفل لأوَّل مرَّة أمام نافذة السيِّد هوكستر.

في تلك اللحظة تحديدًا، كان السيِّد كاس والسيِّد بونتينج في قاعة الاستقبال؛ يحقِّقان بجدية في أحداث الصباح الغريبة. كما كانا يقومان، بإذنٍ من السيِّد هول، بفحصٍ شاملٍ لمتعلقات الرجل الخفي. أمَّا جافرز، فقد تعافى جزئيًّا من سقطته، وعاد إلى منزله تحت مسؤولية أصدقائه المتعاطفين معه. أزالتْ السيِّدة هول ملابس الغريب المتناثرة، ورتَّبتْ الغرفة. وعلى الطاولة تحت النافذة، حيث اعتاد الغريب أن يعمل، عثر كاس في وقتٍ واحدٍ تقريبًا على ثلاثة دفاتر كبيرة في مخطوطة تحمل اسم «مذكرات».

«مذكرات!»، قال كاس، ووضع الدفاتر الثلاثة على الطاولة. «سنعرف الآن، على أيِّ حالٍ، شيئًا ما». وقف القسُّ ويداه على الطاولة.

«مذكرات»، كرَّر كاس، ثم جلس ووضع دفترين لدعم الثالث، وفتحه. «لا يوجد اسمٌ على الورقة الأولى. يا للهول! إنَّها شفرة، وأرقامٌ».

جاء القسُّ لينظر من فوق كتفه.

أخذ كاس يقلِّب الصفحات، وفجأة ظهرتْ على وجهه خيبة الأمل؛ «أنا... يا إلهي! كلُّ شيءٍ مكتوبٌ بالشفرة، بالرموز».

سأله السيِّد بونتينج: «ألا توجد رسومٌ بيانية؟ أو رسومٌ توضيحية تلقي الضوء على...».

قاطعه السيِّد كاس: «انظر بنفسكَ. بعضُها رياضيات، وبعضُها أعتقد باللغة الروسية أو ما يشبهها (استنادًا إلى الحروف)، وبعضُها باليونانية. والآن اليونانية، تصوَّرتُ أنَّكَ...».

«بالطبع»، قال السيِّد بونتينج، ثم أخرج نظَّارته ومسحها، وانتابه فجأة شعورٌ بعدم الارتياح؛ فلم يبقَ في ذهنه من اللغة اليونانية ما يستحق الحديث عنه، «نعم، اليونانية، بطبيعة الحال، قد تقدِّم دليلًا».

«سأجد لكَ مكانًا».

قال السيِّد بونتينج، وهو لا يزال يمسح نظَّارته: «أفضِّل إلقاء نظرة على الدفاتر أولًا».

«انطباع عام أولًا، يا كاس، وبعد ذلك، كما تعرف، يمكننا البحث عن أدلة».

سعل، وارتدى نظَّارته، ورتَّبها بشكلٍ سريعٍ، ثم سعل مرَّة أخرى، وتمنَّى أن يحدث شيءٌ لتجنُّب الفضيحة التي تبدو حتمية. تناول الدفتر الذي سلَّمه له كاس على مهلٍ، ثم حدث شيءٌ ما.

فُتِح الباب فجأة.

التفتَ السيِّدان بعنفٍ ونظرا حولهما، وشعرا بالارتياح لرؤية وجهٍ ورديٍّ أسفل قبعة حريرية من الفراء. «أيمكنني الدخول؟» سأل الوجه، ووقف محدقًا.

«كلا»، أجاب الرجلان على الفور.

قال السيِّد بونتينج: «توجَّه إلى الجانب الآخر، يا رجل». وقال السيد كاس بانفعالٍ: «أغلِق البابَ من فضلِكَ».

«حسنًا»، قال الدخيل بصوتٍ منخفضٍ يختلف تمامًا عن بحة صوته بداية. ثم أضاف بصوته الأوَّل: «أنتَ على حقٍ، قِفْ جانبًا!»، ثم أغلق الباب واختفى.

قال السيِّد بونتينج: «أعتقد أنَّه بحارٌ. إنَّهم يجيدون المزاح، قِفْ جانبًا! بالفعل. إنَّه مصطلحٌ بحريٌّ، أظنَّ أنَّه إشارة إلى عودته من الغرفة».

قال كاس: «أعصابي مستثارة تمامًا اليوم. لقد جعلني أقفز عندما فتح الباب هكذا».

ابتسم السيِّد بونتينج، كما لو أنَّه لم يقفز. ثم قال متنهدًا: «والآن، هذه الكتب».

تشمَّم شخصٌ ما عندئذٍ.

قال بونتينج، وهو يسحب كرسيًّا بجوار كاس: «هناك شيءٌ واحدٌ لا جدال فيه، وقعتْ في إيبينج أحداثٌ غريبة بالتأكيد خلال الأيام القليلة الماضية، أحداثٌ غريبة جدًّا، لكنَّني لا أستطيع بالطبع أن أؤمن بهذه القصَّة السخيفة المتعلقة برجلٍ خفيٍّ...».

قال كاس: «إنَّه أمرٌ لا يُصدَّق، غير معقولٍ. لكنَّ الحقيقة التي تبقى هي أنَّني رأيتُ..، رأيتُ بالتأكيد داخل كُمِّه...».

«ولكن، هل أنتَ متأكدٌ؟ لنفترض أنَّه انعكاس صورة على مرآة، على سبيل المثال. يمكن حدوث الهلوسة بسهولة. لا أعرف إن كنتَ قد رأيت ساحرًا جيِّدًا من قبل...».

قال كاس: «لن أجادل مرَّة أخرى. لقد انتهينا من هذه المسألة، يا بونتينج. والآن، ليس لدينا سوى هذه الكتب. آه! وإليك بعض ما اعتبره باليونانية! هذه حروفٌ يونانية بالتأكيد».

وأشار إلى منتصف الصفحة. تورَّد وجه السيِّد بونتينج قليلًا، واقترب لينظر من كثبٍ، ويبدو أنَّه وجد بعضَ الصعوبة في تثبيت نظَّارته. وأدرك فجأة شعورًا غريبًا في مؤخرة رقبته. حاول رفع رأسه، وواجه مقاومة شديدة. كان يشعر بضغطٍ غريبٍ، قبضة يدٍ ثقيلة وثابتة، جذبتْ ذقنه بشكلٍ لا يُقاوَم إلى الطاولة. قال صوتٌ همسًا: «لا تتحركا، أيُّها الرجلان الصغيران، وإلَّا هشَّمتُ رأسيكما!». نظر إلى وجه كاس، بالقرب من وجهه، ورأى كلٌّ منهما انعكاسًا مروِّعًا لدهشة الآخر.

قال الصوت: «أنا آسفٌ للتعامل معكما بخشونة، ولكن لا مفرَّ».

ثم أضاف: «منذ متى تعلَّمتما التطفُّل على مذكرات المحقِّق الخاصَّة»؛ وضرب ذقنيهما على الطاولة في وقتٍ واحدٍ، فاهتزَّت مجموعتان من الأسنان.

«منذ متى تعلَّمتما غزو الغرف الخاصة لرجلٍ يعاني من حظٍّ عاثرٍ؟»، وتكرَّرت الضربة.

«أين وضعوا ملابسي؟».

قال الصوت: «اسمعا. النوافذ مغلقة، وقد أخرجتُ المفتاح من الباب. أنا رجلٌ قويٌّ إلى حدٍّ ما، وقضيب تذكية نار المِدفأة في متناول يدي، بالإضافة إلى أنَّني خفيٌّ. ليس هناك أدنى شكٍّ في أنَّني أستطيع قتلكما والخروج بسهولة تامة إذا أردتُ أن... هل تفهمان؟ حسنًا. وإذا أطلقتُ سراحكما، هل تعدانني بعدم محاولة القيام بأيِّ عملٍ أخرق، وتفعلان ما أقوله لكما؟».

تبادل القسُّ والطبيب النظرات، وتجهَّم وجه الطبيب. أجاب السيِّد بونتينج «نعم»، وكرَّر الطبيب الإجابة نفسها. ترك الرجل الخفي عنقيهما. جلس الطبيب والقس، وقد أحمرَّ وجهاهما وتلوَّى رأساهما.

قال الرجل الخفي: «أرجوكما استمرَّا في مكانكما. ها هو قضيب المِدفأة».

وبعد أن حرَّك قضيب المدفأة ولمس به أنف كلٍّ منهما، واصل الرجل الخفي كلامه قائلًا: «عندما جئتُ إلى هذه الغرفة، لم أتوقَّع أن أجدها مشغولة. توقَّعتُ أن أجد ملابسي، بالإضافة إلى دفاتري التي تضم المذكرات. أين هي؟ لا... لا تنهض. أرى أنَّها اختفت. صحيحٌ أنَّ الجو الآن دافئ في النهار بما يتيح لرجلٍ خفيٍّ أن يركض عاريًا، غير أنَّ المساء باردٌ جدًّا. أريد ملابس، ومكان إقامة آخر؛ كما يجب أن أحصل على هذه الدفاتر الثلاثة أيضًا».

الفصل الثاني عشر

الرجل الخفي يفقد أعصابه

لا مفرَّ من قطع السرد مرَّة أخرى في هذه المرحلة لسببٍ مؤلمٍ للغاية، سنوضحه الآن. بينما كانت هذه الأشياء تجري في قاعة الاستقبال، وكان السيِّد هوكستر يشاهد السيِّد مارفل يدخِّن غليونه مستنِدًا على البوابة، كان السيِّد هول وتيدي هينفري يقفان على مسافة عشر ياردات، ويناقشان في حالة من الحيرة الملبَّدة بالغيوم الموضوع الوحيد في إيبينج.

وفجأة صدرتْ ضجةٌ عنيفة عند باب قاعة الاستقبال، ثم صرخةٌ حادة، وبعدها ساد الصمتُ.

قال تيدي هينفري: «مرحبًا!».

صوتٌ من البار: «مرحبًا!».

أخذ السيِّد هول الأمور ببطءٍ، ولكن بثباتٍ. «لقد حدث شيءٌ»، قال وهو يخرج من الحانة ويتجه إلى باب قاعة الاستقبال.

اقترب هو وتيدي من الباب معًا، بوجهين عاقدي العزم. تطلَّعت أعينهما. قال هول: «هناك شيءٌ غير طبيعي»، وأومأ هينفري موافقًا. وصلتهما نفحاتٌ من رائحة كيميائية كريهة، ثم سمِعا صوت محادثة مكتومًا، سريعًا جدًّا وخافتًا.

طرق هول الباب وسأل: «هل كلُّ شيء على ما يرام عندكم؟».

توقَّفتْ تمتمة المحادثة فجأة، سادتْ لحظة صمتٍ، ثم استؤنِفتْ المحادثة في همسٍ، ثم صدرتْ صرخة حادة «كلا! لا، لا!»، وبعدها صدر صوت حركة مفاجئة، وانقلاب كرسي، واشتباكٍ قصيرٍ. ساد الصمتُ مرة أخرى.

قال هينفري، بصوتٍ مبحوحٍ: «ماذا يحدث؟».

سأل السيِّد هول، بحدَّة، مرَّة ثانية: «هل كلُّ شيء على ما يُرام عندكم؟».

أجاب القسُّ، بصوتٍ غريبٍ مرتعشٍ: «كلُّ شيء على ما يُرام. أرجوكَ لا تقاطعنا».

قال السيِّد هنفري: «يا للغرابة!».

كرَّر السيد هول: «يا للغرابة!».

أضاف هينفري: «يقول لا تقاطعنا».

أجابه هول: «لقد سمعته».

قال هينفري: «صوت استنشاق».

استمرًّا في الاستماع. كانت المحادثة سريعة وخافتة. قال السيِّد بونتينج بصوتٍ مرتفعٍ: «لا أستطيع، أقول لك يا سيدي، لن أفعل».

سأل هينفري: «ماذا كان ذلك؟».

أجابه هول: «يقول إنَّه لن يفعل. لم يكن يتحدَّث إلينا، أليس كذلك؟».

قال السيد بونتينج، في الداخل: «هذا مُشينٌ!».

قال السيد هينفري: «»مُشين»، سمعتُ ذلك بوضوحٍ».

سأل هينفري: «من الذي يتحدَّث الآن؟».

أجاب هول: «أعتقد أنَّه السيِّد كاس. هل يمكنكَ سماع أي شيء؟».

ساد الصمت. ثم أصوات في الداخل غير واضحة وتثير الحيرة.

قال هول: «أسمع أصواتًا تشبه نزع مفرش المائدة وإلقاءه».

ظهرتْ السيِّدة هول وراء طاولة المشرب. أشار لها السيِّد هول بإيماءاتٍ كي تصمت وتأتي لتستمع. الصمت؛ مما أثار معارضتها كزوجة، قالت: «ما الذي تستمع إليه هناك، يا هول. أليس من الأفضل أن تفعل شيئًا في يومٍ مزدحمٍ كهذا؟».

حاول هول أن يشرح لها الأمر كلَّه بتعبيرات وجهه والتعبير بأداءٍ صامتٍ، لكنَّ السيِّدة هول كانت عنيدة، ورفعتْ صوتها. وعندئذٍ سار

هول وهينفري إلى طاولة المشرب مكتئبين، على أطراف أصابعهما، ليشرحا لها الأمر برمته.

رفضتْ في البداية تصديق أي شيء سمعاه على الإطلاق، أصرَّت على أن يلتزم هول الصمت، بينما يخبرها هينفري بقصته. كانت تميل إلى اعتبار الأمر هراءً؛ ربما كانوا ينقلون الأثاث فقط. قال هول: «سمعت كلمة «مُشين». سمعتها بالفعل».

قال هنفري: «وأنا سمعتها، يا سيِّدة هول».

بدأت السيِّدة هول تقول: «كأنَّما...».

قاطعها السيِّد تيدي: «صمتًا! أتصوَّر أنَّني سمعتُ صوت نافذة؟».

سألته السيِّدة هول: «أي نافذة؟».

أجاب هينفري: «نافذة قاعة الاستقبال».

وقف الجميع يستمعون باهتمامٍ. كان نظر السيِّدة هول موجَّهًا أمامها مباشرة؛ فرأت دون أن تدرك إطار باب الفندق اللامع، والطريق المشرق النابض بالحيوية، وواجهة متجر هوكستر في شمس يونيو. وفجأة فُتِح باب المتجر وظهر هوكستر، وعيناه تحدِّقان في توتُّرٍ ويلوِّح بذراعيه. صاح هوكستر: «أوقفوا اللص!»، وركض بشكلٍ غير مباشر عبر بوابة الفناء، واختفى.

وفي الوقت نفسه صدرتْ جلبة من قاعة الاستقبال، وصوت إغلاق نوافذ.

اندفع هول وهينفري، وتبعهم الجميع، على الفور إلى الشارع

بتهورٍ. رأوا شخصًا يلتفُّ بخفة حول الناصية متجهًا نحو الطريق، والسيِّد هوكستر يقفز في الهواء قفزة شديدة الغرابة، انتهت به منكفئًا على وجهه وكتفيه. وفي الشارع، كان الناس يقفون مندهشين، أو يركضون نحوهم.

كان السيِّد هوكستر في حالة ذهولٍ. توقَّف هينفري لاستكشاف الأمر، لكن هول واثنين من عمال البار هرعوا في وقتٍ واحدٍ إلى الناصية، يصرخون بكلماتٍ مفكَّكة، ورأوا السيِّد مارفل وهو يختفي عند ناصية جدار الكنيسة. ويبدو أنَّهم قفزوا إلى استنتاجٍ مستحيلٍ، مفاده أنَّ هذا هو الرجل الخفي وقد أصبح مرئيًّا فجأة، وانطلقوا على الفور على طول الشارع لمطاردته. ركض هول بالكاد عشر ياردات قبل أن يصرخ بصوتٍ عالٍ من الدهشة، ويطير في الهواء مُمسِكًا بأحد العمال، وسقطا معًا على الأرض. وتعرَّض لضربة كالتي تحدث لساق لاعب كرة القدم. أمَّا العامل الثاني، فقد تحرَّك دائريًّا وهو يحدِّق، متصوِّرًا أنَّ هول قد سقط من تلقاء نفسه؛ ثم استدار ليستأنف المطاردة، لكنَّه تعثَّر بضربة في كاحله كما حدث لهوكستر تمامًا. وعندما حاول العامل الأول الوقوف على قدميه، فوجئ بركلة جانبية قوية يمكن أن تُسقِط ثورًا.

وعندما سقط، كان المندفعون من اتجاه مزارع القرية يصلون عند الناصية. كان صاحب عربة لعبة إلقاء الكرات الخشبية هو أوَّل من ظهر، وهو رجلٌ قوي البنية ويرتدي قميصًا أزرق. اندهش لرؤية الشارع خاليًا، باستثناء ثلاثة رجالٍ منبطحين على الأرض على نحوٍ عبثيٍّ. ثم حدث

شيءٌ لخلفية قدمه؛ فسقط متدحرجًا إلى الجانب، حيث اصطدم بقدمي شقيقه وشريكه الذي انبطح أرضًا. تعرَّض الاثنان للركل، ولعنهما عددٌ كبيرٌ من الأشخاص الذين يركضون متسرعين.

عندما اندفع هول وهينفري والعاملان من الفندق، بقيت السيِّدة هول في البار نظرًا لما تعلمته من انضباطٍ خلال سنواتٍ من الخبرة. وفجأة فُتِح باب قاعة الاستقبال، وظهر السيِّد كاس. ودون أن يلقي حتى نظرة خاطفة عليها، اندفع في الحال أسفل السلم، ثم إلى الخارج في اتجاه الناصية صائحًا: «أمسكوه! لا تدعوه يُسقِط الرزمة التي في يده».

لم يكن يعرف أيَّ شيء عن وجود مارفل؛ الذي تسلّم الدفاتر والرزمة من الرجل الخفي في الفناء. بدا وجه السيِّد كاس غاضبًا وحازمًا، لكنَّ ملابسه كانت معيبة: شيئًا مثل تنورة بيضاء خفيفة، ربما قد تبدو طبيعية في اليونان فقط. صرخ: «أمسكوه! لقد أخذ سروالي! وكلَّ ملابس القس!».

«عليكَ أن تلحق به بسرعة!»، قال لهينفري وهو يمرُّ بالقرب من هوكستر المنبطح أرضًا. وعندما وصل إلى الناصية كي ينضم إلى المجموعة، فوجئ بركلة على قدميه طرحته أرضًا، ثم داس شخصٌ بشدة على إصبعه. صرخ وكافح ليقف على قدميه ثانية، لكنَّه تعرَّض للضرب، ووجد نفسه يسقط على أطرافه الأربعة مرَّة أخرى؛ وهنا أدرك أنَّه لم يكن يشارك في عملية اعتقال، وإنَّما في هزيمة. كان الجميع يركضون عائدين إلى القرية. نهض ثانية، وأصابته ضربة

قوية خلف أذنه، ترنَّح، وانطلق على الفور في اتجاه فندق «العربة والحصان»، وقفز فوق هوكستر الذي تجاهله الجميع ويجلس على الطريق الآن.

ولما وصل إلى منتصف سلَّم الفندق، سمع خلفه صرخة غضبٍ مفاجئة، ترتفع بحدَّة وسط ارتباكٍ من الصرخات، وصفعة قوية على وجه أحد الأشخاص. لقد تعرَّف على صوت الرجل الخفي، وكانت الصرخة لرجلٍ غضِب فجأة من ضربة مؤلمة.

وصل السيِّد كاس، بعد لحظة، إلى قاعة الاستقبال. دخل مسرعًا وهو يقول: «إنَه قادمٌ، يا بونتينج! يجب أن تنقذ نفسك».

كان السيد بونتينج يقف عند النافذة، يحاول أن يكسو نفسه ببساط الموقد وصحيفة «وست سووري جازيت». «من القادم؟»، سأل مذهولًا لدرجة أن ما يحاول أن يكسو نفسه به قد نجا بأعجوبة من التفكك.

أجاب كاس: «الرجل الخفي»، وأسرع إلى النافذة. «من الأفضل أن نخرج من هنا! إنه يقاتل بجنونٍ! بجنونٍ!».

وقفز في اللحظة التالية إلى الفناء.

«يا للسماء!»، قال السيد بونتينج متردِّدًا بين بديلين فظيعين. سمِع صوتَ اشتباكٍ مخيفًا في ممرِّ الفندق، واتخذ قراره. خرج من النافذة، وقام بتعديل ما يرتديه على عجلٍ، ثم هرب إلى القرية بأسرع ما يمكن أن تحمله ساقاه الصغيرتان السمينتان.

منذ اللحظة التي صرخ فيها الرجل الخفي بغضبٍ، وقام السيد بونتينج برحلته التي لا تُنسى إلى القرية، أصبح من المستحيل تقديم تسلسلٍ متتالٍ للوضع في إيبينج. ربما كانت نية الرجل الخفي الأصلية تكمن ببساطة في تغطية هروب مارفل بالملابس والدفاتر. وإنَّما يبدو أنَّ سوء حظِّه قد أفقده أعصابه تمامًا، التي لم تكن في حالة جيِّدة في أي وقتٍ من الأوقات؛ وبدأ على الفور في الضرب والإطاحة، لمجرد إشباع رغبته في إلحاق الأذى بالآخرين.

يمكنكَ أن تتخيَّل الشارع مملوءًا بأشخاصٍ تركض، وأبوابٍ تُغلَق، ومشاجراتٍ على أماكن الاختباء. ويمكنكَ أن تتخيَّل حجم الاضطراب الذي حدث فجأة لتوازن ألواح فليتشر القديمة غير المستقرة تمامًا على كرسيين، وما أسفر عنه من نتائج كارثية. ويمكنكَ أن تتخيَّل زوجين مذعورين محتَجَزين بشكلٍ مفزعٍ في أرجوحة. وبعد أن مرَّ كلُّ هذا التدافُع المضطرب، أصبح شارع إيبينج خاليًا بزينته وأعلامه، باستثناء الغضب غير المرئي الذي لا يزال مستعرًا، وتتناثر فوقه ثمار جوز الهند، ولافتات القماش التي سقطت، والمخزون المتناثر في كشك بيع الحلوى. وتنتشر في كلِّ مكانٍ أصوات إغلاق أقفال وترابيس الأبواب؛ أمَّا الشيء البشري الوحيد المرئي، فهو عينٌ ترمش أحيانًا، تحت حاجبٍ مرتفعٍ، عند زاوية زجاج نافذة.

أخذ الرجل الخفي يسلي نفسه لفترة عن طريق كسر جميع نوافذ فندق «العربة والحصان»، ثم دفع مصباح الشارع من خلال نافذة صالون السيدة جريبل. لا بُدَّ أنَّه هو من قطع سلك التلغراف إلى أديردين، خلف

كوخ هيجينز على طريق أديردين. وبعد ذلك، وكما سمحت صفاته الغريبة، لم يجد له أحدٌ أيَّ أثرٍ على الإطلاق؛ لم يعُد أحدٌ في إيبينج يسمع عنه، أو يراه، أو يستشعر وجوده. لقد اختفى تمامًا.

مرَّت ساعتين، قبل أن يغامر أيٌّ إنسانٍ بالخروج مرة أخرى إلى الخراب في شارع إيبينج.

الفصل الثالث عشر

السيِّد مارفل يناقش استقالته

بدأت إيبينج، مع اقتراب الغسق، ترى برهبة الحُطام المبعثر ليوم العطلة. وفي الوقت نفسه، كان رجلٌ قصيرٌ مكتنزٌ، يرتدي قبعة حريرية رثَّة، يسير متألِّمًا خلال الشفق، خلف أشجار الزان على الطريق إلى برامبلهيرست. كان يحمل ثلاثة دفاتر مربوطة معًا بشريطٍ مطاطيٍّ من تلك الشرائط التي تُستخدم في الزينة، وحزمة ملفوفة في مفرش مائدة أزرق. وكان وجهه الضارب إلى الحُمرة ينمُّ عن الذعر والتعب؛ وبدا متوتِّرًا وفي عجلة من أمره. كان يرافقه صوتٌ آخر غير صوته، ويجفل تكرارًا ومرارًا تحت لمسة أيدٍ غير مرئية.

قال الصوت: «إذا هربتَ مني ثانية، إذا حاولتَ مجرد أن تهرب ثانية...».

«يا إلهي!»، قال السيِّد مارفل، «هذا الكتف عبارة عن كتلة من الكدمات».

قال الصوت: «أقسم بشرفي، سأقتلك».

قال مارفل بصوتٍ أقرب إلى البكاء: «لم أحاول الهروب منك». أقسم إنَّني لم أفعل. لم أكن أعرف أنَّ الأحداث ستتغيَّر، هذا كلُّ شيء! كيف لي أن أعرف بهذا التغيُّر؟ لقد تعرضتُ للضرب...».

قاطعه الصوت: «وسوف تتعرَّض لمزيدٍ من الضرب إن لم تتوخَّ الحرص»؛ وفجأة صمت السيِّد مارفل. نفخ وجنتيه، وبدا اليأس في عينيه.

«يكفيني سوءًا أن ينشر هؤلاء الريفيون المضطربون سري الصغير، لا سيَّما ما يتعلق بدفاتري. ومن حُسن حظ بعضهم أنَّهم ركضوا! وها أنا هنا.. لم يكن أحدٌ يعرف أنَّني خفيٌّ! والآن، ماذا يجب أن أفعل؟».

سأله مارفل، بصوتٍ مبحوحٍ: «وأنا، ماذا يجب أن أفعل؟».

«سوف تنشر الصحف كلَّ شيء! سيبحث الجميع عني؛ وسيأخذ كلُّ شخصٍ حذره...»؛ انطلق الصوت يسبُّ ويلعن، ثم توقَّف.

زاد عُمق تعبيرات اليأس على وجه السيِّد مارفل، وتباطأت وتيرته.

قال الصوت: «هيَّا!».

اكتسى وجه السيد مارفل بلونٍ رماديٍّ، بين البقع الحمراء.

قال الصوت، بحِدَّة أخافته: إياكَ أن تُسقِط تلك الدفاتر، يا غبي».

واصل الصوت: «الحقيقة هي أنَّني يجب أن أستخدمك.... أنت أداة سيئة، لكنَّني مضطرٌّ».

قال مارفل: «أنا أداة بائسة».

قال الصوت: «هذا صحيحٌ».

قال مارفل: «أنا أسوأ أداة يمكنكَ استخدامها».

ثم أضاف بعد صمتٍ محبطٍ: «أنا لستُ قويًّا».

وكرَّر مرَّة أخرى: «أنا لستُ قويًّا».

«لست قويًّا؟».

«وقلبي ضعيفٌ. صحيحٌ أنَّني نجحت في تلك المهمة الصغيرة، وإنما بمساعدتك! كان يمكن أن أسقط».

«حسنًا؟».

«ليس لديَّ الجرأة والقوة لتنفيذ هذا النوع من الأشياء التي تريدها».

«سوف أشجعكَ».

«أتمنَّى ألَّا تفعل. لا أريد أن أفسد خططك، كما تعرف. لكنَّني قد أفعل ما تريد؛ لمجرد الخوف والبؤس».

قال الصوت بتركيزٍ هادئ: «من الأفضل ألا تفعل».

قال مارفل: «ليتني كنتُ ميتًا». ثم أضاف: «هذا ليس عدلًا. يجب أن تعترف... أعتقد أنَّ من حقي تمامًا...».

قاطعه الصوت: «هيًّا! تحرك».

ضبط السيد مارفل خطواته، ومضى الاثنان لفترة في صمتٍ مرَّة أخرى.

قال السيد مارفل: «يا للصعوبة الشديدة».

لم تؤثِّر هذه الطريقة على الإطلاق، ولذا حاول طريقة أخرى.

بدأ يقول بلهجة من ارتكب خطأً لا يُحتَمل: «ماذا أفعل؟».

قال الصوت، بقوة مذهلة مفاجئة: «أوه!، اخرس! سوف أحرص على أن تكون على ما يرام. عليكَ أن تفعل ما يُطلَب منكَ. وسوف تفعله بشكلٍ جيِّدٍ. أنتَ أحمق، لكنَّك ستفعل...».

«أقول لك يا سيدي، إنَّني لستُ الرجل المناسب. مع كل احترامي، لكن الأمر...».

قاطعه الرجل الخفي: «إذا لم تصمت، سوف ألوي معصمك مرة أخرى. أريد أن أفكر».

ظهر أمامهما الآن، من خلال الأشجار، إطاران من الضوء الأصفر، ولاح برج الكنيسة المربع في الأفق خلال الغسق. قال الصوت: سأضع يدي على كتفك ونحن نتحرك في جميع أنحاء القرية. سِر مباشرة ولا تحاول ارتكاب أيِّ حماقة؛ وإلَّا سوف يسوء الأمر بالنسبة لكَ».

«أعرف ذلك»، تنهَّد السيِّد مارفل مكررًا: «أعرف ذلك».

سار السيد مارفل، بهيئته حزينة المظهر وقبعته الحريرية التي عفا عليها الزمن، في شارع القرية الصغيرة ومعه أحماله، واختفى في الظلام المتجمع خلف أضواء النوافذ.

الفصل الرابع عشر

في بورت ستو

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، كان السيد مارفل، يجلس على مقعد طويل خارج فندق صغير في ضواحي بورت ستو، كان غير حليق وقذرًا من أثر السفر، وبجانبه الدفاتر ويداه في جيبيه كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، والعصبية، وعدم الارتياح؛ ويكرر نفخ خديه كل فترة. كانت الدفاتر بجانبه، لكنها الآن مربوطة بحبلٍ؛ فقد تخلَّى عن الحزمة في غابات الصنوبر وراء برامبلهيرست، وفقًا لتغييرٍ في خطط الرجل الخفي. جلس السيِّد مارفل على المقعد الطويل؛ وعلى الرغم من عدم انتباه أحد له، فقد ظلَّ متوترًا وعصبيًّا. كان يكرر وضع يديه في جيوبه المختلفة، بين الفينة والأخرى، وهو يتحسَّسها بعصبية غريبة.

وبعد نحو ساعة من جلوسه، خرج بحَّارٌ عجوزٌ من الفندق وبيده جريدة، وجلس بجانبه. قال البحَّار: «يوم لطيف».

نظر إليه السيِّد مارفل مرتعبًا، وأجاب: «نعم، لطيفٌ جدًّا».

قال البحار موافقًا: «الطقس الموسمي فقط في هذا الوقت من السنة».

قال السيد مارفل: «هذا صحيحٌ».

أخرج البحار مسواكًا، وانشغل به لبضع دقائق؛ بينما تجوَّلت عيناه بحريَّة في تفحص هيئة السيِّد مارفل المغبَّرة والدفاتر بجانبه. وعندما اقترب من السيِّد مارفل، سمع صوتًا مثل إسقاط عملات معدنية في جيبه، وقد أذهله تناقض مظهر السيد مارفل مع هذا البذخ، ثم عاد يفكر ثانية في موضوع استحوذ على خياله بفضولٍ.

سأل فجأة، وهو ينتهي من المسواك ببعض الضجيج: «كُتب؟».

نظر السيد مارفل إليهم، وقال: «أوه، نعم. إنَّها كتبٌ».

قال البحَّار: «تضم الكتب بعض الأشياء العجيبة».

قال السيد مارفل: «هذا صحيحٌ».

فقال البحَّار: «وهناك بعض الأشياء العجيبة خارجها».

قال السيد مارفل: «هذا صحيحٌ أيضًا». نظر إلى محاوره، ثم تجوَّلت عيناه في المكان حوله.

قال البحَّار: «هناك، مثلًا، أشياءٌ عجيبة في الصحف».

«نعم».

قال البحَّار: «في هذه الصحيفة».

قال السيد مارفل: «أها».

«هناك قصة مثلًا»، قال البحَّار مركِّزًا بصره بحزمٍ وتعمُّدٍ على السيِّد مارفل، «عن رجلٍ خفيٍّ».

لوى السيد مارفل فمه، وحكَّ خده، وشعر بتوهُّج أذنيه. «ماذا سيكتبون بعد ذلك؟»، سأل بصوتٍ خافتٍ، «في النمسا، أم في أمريكا؟».

أجابه البحَّار: «كلا، إنَّه هنا».

قال السيِّد مارفل متوتِّرًا: «يا إلهي!».

قال البحَّار ليخفِّف من توتُّر السيِّد مارفل: «عندما أقول هنا، لا أعني بالطبع في هذا الموقع، وإنَّما أعني في هذه الأنحاء».

قال السيد مارفل: «رجلٌ خفي! وماذا يفعل؟».

«كلَّ شيء»، قال البحَّار، مركزًا بعينيه على مارفل، ثم أضاف «كلَّ شيء مبارك».

قال مارفل: «أنا لم أرَ أيَّ صحيفة خلال هذه الأيام الأربعة».

فقال البحَّار: «لقد ظهر بداية في إيبينج».

قال السيد مارفل: «حقًّا!».

«بدأ من هناك. وعلى ما يبدو، لا يعرف أحدٌ من أين أتى. كتبت الصحيفة: «قصة غريبة من إيبينج». كما ورد بالصحيفة أنَّ الأدلة قوية وعجيبة».

«يا إلهي!»، قال السيد مارفل.

«لكنَّها قصة عجيبة. هناك شاهدان، قسٌّ وطبيبٌ، شاهداه بالفعل، أو لم يشاهداه. تقول الصحيفة إنَّه كان يقيم في فندق «العربة والحصان»، ولا يبدو أن أحدًا كان على علم بسوء حظه، كما تقول الجريدة، على

علم بسوء حظه إلى أن حدثت مشادة في الفندق، كما ورد في الصحيفة، فتمزَّقت الضمادات التي تغطي رأسه. وعندئذٍ لوحظ أنَّ رأسه غير مرئي. وعلى الفور جرت محاولات للإمساك به، لكنَّه خلع ملابسه، تقول الصحيفة، وبالتالي نجح في الفرار، ولكن ليس إلَّا بعد نزاعٍ يائسٍ أصاب خلاله الشرطي القدير السيد ج. أ. جافرز، كما ورد، بإصاباتٍ بالغة. إنَّها قصةٌ شديدة الوضوح، هه؟ بالأسماء وكل شيء».

«يا إلهي!»، قال السيد مارفل وهو ينظر حوله بعصبية، محاولًا عدّ المال في جيوبه باستخدام حاسة اللمس، وذهنه مشغولٌ تمامًا بفكرة غريبة وجديدة؛ «يبدو الأمر مذهلًا للغاية».

«أليس كذلك؟ أقول إنَّه أمرٌ عجيبٌ. لم أسمع من قبل أيَّ حديثٍ عن رجالٍ غير مرئيين؛ لم أسمع بالفعل، لكن المرء في الوقت الحاضر يسمع الكثير من الأشياء العجيبة... هذا...».

«هذا كلُّ ما فعله؟»، سأل مارفل، محاولًا أن يبدو طبيعيًّا.

قال البحَّار: «هذا يكفي، أليس كذلك؟».

سأل مارفل: «ألم يعُد ثانية؟ هرب فقط، وهذا كلُّ شيء، هه؟».

قال البحَّار: «كلُّ شيء! لماذا! أليس ذلك كافيًا؟.

قال مارفل: «تمامًا، بما فيه الكفاية».

قال البحَّار: «أعتقد أنَّ ذلك يكفي. نعم، أعتقد أنَّه يكفي».

سأل مارفل بقلقٍ: «لم يكن لديه أيُّ زملاء؛ لم تقُل الصحيفة إنَّ لديه زملاء، أليس كذلك؟».

«ألا يكفيك رجلٌ واحدٌ من هذا النوع؟»، سأله البحَّار ثم أضاف: «كلا، شكرًا للسماء، لم يكن لديه زملاء».

أومأ برأسه ببطءٍ؛ ثم قال: «لستُ مستريحًا لهذه القصة، لمجرد فكرة وجوده متجولًا في أنحاء البلد! إنَّه طليقٌ الآن؛ وتطرح بعض الأدلة أنَّه من المفترض قد أخذ -أو اتخذ، كما أعتقد أنهم يقصدون- طريقه إلى بورت ستو. نحن على حق في ذلك! لا شيء من عجائبكم الأمريكية، هذه المرة. فكر فقط في الأشياء التي قد يفعلها! ماذا ستفعل إذا هبط عليك، وأراد شيئًا منكَ؟ لنفترض أنه يريد السرقة، من يستطيع منعه؟ يمكنه التعدي على ممتلكات الغير، يمكنه السطو، يمكنه المشي عبر طوقٍ من رجال الشرطة بسهولة، مثلما أمشي أنا، أو مثلما تساعد أنت رجلًا أعمى! بل وضعه أسهل! فهؤلاء الذين لا يبصرون يتمتعون بحاسة سمعٍ حادة، كما قيل لي. وأينما كان يوجد نوع الخمر الذي يحبه...».

قال السيد مارفل: «لديه ميزاتٌ هائلة، بالتأكيد. و... حسنًا...».

قال البحَّار: أنتَ على حقٍ، لديه بالفعل ميزاتٌ هائلة».

طوال هذا الوقت، كان السيِّد مارفل يُلقي نظراتٍ خاطفة حوله عن عمدٍ، ويستمع إلى وقع أقدام خافتة، في محاولة اكتشاف أي حركاتٍ غير محسوسة. بدا على وشك اتخاذ قرارٍ مهمٍ. سعل خلف يده.

تلفَّت حوله ثانية، وأخذ ينصت، ثم انحنى نحو البحَّار وقال بصوتٍ منخفضٍ: «في حقيقة الأمر، أنَّني أعرف مجرد شيءٍ أو اثنين عن هذا الرجل الخفي؛ من مصادر خاصة».

قال البحَّار: «أووووه!، هذا مثيرٌ للاهتمام. أنتَ؟»."

قال السيِّد مارفل: «نعم، أنا».

«صحيحٌ!»، قال البحَّار، «وهل لي أن أسأل...».

قال السيد مارفل من خلف يده: «سوف تندهش. إنَّه أمرٌ عجيبٌ».

قال البحار: «بالطبع!».

«الحقيقة هي»، بدأ السيد مارفل بحرصٍ وصوتٍ خفيضٍ؛ وفجأة تغيَّرت تعبيراته تمامًا، وقال: «آآآه!» وهو ينهض متخشِّبًا في مقعده؛ كان وجهه ينمُّ عن معاناة جسدية شديدة. قال: أووووه!».

قال البحَّار قلِقًا: «ماذا حدث؟».

«إنَّه ألم الأسنان»، قال السيد مارفل ووضع يده على أذنه. أمسك بكتبه، وقال: «أعتقد أنَّني يجب أن أواصل رحلتي». أخذ يبتعد بطريقة غريبة على طول المقعد بعيدًا عن محاوره. احتجَّ البحَّار قائلًا: «لكنَّكَ كنتَ على وشك أن تخبرني عن هذا الرجل الخفي!». بدا أنَّ السيِّد مارفل يتشاور مع نفسه، ثم قال صوتٌ: «إنها خدعة»، وقال السيد مارفل: «إنَّها خدعة».

قال البحَّار: «لكن الصحيفة نشرتها».

قال مارفل: «كلُّ ذلك خدعة. أنا أعرف الشاب الذي بدأ الكذبة. لا يوجد رجلٌ خفيٌّ على الإطلاق؛ صدقني».

«ولكن ماذا عن الصحيفة؟ هل تقصد أن تقول...؟».

قاطعه مارفل: «ولا أي كلمة صحيحة، مما ورد في الصحيفة، ولا كلمة على الإطلاق».

حدَّق البحار والصحيفة في يده. نظر السيد مارفل حوله مرتعشًا. قال البحَّار، وهو ينهض ويتحدَّث ببطءٍ، «انتظر قليلًا، هل تقصد أن تقول....؟».

أجاب السيد مارفل: «نعم».

«لماذا تركتني استرسل إذن، وأخبرك بكلِّ هذه الأشياء الغريبة؟ ماذا تعني بأن تترك رجلًا يجعل من نفسه أحمق هكذا؟ هه؟».

نفخ السيد مارفل وجنتيه. غضب البحَّار فجأة، وطبَّق يديه، ثم قال: «لقد بقيت أتحدث هنا لعشر دقائق. وأنت، أنت أيها الضئيل صاحب الكِرش والوجه الجلدي، لا تتمتع حتى بالأخلاق العامة...».

قاطعه السيِّد مارفل: «لا تقذفني بألفاظٍ نابية».

«ألفاظٍ نابية! أنا شخصٌ مرحٌ...».

قال صوت: «هيَّا»، وفجأة استدار السيد مارفل، وبدأ يسير بطريقة عرجاء غريبة. قال البحَّار: «من الأفضل أن تمضي قُدمًا». سأله السيد مارفل: «من يمضي قُدمًا؟». كان يتراجع بشكلٍ غير مباشر وهو يمشي بطريقة مسرعة غريبة، مع اهتزازاتٍ عنيفة بين الفينة والأخرى إلى الأمام. وبدأ يتمتم، على طول الطريق، محدثًا نفسه، ومعبرًا عن احتجاجاتٍ، واتهاماتٍ متبادلة.

قال البحَّار: «شيطان سخيف!»، وقد انفرجت ساقاه ووضع مرفقيه على وركيه، وهو يشاهد حركة الرجل. وأضاف: «سوف أريكَ، أيُّها الأحمق السخيف. تريد خداعي! كل شيء هنا في الصحيفة!».

ردَّ السيِّد مارفل بشكلٍ غير متماسك، وأخذ يبتعد إلى منعطف على الطريق؛ لكن البحَّار ظلَّ واقفًا بتحفزٍ في وسط الطريق، إلى أن اقتربت عربة جزار فابتعد. استدار في اتجاه بورت ستو، قائلًا لنفسه بهدوءٍ: «بلد يمتلئ بأغبياء غير عاديين. يريد أن يخدعني، كانت لعبته سخيفة؛ فكل شيء منشورٌ في الصحيفة!».

وقد حدث شيءٌ آخر عجيبٌ، سرعان ما سيسمعها، وقعتْ بالقرب منه؛ وكانت حكاية عن رؤية «قبضة مليئة بالمال» تتحرك من تلقاء نفسها على طول الجدار عند ناصية حارة سان مايكل. شاهد زميل بحَّار هذا المشهد العجيب في ذلك الصباح تحديدًا، وعندما انتزع المال، أطاحت به ضربة على الفور. وعندما تمكَّن من الوقوف على قدميه، كانت الأموال الطائرة قد تلاشت. أعلن بحارنا أنَّه في مزاجٍ يُصدِّق أيَّ شيء؛ لكن ما حدث كان شديد الغرابة. وبعد ذلك، بدأ يقلب الأمور في ذهنه.

قصة المال الطائر كانت صحيحة، وكل ما قيل في الحي –سواء من شركة «لندن أند كنتري» المصرفية، أو من المحلات التجارية والفنادق– حيث الأبواب مفتوحة تمامًا في هذا الجو المشمس، يؤكد أنَّ المال قد اتخذ طريقه بهدوءٍ وبراعة في حفناتٍ أو رزمٍ لعملات معدنية، تطفو بهدوءٍ على طول الجدران والأماكن المظللة، وتهرب بسرعة من أعين الرجال المقتربين. وعلى الرغم من عدم تتبُّع أحد لمسار النقود، فقد

كانت رحلتها الغامضة تنتهي دائمًا في جيب ذلك الرجل المتوتر الذي يرتدي قبعة حريرية بالية، وهو جالسٌ خارج فندق صغير عند ضواحي بورت ستو. وبعد عشرة أيام، وفي الواقع عندما أصبحت قصة قبضة المال في بوردوك قديمة بالفعل، قام البحَّار بتجميع هذه الحقائق، وبدأ يفهم مدى قربه من الرجل الخفي العجيب.

الفصل الخامس عشر

الرجل الذي يهرب

في بداية المساء، كان الدكتور كيمب يجلس في غرفة مكتبه في بلفيدير؛ فوق التلِّ المطل على بوردوك. كانت غرفة صغيرة لطيفة، تضم ثلاث نوافذ –شمالية وغربية وجنوبية– والعديد من الأرفف المملوءة بالكتب والمطبوعات العلمية، وطاولة عريضة للكتابة. ويوجد أسفل النافذة الشمالية: مجهرٌ وشرائحه الزجاجية، وأدواتٌ دقيقة، وبعض الآنية للاستزراع، وزجاجاتٌ متناثرة من الكواشف الكيميائية. كان مصباح الدكتور كيمب الشمسي مضاءً، على الرغم من أنَّ السماء لا تزال مشرقة مع ضوء غروب الشمس؛ كما كانت الستائر مفتوحة، فهي ليست جريمة أن يحدِّق الغرباء من الخارج، بحيث يُطلب من السكان إغلاق الستائر. كان الدكتور كيمب شابًّا نحيفًا وطويل القامة، بشعرٍ كتانيٍّ وشاربٍ أبيض تقريبًا. كان يأمل أن يؤدي العمل الذي يقوم به إلى حصوله على زمالة الجمعية الملكية. كانت هذه المسألة تشغله كثيرًا.

أبعد بصره عن عمله الآن، وأخذت عيناه تتأمَّلان غروب الشمس اللامع، خلف التلِّ المقابل له. ربما جلس لدقيقة والقلم في فمه، وهو مُعجبٌ بثراء اللون الذهبي فوق القمة. ثم انجذب انتباهه إلى هيئة رجلٍ ضئيلٍ، هيئة سوداء بلون الحبر، يركض عند منحدر التلِّ في اتجاهه. كان رجلًا ضئيلًا قصير القامة، يرتدي قبعة عالية، ويركض بسرعة كبيرة إلى حدِّ أنَّ ساقيه تلمعان.

قال الدكتور كيمب: «إنَّه واحدٌ آخر من هؤلاء الحمقى؛ مثل ذلك الذي صادفني هذا الصباح عند إحدى النواصي صائحًا: «الرجل الخفي قادمٌ، يا سيدي!». لا أعرف ماذا أصاب الناس. قد يظنُّ المرء أنَّنا عدنا إلى القرن الثالث عشر».

نهض، وتوجَّه إلى النافذة. حدق بسفح التلِّ الغامض، والشخص الضئيل المعتم الذي يركض. قال الدكتور كيمب: «يبدو أنَّه في عجلة من أمره، لكنَّه لا يتقدَّم كثيرًا. إذا كانت جيوبه مليئة بالرصاص، فلن يستطيع الركض أسرع من ذلك».

قال الدكتور كيمب: «يبذل هذا السيِّد جهدًا كبيرًا».

وفي اللحظة التالية، كانت الفيلات العالية، التي تسلَّقت من بوردوك إلى أعلى التل، قد أخفت الشخص الذي يركض. ظهر الرجل مرَّة أخرى للحظة، ثم مرَّة أخرى، ومرَّة أخرى. ظهر ثلاث مراتٍ بين المنازل الثلاثة التالية المنفصلة، ثم أخفته إحدى الشرفات.

قال الدكتور كيمب: «حمقى»، واستدار ليعود ثانية إلى طاولة الكتابة.

لكن أولئك الذين رأوا الهارب عن قُربٍ، وأدركوا الرعب الشديد على وجهه المتعرق، وكونهم هم أنفسهم يسيرون في الطريق المفتوح، لم يشعروا بما شعر به الطبيب من ازدراءٍ. عندما كان الرجل يركض، كان يصدر منه صوتُ طقطقة كمحفظة مليئة جيدًا تتحرَّك جيئة وذهابًا. لم ينظر إلى اليمين ولا إلى اليسار، لكنَّ عينيه التي اتسعت كانت تحدق مباشرة إلى أسفل التل، حيث كانت المصابيح مضاءة، والشارع مكتظًّا بالناس. التوى فمه سيِّئ الشكل، وامتدَّت رغوة لامعة على شفتيه، وصدرت أنفاسه على نحوٍ أجش وصاخبٍ. توقَّف كلُّ من مرَّ به، وبدأوا يحدقون إلى الطريق، ويتساءلون بعدم ارتياحٍ عن سبب تسرُّعه.

والآن، بعيدًا في أعلى التل، نبح كلبٌ يلعب في الطريق وركض أسفل بوابة. وبينما كان الناس لا يزالون يتساءلون، حدث شيءٌ ما – ريحٌ، صوت خطوات أقدام – أسرع صوت مثل التنفس اللاهث.

صرخ الناس، وقفزوا من فوق الرصيف، مرَّ الصوت بينهم كالطلقات، وشعروا بالغريزة أنه يتجه أسفل التل. كانوا يصرخون في الشارع قبل أن يصل مارفل إلى منتصف الطريق هناك. أخذوا يندفعون إلى المنازل ويغلقون الأبواب خلفهم، ويسردون هذه الأخبار. سمع ذلك، وقام بمحاولة أخيرة يائسة. جاء الخوف مسرعًا وسبقه، واستولى على المدينة في لحظة.

«الرجل الخفي قادمٌ! الرجل الخفي!».

الفصل السادس عشر

في فندق «جولي كريكيترز»

يقع فندق «جولي كريكيترز» أسفل التل مباشرة، حيث تبدأ خطوط الترام. انحنى الساقي، واضعًا ذراعيه الحمراوين السمينتين على المنضدة، وهو يتحدَّث عن الخيول مع سائق عربة أحصنة مريض بفقر الدم، بينما كان رجلٌ أسود اللحية يرتدي ملابس رمادية يقطع البسكويت والجبن، ويحتسي مشروب بيرتون، ويتحدث باللهجة الأمريكية مع شرطي خارج وقت الخدمة.

«ما هذا الصراخ!»، قال سائق عربة الخيول المصاب بفقر الدم، وخرج في الظلِّ محاولًا رؤية أعلى التل، خلال الستائر الصفراء القذرة في نافذة الفندق المنخفضة. ركض شخصٌ في الخارج. قال الساقي: «ربما هناك حريقٌ».

اقتربت خطواتٌ تركض بتثاقلٍ، ثم انفتح الباب بعنفٍ. اندفع مارفل صائحًا –وهو أشعث، ودون قبعته، وعنق معطفه ممزقٌ ومفتوحٌ– اندفع إلى الداخل، واستدار في توتُّرٍ، وحاول إغلاق الباب؛ كان الباب نصف مفتوح بواسطة سلسلة.

«إنَّه قادمٌ!»، صرخ وصوته يمتلئ رعبًا. «إنَّه قادمٌ. الرجل الخفي! قادمٌ خلفي! يا إلهي! النجدة! النجدة! النجدة!».

قال الشرطي: «أغلقوا الأبواب. من الذي سيأتي؟ ماذا حدث؟». ذهب إلى الباب وأوصده. وأغلق الأمريكي الباب الآخر.

«دعوني أختبئ في الداخل»، قال مارفل وهو في حالة من الذهول والصياح، لكنَّه لا يزال ممسكًا بالدفاتر. «دعوني أختبئ في الداخل. احبسوني في أي مكان بالداخل. إنَّه يطاردني. لقد هربت منه، لكنَّه قال إنَّه سيقتلني، وسوف يفعل».

قال الرجل ذو اللحية السوداء: «أنتَ في أمانٍ. الباب مغلق. ما كل هذا؟».

«دعوني أختبئ في الداخل»، قال مارفل؛ ثم صرخ بصوتٍ عالٍ عندما اهتزَّ فجأة قفل الباب من جراء ضربة قوية، أعقبها طرقاتٌ سريعة وصياحٌ في الخارج. صاح الشرطي: «مَن بالخارج؟». بدأ السيد مارفل يندفع بشكلٍ محمومٍ نحو الألواح التي تشبه الأبواب. «سيقتلني، لديه سكينٌ أو شيءٌ مشابه. أرجوكم ساعدوني...!».

قال الساقي: «تعالَ هنا»، ورفع طاولة المشرب.

هرع السيد مارفل خلف البار، بينما كان النداء يتكرر في الخارج. صرخ مارفل: «لا تفتح الباب. أرجوكَ لا تفتح الباب. أين أختبئ؟».

سأل الرجل ذو اللحية السوداء، وهو يضع يده خلف ظهره: «هذا هو الرجل الخفي، إذن؟ أعتقد أنَّه حان الوقت لرؤيته».

تحطَّمت فجأة نافذة الفندق، وارتفعت أصوات الصراخ والركض جيئة وذهابًا في الشارع. وقف الشرطي فوق مقعدٍ طويلٍ يحدِّق إلى الخارج، محاولًا رؤية مَن يطرق الباب. نزل وهو يرفع حاجبيه قائلًا: «الأمر كذلك إذن». وقف الساقي أمام باب قاعة الاستقبال في البار، التي كان السيد مارفل يختبئ داخلها. نظر إلى النافذة المحطمة، ثم استدار إلى الرجلين الآخرين.

وفجأة ساد الهدوء. قال الشرطي وهو يذهب إلى الباب متردِّدًا: «أتمنَّى لو كانت معي هراوتي. سوف يدخل بمجرد أن نفتح. لن نستطيع إيقافه».

قال سائق عربة الخيول بقلقٍ: «لا تكن في عجلة من أمرك بشأن هذا الباب».

وقال الرجل ذو اللحية السوداء: «افتح المزلاج. وإذا دخل....»، وأظهر مسدسًا في يده.

فقال الشرطي: «هذا لن يجدي، ستُعتبر جريمة قتل».

أجاب الرجل ذو اللحية السوداء: «أنا أعرف في أي بلد أنا. سأطلق النار على ساقيه. افتح المزلاج».

قال الساقي، وهو ينظر خلسة من وراء ستارة النافذة: «ليس وهذا الشيء اللامع ورائي».

«حسنًا»، قال الرجل ذو اللحية السوداء، وانحنى إلى الأمام، ومسدسه في وضع الاستعداد، وفتح المزلاج بنفسه. تحرك على الفور الساقي، وسائق عربة الخيول، والشرطي.

«تعالَ»، قال الرجل الملتحي بصوتٍ خفيضٍ، وهو يقف في الخلف ويواجه الأبواب غير الموصدة ومسدسه خلفه. لم يدخل أحدٌ، وظلَّ الباب مغلقًا. وبعد خمس دقائق، عندما دفع سائق عربة خيول ثانٍ رأسه بحذرٍ، كانوا لا يزالون ينتظرون؛ وأطلَّ وجهٌ قلِق من قاعة الاستقبال ليزودهم بمعلومات. سأل مارفل: «هل جميع أبواب الفندق مغلقة؟ فهو يحوم حول المكان، إنَّه بارعٌ كالشيطان».

«يا إلهي!»، قال الساقي قوي البنية، «هناك بابٌ خلفيٌّ! راقبوا جميع الأبواب! أقول...!»؛ ثم طاف في المكان ببصره بلا حولٍ ولا قوة. أُغلق باب قاعة الاستقبال المُلحَقة بالبار، وسمعوا صوتَ دوران المفتاح. هناك باب الفناء، وباب خاص. باب الفناء...».

اندفع خارج البار.

ظهر ثانية بعد دقيقة، وفي يده سكينٌ لقطع اللحم. «كان باب الفناء مفتوحًا!»، قال، وتدلَّت شفته السفلية السمينة. قال سائق عربة الخيول الأول: «قد يكون في الفندق الآن!».

قال الساقي: «إنَّه ليس في المطبخ. هناك امرأتان، وقد طعنتُ كلَّ شبرٍ في المطبخ بسكين تقطيع اللحم البقري. وتعتقد المرأتان أنه لم يدخل. لم تلاحظا...».

سأل السائق الأول: «هل قمت بربطهما؟».

قال الساقي: «نفدت العباءات».

قام الرجل ذو اللحية بتغيير وضع مسدسه. وما إن فعل ذلك، حتى أُغلِق رف البار وأصدر الترباس صريرًا، ثم انفتح باب غرفة الاستقبال على مصراعيه، مع اهتزازٍ هائلٍ. سمِعوا مارفل يئنُّ، مثل أنين أرنب تم اصطياده. وعلى الفور كانوا يتسلَّقون فوق طاولة المشرب لإنقاذه. تهشَّم مسدس الرجل الملتحي، وتصدَّعت المرآة في الجزء الخلفي من قاعة الاستقبال وسقطت متناثرة.

دخل الساقي الغرفة ورأى مارفل مكوَّمًا بشكلٍ غريبٍ، ويكافح ضد الباب الذي يؤدي إلى الفناء والمطبخ. انفتح الباب، بينما الساقي يقف مترددًا وتمَّ جرُّ مارفل إلى المطبخ. صدرتْ صرخة، كما قعقعت أواني الطهي. كان رأس مارفل منخفضًا، ويجري سحبه ثانية بعنادٍ، وإجباره على التحرك نحو باب المطبخ، ثم أُغلِق الترباس.

أما الشرطي، الذي كان يحاول تخطي الساقي، فقد اندفع إلى الداخل وخلفه أحد السائقين. تمكَّن الشرطي من إمساك معصم اليد الخفية التي طوَّقت مارفل، لكن ضربة أصابته في وجهه فتراجع مترنِّحًا. انفتح الباب، وبذل مارفل جهدًا محمومًا للإفلات. ثم احتكَّ السائق بشيءٍ، قائلًا: «لقد أمسكتُ به. كانت أيدي الساقي تمسك بشيء غير مرئي، وهو يقول: «ها هو!».

سقط السيِّد مارفل على الأرض، بعد أن أُطلِق سراحه فجأة، وحاول الزحف خلف سيقان الرجال المتصارعين. دارت المعركة حول حافة الباب. وسُمِع صوت الرجل الخفي للمرة الأولى، وهو يصرخ بحدَّة، بينما كان الشرطي يدوس على قدمه. صرخ بقوة، ثم بدأ يضرب بقبضتيه

في جميع الاتجاهات. وفجأة تعرَّض السائق لضربة مضاعفة، وركلة في بطنه. أُغلِق الباب المؤدي إلى قاعة الاستقبال من المطبخ، وغطَّى تراجع السيد مارفل. وجد الرجال في المطبخ أنفسهم ممسكين بالهواء ويقاتلونه.

صرخ الرجل ذو اللحية: «أين ذهب؟ هل خرج؟».

قال الشرطي وهو يخطو إلى الفناء ويتوقف: «في هذا الاتجاه».

طارت قطعة من الحجر بالقرب من رأسه، وحطَّمت الأواني الفخارية على طاولة المطبخ.

«سأريه»، صاح الرجل ذو اللحية السوداء. وفجأة ظهرت فوهة مسدسٍ من فوق كتف الشرطي، وانطلقت خمس رصاصات متتالية في اتجاه الشفق الذي جاء منه الحجر. حرَّك الرجل ذو اللحية يده في منحنى أفقي، عندما كان يطلق النار، بحيث تغطي طلقاته الفناء الضيق.

وأعقب ذلك صمتٌ. قال الرجل ذو اللحية السوداء: «خمس خراطيش، هذا أفضل ما يمكن. فليحضر أحدكم فانوسًا، كي نذهب ونحاول التحسُّس لإيجاد جثته».

الفصل السابع عشر

زائر الدكتور كيمب

واصل الدكتور كيمب الكتابة في غرفة مكتبه إلى أن سمِع الطلقات: بوم، بوم، بوم، جاءت واحدة تِلْوَ الأخرى.

«أهلًا!»، قال الدكتور كيمب وهو يضع قلمه في فمه مرة أخرى ويستمع، «من ذا الذي يطلق النار في بوردوك؟ ماذا يفعل الحمقى الآن؟».

ذهب إلى النافذة الجنوبية وفتحها، وانحنى محدقًا إلى أسفل على مجموعة النوافذ، ومصابيح الغاز والمحلات التجارية، وتتخلَّلها فجوات السقف والفناء التي تشكِّل المدينة في الليل. قال: «يبدو كأنَّه حشدٌ أسفل التل، إنَّه فندق «الكريكيترز»»، وظلَّ لفترة يراقب. ثم تجوَّلت عيناه فوق المدينة إلى أماكن بعيدة، حيث تتألَّق أضواء السفن، ويلمع الرصيف – جناح مضاء قليلًا، وجوانبه مثل جوهرة من الضوء الأصفر. كان القمر في الربع الأول مُعلَّقًا فوق التل غربًا، والنجوم صافية ومشرقة وشبه استوائية.

ارتحل عقل الدكتور كيمب إلى تكهنات بعيدة عن ظروف المستقبل الاجتماعية، إلى أن تاه في البُعد الزمني؛ لكنَّه أيقظ نفسه بعد خمس دقائق متنهدًا، وأغلق النافذة، ثم عاد إلى مكتبه.

لا بُدَّ أنَّ ساعة تقريبًا مرَّت قبل أن يدق جرس الباب الأمامي. كان يكتب ببطءٍ، مع فترات من التفكير والتأمُّل، منذ أن سمِع الطلقات النارية. جلس يستمع. سمع الخادمة تجيب على الباب، وانتظر وقع قدميها على السُلَّم، لكنَّها لم تأتِ. تساءل الدكتور كيمب: «تُرى ماذا كان ذلك».

حاول استئناف عمله، لكنَّه فشل. نهض، ونزل من غرفة مكتبه إلى الطابق السفلي، ودقَّ الجرس وهو مستندٌ إلى الدرابزين، مستدعيًا خادمة المنزل عندما ظهرت في القاعة أدناه. سألها: «هل كانت هذه رسالة؟».

أجابت: «كلا، يا سيدي، يبدو أنَّ شخصًا دقَّ الباب ثم انصرف».

قال لنفسه: «أنا قلقٌ هذه الليلة». عاد إلى غرفة مكتبه، والتفتَ إلى عمله هذه المرَّة بحزمٍ. وتمكَّن خلال فترة وجيزة من مواصلة العمل بجدية. كانت الأصوات الوحيدة في الغرفة هي دقات ساعة الحائط وصيحات قلمه الخافتة على الورق، مسرعة وسط دائرة الضوء المنبعثة من مصباحه على طاولته. كانت الساعة الثانية، قبل أن يُنهي الدكتور كيمب عمله هذه الليلة. نهض، وتثاءب، ونزل السلَّم ذاهبًا إلى غرفة نومه. وبعد أن خلع معطفه وسترته، شعر بالعطش. أخذ شمعة وتوجَّه إلى غرفة الطعام بحثًا عن مشروب الويسكي.

تعلَّم الدكتور كيمب من أبحاثه العلمية دقة الملاحظة. لذا، لاحظ خلال مروره بالصالة وجود بقعة داكنة على مشمَّع الأرضية بالقرب من السجادة أسفل السلَّم. صعد إلى الطابق العلوي، ثم خطر له فجأة أن يسأل نفسه عن تلك البقعة. يبدو أنَّ بعض عناصر اللا وعي كانت تعمل. على أي حالٍ، استدار مع حِمله وعاد إلى الصالة، وضع زجاجة الويسكي، ثم انحنى ليلمس البقعة. لم تكن مفاجأته كبيرة عندما اكتشف أنَّ البقعة تتسم بلون الدم الجاف ولزُوجته.

حمل الزجاجة ثانية وعاد إلى الطابق العلوي، وهو ينظر حوله في محاولة لمعرفة سبب وجود بقعة الدم. رأى شيئًا جعله يتوقَّف مندهشًا؛ كان مقبض باب غرفته ملطَّخًا بالدماء.

نظر إلى يديه؛ كانتا نظيفتين تمامًا. ثم تذكَّر أنَّ باب غرفته كان مفتوحًا عندما نزل من غرفة مكتبه، وبالتالي لم يلمس المقبض على الإطلاق. دخل مباشرة إلى غرفته، ووجهه هادئٌ -وإنما، ربما أكثر حزمًا من المعتاد- تجوَّل ببصره بفضولٍ، ثم سقطت عينه على السرير. وجد على اللحاف فوضى من الدم، والملاءة ممزَّقة. لم يلحظ ذلك من قبل، لأنَّه كان قد توجَّه مباشرة إلى طاولة خلع الملابس. وعلى الجانب الآخر، كانت أغطية السرير هابطة؛ كما لو أنَّ شخصًا قد جلس عليها مؤخرًا.

تصوَّر أنه سمِع صوتًا منخفضًا يهمس: «يا إلهي! كيمب!». لكنَّ الدكتور كيمب لم يكن يعتقد في مسألة سماع أصوات.

وقف يحدِّق بالملاءات المتدلية. هل هذا صوتٌ بالفعل؟ تطلَّع حوله ثانية، لكنَّه لم يلحظ أيَّ شيءٍ أبعد من السرير غير المُرتَّب والملطَّخ بالدماء. ثم سمِع بوضوحٍ حركة في الغرفة، بالقرب من حامل حوض غسل اليدين. يحتفظ البشر جميعًا، مهما كانت درجة تعليمهم العالي، ببعض التصوُّرات الخرافية؛ فتملَّكه ذلك الشعور الذي يُطلِق عليه «شعورًا غريبًا». أغلق باب الغرفة، وتقدَّم إلى طاولة الملابس، ووضع ما كان يحمله. وفجأة رأى ضمادة كتانية ملفوفة وملطَّخة بالدماء مُعلَّقة في الجو، تقف بينه وبين حوض غسل اليدين.

حملق مذهولًا. كانت ضمادة فارغة؛ ضمادة مربوطة بشكلٍ صحيحٍ، لكنَّها خالية تمامًا. كان على وشك أن يتقدَّم نحوها لفهم الأمر، لكن لمسة أوقفته، وبدأ صوتٌ يتحدَّث بالقرب منه.

«كيمب!»، قال الصوت.

قال كيمب، فاغرًا فاه: «هه؟».

قال الصوت: «احتفظ بهدوء أعصابك. أنا رجلٌ خفيٌّ».

لم يُجِب كيمب للحظات، بل ظلَّ يحدِّق ببساطة إلى الضمادة؛ ثم قال: «رجلٌ خفيٌّ».

كرَّر الصوت: «أنا رجلٌ خفيٌّ».

سَرت في ذهن كيمب القصَّة التي كانت مثارًا للسخرية في ذلك الصباح. ولا يبدو أنَّه كان خائفًا أو متفاجئًا حينذاك، وإنَّما أدرك الأمر لاحقًا.

قال: «تصوَّرتُ أنَّ الموضوع برمَّته مجرد كذبة». انشغل ذهنه أساسًا بالأطروحات التي تكرَّرت في الصباح. سأل: «هل تضع ضمادة؟».

«نعم»، أجاب الرجل الخفي.

«أوه!»، قال كيمب ثم نهض. واصل: «لكنَّني أقول إنَّ هذا هراءٌ، إنَّها خدعة». خطا فجأة، فالتقت يداه، الممتدَّة نحو الضمادة بأصابع خفية.

تراجع عند اللمس، وتغيَّر لونه.

«حافظ على ثباتِكَ يا كيمب، أرجوكَ! أحتاج إلى مساعدتِكَ بشدَّة. توقَّف!».

أمسكتْ اليد بذراعه؛ فضربها.

«كيمب!»، صاح الصوت، «كيمب! حافظ على ثباتِكَ!»، ثم أحكمتْ اليد قبضتها.

استحوذتْ على كيمب رغبة محمومة لتحرير نفسه. أمسكتْ يدُ الذراع المضمد بكتفه، وفجأة تعثَّر وسقط إلى الوراء فوق السرير. فتح فمه ليصرخ، لكنَّ طرف الملاءة كان محشورًا بين أسنانه. أسقطه الرجل الخفي بقسوة، لكن ذراعي كيمب كانت حرة، فأخذ يضربه وحاول ركله بوحشية.

قال الرجل الخفي، رغم الألم في ضلوعه، وهو ممسكٌ بكيمب: «ألا تستمع إلى صوت العقل؟ يا إلهي! أنت على وشك أن تصيبني بالجنون!».

ثم صاح الرجل الخفي في أذن كيمب: «ارقد في هدوءٍ، أيُّها الأحمق!».

قاوم كيمب للحظة أخرى، ثم رقد في هدوءٍ.

قال الرجل الخفي، وهو يبعد يده عن فم كيمب: «إذا صرختَ، سأحطِّم وجهَكَ».

ثم واصل: «أنا رجلٌ خفيٌّ. هذه ليست حماقة ولا سحرًا. أنا حقًّا رجلٌ خفيٌّ، وأريد منكَ مساعدة. لا أريد أن أؤذيك. لكنكَ إذا تصرَّفتَ كريفيٍّ متوتِّر، فسوف أؤذيك. ألا تتذكرني يا كيمب؟ أنا جريفين، زميلُكَ السابق في جامعة يونيفرسيتي كوليدج؟».

قال كيمب: «دعني أنهض. سأظلُّ في مكاني. ودعني أجلس في هدوءٍ لدقيقة واحدة».

جلس وتحسَّس رقبته.

«أنا جريفين، من يونيفيرسيتي كوليدج، وقد نجحتُ في تحويل نفسي إلى شخصٍ خفيٍّ. أنا مجرد رجلٍ عاديٍّ، رجل عرفته أنت من قبل وأصبح خفيًّا».

«جريفين؟»، سأله كيمب.

أجاب الصوت: «جريفين. طالب أصغر منكَ، شبه مُصابٍ بداء البَرَص، طولي ستة أقدامٍ، وعريض الكتفين، وجهي يجمع بين اللونين الوردي والأبيض، وأعين حمراء، وفزتُ بميدالية الكيمياء».

قال كيمب: «أنا مرتبِك. رأسي يدور. ما علاقة هذا بجريفين؟».

«أنا جريفين».

أخذ كيمب يفكر، ثم قال: «هذا شيءٌ فظيعٌ. أي حيلة شيطانية يمكن أن تجعل الرجل خفيًّا؟».

«لا علاقة للشيطان بالأمر. إنَّها عملية عاقلة ومفهومة بما يكفي...».

قاطعه كيمب: «إنَّه أمرٌ فظيعٌ! كيف يمكن، بحق السماء...؟».

«إنَّه أمرٌ فظيعٌ بالفعل. لكنَّني مجروحٌ ومتألمٌ ومتعبٌ... يا إلهي! كيمب، أنتَ رجلٌ. خذ الأمر بهدوءٍ. أعطني بعض الطعام والشراب، ودعني أجلس هنا».

حدَّق كيمب بالضمادة خلال تحرُّكها في الغرفة، ثم رأى كرسيًّا يتحرَّك على الأرض مسحوبًا، ويستقر بالقرب من السرير. أحدث الكرسي صريرًا، وهبطتْ مقعدته نحو ربع بوصة. فركَ كيمب عينيه وتحسَّس رقبته ثانية، ثم قال وهو يضحك بغباءٍ: «هذا يفوق أفعال الأشباح».

«هذا أفضل. شكرًا للسماء، بدأتَ تتعقل!».

قال كيمب وهو يفرك عينيه: أو ربَّما غباء».

«أعطني بعض الويسكي. أنا على وشك الموت».

«لا أشعر بذلك. أين أنتَ؟ إذا قمتُ، هل سأصطدم بكَ؟ هناك! حسنًا. ويسكي؟ هنا. أين أقدِّمه لكَ؟».

أصدر الكرسي صريرًا، وشعر كيمب بالكأس يؤخذ منه. تركه بعد جهدٍ، فقد كانت غريزته تعارض الأمر برمَّته. استقرَّ الكأس على ارتفاع

عشرين بوصة فوق الحافة الأمامية لمقعد الكرسي. ظلَّ يحدق إليه في حيرة لا نهائية: «هذا هو، يجب أن يكون، التنويم المغناطيسي. لقد قلت إنَّكَ خفيٌّ».

قال الصوت: «هراء».

«هذا جنونٌ».

«استمع إليَّ».

قال كيمب: «لقد أوضحتُ بشكلٍ قاطعٍ هذا الصباح، أنَّ الخفاء...».

قال الصوت: «لا يهم ما أوضحته! ...أنا جائعٌ، والليل باردٌ لرجلٍ من دون ملابس».

قال كيمب: «والطعام؟».

أمال كأس الويسكي نفسه. «نعم»، قال الرجل الخفي وهو يعيد الكأس إلى مكانه. «هل لديكَ شيء أرتديه؟».

تعجَّب كيمب بصوتٍ خفيضٍ. مشى إلى خزانة الملابس، وأخرج ملابس باللون القرمزي الداكن، ثم سأله: «هل يناسبكَ هذا؟» أُخِذت منه الملابس، وظلَّت معلَّقة للحظة في الهواء، ثم تحرَّكت بغرابة، ووقفت كاملة وزررت نفسها، وجلست على الكرسي. قال الرجل الخفي باقتضابٍ: «قد تكون السراويل، والجوارب، والنعال، مريحة. والطعام».

«أي شيء. لم أشهد في حياتي أي شيء أكثر جنونًا!»

أخرج من أدراجه البنود المطلوبة، ثم نزل إلى الطابق السفلي ليجلب الطعام. عاد ببعض قطعٍ من اللحم البارد والخبز، وسحب طاولة

خفيفة، ووضعها أمام ضيفه. قال الزائر: «لا تهتم بالسكاكين»، وعلقت قطعة لحم في الهواء، مع صوت القضم.

قال كيمب: «رجلٌ خفيٌّ!، ويجلس على كرسي غرفة النوم».

«أحب دائمًا ارتداء ملابسي قبل الأكل»، قال الرجل الخفي، وفمه ممتلئ ويأكل بشراهة. «غريب الأطوار!».

«أعتقد أنَّ معصمك على ما يرام»، قال كيمب.

«ثق بي»، قال الرجل الخفي.

«من بين كل الأشياء الغريبة والعجيبة...».

«بالضبط، لكن الغريب أن أتخبط حتى أصل إلى منزلِكَ لأحصل على ضماداتٍ. إنَّها ضربة حظي الأولى! على أيِّ حال، قصدتُ النوم في هذا المنزل الليلة. يجب أن تتحمَّل ذلك! أعلم أنَّه مصدر إزعاجٍ قذرٌ، دمي ينزف، أليس كذلك؟ يوجد تجلُّط هنا. يصبح الدم مرئيًّا عندما يتخثَّر. لم أُغيِّر سوى الأنسجة الحية، فقط ما دمتُ على قيد الحياة. أنا في هذا المنزل منذ ثلاث ساعات».

سأله كيمب، بنبرة حانقة: «وإنَّما كيف فعلتَ ذلك؟ خلط بين شيئين! فالعمل كله.. غير معقول من البداية إلى النهاية».

«معقولٌ جدًّا»، قال الرجل الخفي: «معقولٌ تمامًا».

مدَّ يدًا وأمسك زجاجة الويسكي. أخذ كيمب يحدِّق بذلك الثوب الجالس أمامه وهو يلتهم الطعام بنهم. اخترق شعاعٌ من ضوء الشمعة رقعة ممزَّقة في الكتف الأيمن، فأحدث مثلثًا من الضوء تحت الأضلاع اليسرى.

سأله كيمب: «ما الرصاصات التي انطلقتْ؟ كيف بدأ إطلاق النار؟».

«هناكَ رجلٌ أحمق بحقٍّ، بيننا نوعٌ من الشراكة، عليه اللعنة! حاول سرقة أموالي. وقام بذلك فعلًا.

«هل هو رجلٌ خفيٌّ أيضًا؟».

«كلا».

«وماذا حدث؟».

«ألا يمكنني تناول المزيد من الطعام قبل أن أخبركَ بكلِّ شيء؟ أنا جائعٌ، ومتألمٌ؛ وتريدني أن أروي قصصًا!».

نهض كيمب. سأله: «أنتَ لم تطلِق النار؟».

قال الرجل الخفي: «لستُ أنا. إنَّه شخصٌ أحمق لم أره من قبل، هو من أطلق الرصاص بصورة عشوائية. خاف كثيرون. خافوا مني جميعًا. عليهم اللعنة! اسمع، أنا لا زلت جوعانَ، يا كيمب، أريد أن أكل أكثر مما قدمته لي».

قال كيمب: «سأرى ماذا يمكن أن أجد في الطابق السفلي. أخشى ألَّا أجد الكثير».

وبعد أن انتهى من تناول الطعام، وكانت وجبة ثقيلة، طلب الرجل الخفي سيجارًا. قضم نهاية السيجار بوحشية، قبل أن يجد كيمب سكينًا؛ وأخذ يطلق اللعنات عندما تراخت ورقة السيجار الخارجية. يا لغرابة مشاهدته وهو يدخن. أصبح فمه، وحلقه، وبلعومه، وفتحتا أنفه مرئية، كنوعٍ من الدخان المتطاير.

قال وهو ينفخ بقوة: «التدخين نِعمة! أنا محظوظٌ لأنَّني وجدتُكَ، يا كيمب. يجب أن تساعدني. شيءٌ رائعٌ مصادفة الوصول إليكَ الآن! أنا في حالة شيطانية، أعتقد أنَّني كنتُ غاضبًا. مررتُ بأشياءٍ! لكنَّنا سوف نفعل أشياءً. دعني أخبركَ...».

صبَّ لنفسه المزيدَ من الويسكي والصودا. نهض كيمب، ونظر حوله، ثم جلب كأسًا من غرفته الأخرى. «إنَّها قوية، وإنَّما أعتقد أنَّ بإمكاني أن أشرب».

«أنتَ لم تتغيَّر كثيرًا، يا كيمب خلال هذه السنوات العشر أو أكثر؛ أنتم الرجال المهذَّبون لا تتغيرون. هادئ ومنهجي... بعد الانهيار بداية. يجب أن أخبرك. سوف نعمل معًا!».

سأله كيمب: «ولكن كيف سنفعل ذلك؟ وكيف أصبحتَ خفيًّا؟».

«دعني أدخن في سلامٍ قليلًا! وبعد ذلك سأبدأ في إخباركَ».

لكنَّ القصَّة لم تُروَ في تلك الليلة؛ كان الألم في معصم الرجل الخفي يزداد، كما كان محمومًا، ومنهكًا، وذهنه يتجوَّل مفكِّرًا في مطاردته أسفل التل، والعراك الذي دار في الفندق. حكى عن بعض الأشياء التي حدثت له مع مارفل؛ لكنَّه كان يدخن بشكلٍ أسرع، وبدأ الغضب يبدو في صوته. حاول كيمب تجميع أكبر قدرٍ ممكنٍ من القصة.

«كان خائفًا مني، كنتُ أرى أنَّه خائفٌ مني»، كرر قال الرجل الخفي عدة مرات، «كان يقصد خداعي. كان يخطط للأمر! يا له من أحمق!».

«الخسيس!».

«كان يجب أن أقتله!».

سأله كيمب، فجأة: «من أين حصلتَ على المال؟».

ظلَّ الرجل الخفي صامتًا للحظات، ثم قال: «لا أستطيع أن أخبرك الليلة».

تأوَّه فجأة وانحنى إلى الأمام، وسند رأسه الخفي عبر يديه الخفيتين. قال: «أنا لم أنم، يا كيمب، منذ ما يقرب من ثلاثة أيامٍ؛ باستثناء بضع غفواتٍ لمدة ساعة أو نحو ذلك. يجب أن أنام».

«حسنًا، لديكَ غرفتي، هذه الغرفة».

«ولكن، كيف يمكنني النوم؟ إذا نمت، سوف يهرب. أوه! وماذا يهم؟».

وفجأة سأله كيمب: «ماذا عن الجرح الذي أصابك من طلقات النار؟».

«لا شيء. خدش ودماء. أوه، يا إلهي! كم أتوق إلى النوم!».

«ولِمَ لا؟».

كان الرجل الخفي ينظر إلى كيمب؛ ثم قال ببطءٍ: «لأنَّني أرفض أن يلقي زملائي الرجال القبض عليَّ».

حدَّق كيمب.

«يا لحماقتي!»، قال الرجل الخفي، وخبط على الطاولة بذكاءٍ، «لقد وضعتُ الفكرة في رأسَك».

الفصل الثامن عشر

الرجل الخفي ينام

على الرغم من أنَّ الرجل الخفي كان مُنهَكًا وجريحًا، فلم يثق في وعد كيمب بأنَّه سيحترم حريته. قام بفحص نافذتي غرفة النوم، وأغلق الستائر، وفتح إطارات النافذتين؛ بغية التأكد من كلام كيمب بأنَّ الهرب ممكنًا. كان الليل هادئًا وساكنًا في الخارج، والقمر الجديد على وشك التلاشي. ثم قام بفحص مفاتيح أبواب غرفة النوم وغرفة خلع الملابس، ليطمئن أنَّ هذه المفاتيح قد تكون أيضًا ضمانًا لحريته. وأخيرًا أعرب عن ارتياحه. وقف على سجادة الموقد، وسمع كيمب صوت التثاؤب.

قال الرجل الخفي: «أنا آسفٌ، لأنَّني غير قادر على أن أحكي لكَ كلَّ ما فعلته الليلة، فأنا في حالة إنهاكٍ شديدٍ. إن ما حدث بشعٌ، دون شكٍّ. وفظيعٌ! ولكن، صدقني يا كيمب، على الرغم من جدالك هذا الصباح، فإنَّ هذا شيء ممكنٌ تمامًا. لقد تمكَّنتُ من اكتشاف شيء. وقصدتُ أن أبقيه لنفسي. لكنني لا أستطيع. يجب أن يكون لي شريكٌ.

وأنت.... يمكننا أن نفعل مثل هذه الأشياء... لكن إلى الغد. والآن يا كيمب، أشعر أنَّني يجب أن أنام أو أموت».

وقف كيمب في منتصف الغرفة يحدِّق إلى الملابس التي بلا رأسٍ. «أعتقد أنَّني يجب أن أترككَ»، قال كيمب، «إنَّه أمرٌ لا يُصدَّق. ثلاثة أشياء تحدث مثل هذه، تقلب كل أفكاري المسبقة، من شأنها أن تصيبني بالجنون. لكنَّ الأمر حقيقيٌّ! هل هناك أي شيء آخر يمكنني إحضاره لكَ؟».

قال جريفين: «أن تتمنَّى لي ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة»، قال كيمب، وصافح اليد الخفيَّة. مشى من الجانب إلى الباب. وفجأة سار الثوب نحوه بسرعة. قال الثوب: «أرجو أن تفهمني! لا تبذل أي محاولات لعرقلتي، أو القبض عليَّ! وإلَّا...».

نظر إلى كيمب قليلًا، ثم قال: «أعتقد أنَّني أعطيتُكَ وعدي».

أغلق كيمب الباب بهدوءٍ خلفه، وأُغلِق الباب بالمفتاح من الداخل على الفور. وقف وعلى وجهه تعبيرٌ عن الدهشة السلبية. تحرك قدمان بسرعة إلى باب غرفة الملابس، وأغلقه أيضًا بالمفتاح. خبط كيمب بيده على جبينه. «هل أحلم؟ هل جُنَّ جنون العالم، أم أنا الذي أصابني الجنون؟».

ضحك، ووضع يده على الباب المُغلَق بالمفتاح. قال: «أنا ممنوعٌ من الدخول إلى غرفة نومي، بسبب سخافة صارخة!».

سار إلى قمة السُّلَّم، ثم استدار محدقًا في الأبواب المغلقة،

وأضاف: «إنَّها حقيقة. وضع أصابعه على رقبته المصابة بكدماتٍ طفيفة. «حقيقة لا يمكن إنكارها!».

«ولكن...».

هزَّ رأسه بيأسٍ، ثم استدار ونزل إلى الطابق السفلي.

أشعل مصباح غرفة الطعام، وأخرج سيجارًا. بدأ يقطع الغرفة جيئة وذهابًا، ويحادث نفسه بين الحين والآخر.

قال: «رجل خفي!».

«هل يوجد حيوانٌ خفي؟... في البحر، نعم. الآلاف، بل الملايين. كل اليرقات، وكل نوبليوس أو تورناريا(٣) صغيرة، كل الأشياء المجهرية، قنديل البحر. توجد في البحر أشياءٌ غير مرئية أكثر من الأشياء المرئية! لم أفكر في ذلك من قبل. ويصدق الأمر على البِرك أيضًا! كل تلك الأشياء الصغيرة التي تعيش في البِرك؛ إنَّها نقاطٌ من هلامٍ شفافٍ عديم اللون! أما في الهواء؟ لا!

«لا يمكن أن توجد».

«ولكن؛ لم لا؟».

«لو هناك إنسانٌ مصنوعٌ من الزجاج، فإنَّه سيظلُّ مرئيًّا».

زادتْ تأملاته عمقًا. تحوَّل الجزء الأكبر من ثلاثة من السيجار الذي دخَّنه إلى شيءٍ غير مرئي أو انتشر كرمادٍ أبيض على السجادة قبل أن يتحدَّث مرَّة أخرى. كان الأمر بالنسبة إليه مجرد نوعٍ من التعجُّب.

---

(٣) نوبليوس – تورناريا: أنواع من اليرقات – المترجمة

استدار وخرج من الغرفة، متوجِّهًا إلى غرفته البحثية الصغيرة، وأشعل الغاز هناك. كانت غرفة صغيرة؛ لأنَّ الدكتور كيمب لم يكن يقوم بتجارب عملية، وضمَّت الغرفة صحف اليوم. كانت جريدة الصباح مُلقاة جانبًا بإهمالٍ، ومفتوحة. أمسك بها، وأخذ يقلِّب فيها. قرأ تقريرًا بعنوان «قصَّة غريبة من إيبينج»، حول ما قاله البحَّار في بورت ستو بشكلٍ مؤلمٍ للسيِّد مارفل. قرأ كيمب التقرير بسرعة.

قال كيمب: «ملفوف! متنكر! مختبئ! «لا يعلم أحدٌ ماذا تُخبئ له الأقدار». ما هذه اللعبة الشيطانية؟».

أسقط الصحيفة، وأخذت عيناه تتجولان بحثًا. «آه!»، قال وهو يمسك بجريدة سان جيمس، ملقاة مطوية منذ وصولها. «سوف نصل الآن إلى الحقيقة»، قال الدكتور كيمب. فتح الجريدة، وواجهته بضعة أعمدة. كان العنوان: «قرية كاملة في ساسكس تُصاب بالجنون».

«يا إلهي!»، قال كيمب وهو يقرأ بتلهف تقريرًا لا يُصدَّق حول أحداث إيبينج التي وقعت بعد ظهر اليوم السابق، وسبق وصفها. وقد أعادت صحيفة الصباح طبع التقرير.

أعاد قراءة التقرير: «ركض في الشوارع يضرب يمينًا ويسارًا. جافرز غير مُدرك. السيد هوكستر يعاني ألمًا شديدًا، ولا يزال غير قادر على وصف ما رآه. إذلال مؤلم – القس. امرأة مريضة بالرعب! النوافذ تحطَّمت. ربَّما هذه القصة العجيبة مُلفَّقة. قصَّة جيِّدة، تستحق النشر. يا للعجب!».

ألقى الصحيفة، وحدَّق إلى اللا شيء. «ربَّما قصَّة ملفَّقة!».

أمسك بالصحيفة مرَّة أخرى، وأعاد قراءة التقرير بأكمله. «ولكن، متى وصل الصعلوك؟ ولماذا يطارده ذلك الشيطان؟».

جلس فجأة على مقعد الجراحة الطويل، وقال: «إنَّه ليس خفيًّا فحسب، لكنَّه مجنونٌ! قاتلٌ!».

عندما بدأ شحوب الفجر يختلط بضوء المصباح ودخان السيجار في غرفة الطعام، كان كيمب لا يزال يقطع الغرفة جيئة وذهابًا في محاولة استيعاب ما لا يمكن تصديقه.

كان يرغب في النوم بشدَّة. اكتشف خدمه، الذين نزلوا ناعسين، أنَّه لا يزال مستيقظًا. تصوَّروا أنَّ إفراطه في العمل البحثي قد أدَّى إلى مرضه. أعطاهم تعليماتٍ استثنائية، لكنَّها واضحة تمامًا، بإعداد وجبة الإفطار لشخصين، ووضعها في غرفة المكتب المفتوحة الموجودة على السطح، وبعد ذلك يقتصر وجودهم على الطابقين السفلي والأرضي. استمرَّ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا إلى أن وصلت الجريدة الصباحية. قالت الجريدة الكثير، لكن ما سردته لم يتجاوز كثيرًا تأكيدات المساء السابق. ضمَّت أيضًا تقريرًا مكتوبًا بشكلٍ سيِّءٍ للغاية، فضلًا عن تقريرٍ عن قصَّة عجيبة أخرى وقعت في بورت بوردوك. أعطتْ القصَّة لكيمب صورة عن جوهر الأحداث التي وقعتْ في فندق «جولي كريكيترز»، مع ذِكر اسم مارفل. قال مارفل في شهادته: «أبقاني معه لمدة أربع وعشرين ساعة». أُضيفت بعض الحقائق البسيطة إلى قصة إيبينج، لا سيَّما قطع سلك التلغراف في القرية. وإنَّما لم يكن هناك شيءٌ يلقي الضوء على العلاقة بين الرجل الخفي والصعلوك؛ حيث لم يقدِّم السيد مارفل أيَّ

معلوماتٍ عن الكتب الثلاثة، أو المال الذي كان معه. اختفت نبرة التشكُّك، وبدأ بالفعل عددٌ كبيرٌ من الصحفيين والمراسلين في العمل على توضيح المسألة.

قرأ كيمب كلَّ قصاصة من التقرير، وأرسل خادمته لتشتري جميع الصحف الصباحية التي تستطيع الحصول عليها، وقرأها أيضًا بنهمٍ.

قال: «إنَّه خفيٌّ! ويبدو كغضبٍ يتزايد متحولًا إلى جنونٍ! الأشياء التي قد يفعلها! الأشياء التي قد يفعلها! إنَّه في الطابق العلوي حرٌّ كالهواء. ماذا يجب أن أفعل؟».

«يعني مثلًا، هل يكون خرقًا للعهد إذا...؟ كلا».

ذهب إلى مكتبه الصغير غير المُرتَّب في ركن الغرفة، وبدأ يكتب مذكرة. كتب نصفها ثم مزَّقها، وكتب أخرى. قرأها بعناية ثم وضعها في مظروفٍ، وكتب عليه «العقيد آديا، بورت بوردوك».

وفي هذه الأثناء، استيقظ الرجل الخفي، استيقظ في مزاجٍ شريرٍ. كان كيمب متنبهًا لكل صوتٍ؛ سمع اندفاع وقع قدميه فجأة في أنحاء غرفة النوم العلوية، وصوت كرسي ينقلب، وتحطيم الكوب فوق حامل حوض غسيل اليدين. أسرع كيمب إلى الطابق العلوي، وطرق الباب بلهفة.

الفصل التاسع عشر

بعض المبادئ الأولية

فتح الرجل الخفي الباب. دخل كيمب وهو يسأل: «ماذا حدث؟».

كانت الإجابة: «لا شيء».

«ولكن، ما هذه الفوضى! التحطيم؟».

قال الرجل الخفي: «يتناسب مع نوبة عصبية أصابتني. لقد نسيتُ جرح ذراعي، وهو يؤلمني».

«أنت عُرضة إذن لهذا النوع من الحالات».

«نعم».

سار كيمب في أنحاء الغرفة، يلتقط شظايا الزجاج المكسور، ثم قال، وهو يقف والزجاج في يده: «أصبحتْ كلُّ الحقائق المتعلِّقة بكَ معروفة. كلُّ ما حدث في إيبينج، وأسفل التل. أصبح العالَم يعرف بوجود مواطِنٍ خفي. وإنَّما لا أحد يعلم أنَّكَ هنا».

أطلق الرجل الخفي لعناتٍ وشتائم.

«لقد انكشف السر. أعتقد أنَّه كان سرًّا. لا أعرف ما خططكَ، لكنَّني بالطبع متلهفٌ لمساعدتِكَ».

جلس الرجل الخفي على السرير.

«الفطور جاهزٌ في الطابق العلوي»، قال كيمب، متحدثًا بسهولة قدر الإمكان. وكان سعيدًا لأنَّ ضيفه الغريب نهض عن طيب خاطر. قاد كيمب الطريق إلى السُّلَّم الضيق المؤدي إلى القاعة العلوية.

قال كيمب: «قبل أن نتمكَّن من القيام بأي شيء آخر، يجب أن أفهم المزيد عن قدرتِكَ على الخفاء». جلس كيمب، بعد نظرة عصبية سريعة من النافذة، وأمامه هواء -رجل خفي- لديه ما يقوله. كانت شكوكه في عقلانية الموضوع بأكمله تومض وتتلاشى وهو ينظر إلى حيث جلس جريفين على مائدة الإفطار - ثوب بلا رأس أو يدين، يمسح شفتين غير مرئيتين بمنديل سفرة ممسوك بأعجوبة.

«المسألة في غاية البساطة، وجديرة بالثقة»، قال جريفين وهو يضع منديل السفرة جانبًا، ويميل رأسه الخفية على يده الخفية.

ضحك كيمب: «بالطبع، بالنسبة لك دون شكٍّ. ولكن...».

«حسنًا، نعم بالنسبة لي بدا الأمر رائعًا في البداية، بلا شكٍّ. أما الآن، يا إلهي! ... لكنَّنا سنقوم بأشياءٍ عظيمة! اكتشفتُ الموضوع بداية في تشيزلستو».

«تشيزلستو؟».

«ذهبتُ إلى هناك بعد أن غادرتُ لندن. أتعلم أنَّني تركتُ الطبَّ واتجهتُ إلى الفيزياء؟ لا تعرف؛ حسنًا، هذا ما فعلته. سحرتني دراسة الضوء».

«آها!».

«الكثافة بصرية! الموضوع كله عبارة عن شبكة من الألغاز – شبكة مع حلول تلمع مراوغة من بعيدٍ. وكوني في الثانية والعشرين ومليئًا بالحماس، قلت: «سأكرِّس حياتي لهذا الموضوع، فهو يستحق». هل تعرف مدى حماقتنا ونحن في الثانية والعشرين؟».

قال كيمب: «حمقى حينذاك أم حمقى الآن».

«وكأنَّ المعرفة ستقود المرء إلى الرضى!».

«لكنَّني بدأتُ العمل، مثل العبد. كنتُ أكدح في العمل، وبقيتُ أفكر في هذه المسألة لستة أشهرٍ قبل أن يومض الضوء فجأة من خلال إحدى الشبكات. شيءٌ مذهلٌ! لقد توصَّلتُ إلى مبدأ عامٍ للأصباغ والانكسار؛ معادلة، صيغة هندسية تتضمَّن أربعة أبعاد. الحمقى، والرجال العاديون، وحتى علماء الرياضيات العاديون، لا يعرفون أي شيء عمَّا يمكن أن تعنيه صيغة عامة لطالب الفيزياء الجزيئية. تضم الكتب التي أخفاها ذلك الصعلوك أعاجيب ومعجزات! لكنَّها لم تكن طريقة، بل كانت فكرة قد تؤدي إلى طريقة يمكن من خلالها –دون تغيير

أي خاصية أخرى للمادة، باستثناء الألوان في بعض الحالات- خفض مؤشر الانكسار لمادة، صلبة أو سائلة، إلى هواء -بقدر ما يتعلَّق الأمر بجميع الأغراض العملية».

قال كيمب: «يااااه! هذا غريبٌ! لكنني لم أفهم تمامًا ... أفهم أن بإمكانكَ بهذه الطريقة إفساد حجر له قيمة، لكن الخفاء الشخصي بعيدٌ كل البعد».

أجاب جريفين: «بالضبط. لكن خُذ في اعتبارِكَ أنَّ الرؤية تعتمد على فِعل الأجسام المرئية على الضوء؛ إمَّا أن يمتص الجسم الضوء، وإمَّا يعكسه أو يجعله ينكسر، وإمَّا يفعل كلَّ هذه الأشياء. وإذا لم يعكس الضوء أو يمتصه أو يجعله ينكسر، لا يمكن أن يصبح هذا الجسم في حدِّ ذاته مرئيًّا. وعلى سبيل المثال، أنت ترى صندوقًا أحمر معتمًا لأنَّ اللون يمتصُّ بعضَ الضوء ويعكس الباقي، يعكس لكَ الجزء الأحمر كله من الضوء. وإذا لم يمتصُّ أيَّ جزءٍ معينٍ من الضوء، وإنَّما يعكسه كله، فإنَّك سترى صندوقًا أبيض ساطعًا. اللون الفضي! لن يمتص الصندوق الماسي الكثيرَ من الضوء، ولن يعكس الكثيَر من السطح العام؛ وإنَّما هنا وهناك، حيث توجد أسطح مواتية، سينعكس الضوء وينكسر، وبالتالي تحصل على مظهرٍ رائعٍ من الانعكاسات الوامضة والشفافة - نوع من الهيكل العظمي للضوء. أمَّا الصندوق الزجاجي، فليس بهذا اللمعان ولا مرئيًّا بوضوحٍ كصندوق الماس؛ وذلك لأنَّ الانكسار والانعكاس سيكون أقل. هل ترى ذلك؟ من وجهات نظر

معينة، يمكنك فهم الأمر بوضوحٍ تامٍ. هناك بعض أنواعٍ من الزجاج ستكون أكثر وضوحًا في رؤيتها من غيرها؛ فصندوق من الزجاج المصنوع من حجر الصوان سيكون أكثر لمعانًا من صندوقٍ مصنوعٍ من زجاج النوافذ العادي. يصعب رؤية صندوقٍ من الزجاج العادي الرقيق في ضوءٍ سيئ؛ لأَنَّه لن يمتصَّ أيَّ ضوءٍ ولن ينكسر أو ويعكس سوى القليل جدًّا. وإذا وضعتَ شريحة من الزجاج الأبيض العادي في الماء، بل وإذا وضعتها في سائلٍ أكثر كثافة من الماء، فإِنَّها ستختفي تمامًا تقريبًا؛ ذلك أنَّ انكسار الضوء الذي يمرُّ من الماء إلى الزجاج، أو انعكاسه، أو حتى تأثره فعلًا بأيِّ شكلٍ من الأشكال، يكون محدودًا. سيكون غير مرئي تقريبًا، مثل تيارٍ من غاز الفحم أو الهيدروجين في الهواء. وللسبب نفسه بالضبط!».

«نعم»، قال كيمب، «هذه مسألة عادية».

«سأخبرك بحقيقة أخرى، تعرف أَنَّها صحيحة. إذا تهشَّم لوحٌ من الزجاج، يا كيمب، وسحقته بحيث تحوَّل إلى مسحوقٍ، فإِنَّه يصبح أكثرَ وضوحًا في الهواء؛ بينما يصبح في النهاية مسحوقًا معتمًا لونه أبيض. ويرجع ذلك إلى أنَّ المسحوق يضاعف أسطح الزجاج التي يحدث عندها الانكسار والانعكاس. لا يوجد في لوح الزجاج سوى سطحين. أما في المسحوق، فإنَّ الضوء ينعكس أو ينكسر عن طريق كل حبة من حبوب المسحوق التي يمرُّ خلالها، ولا يمرُّ عبر المسحوق ككل سوى القليل جدًّا. لكنكَ إذا وضعتَ مسحوق الزجاج الأبيض في الماء، تجده يتلاشى على الفور. يتساوى إلى حد مؤشر الانكسار لدى كل مسحوق

الزجاج والماء؛ أي أنَّ الضوء لا يخضع سوى لانكسارٍ أو انعكاسٍ قليلٍ جدًّا عند مروره من أحدهما إلى الآخر».

«أنتَ تجعل الزجاج غير مرئي بوضعه في سائلٍ له مؤشر الانكسار نفسه تقريبًا؛ يصبح الشيء الشفاف غير مرئي إذا وُضع في أي وسيط له مؤشر الانكسار نفسه تقريبًا. وإذا فكرت لمجرد ثانية، سترى أيضًا أنَّ مسحوق الزجاج قد يكون مصنوعًا ليتلاشى في الهواء، إذا كان مؤشر انكساره يساوي تقريبًا مؤشر انكسار الهواء. وبالتالي، لن يوجد انكسار أو انعكاس عند مرور الضوء من الزجاج إلى الهواء».

قال كيمب: «نعم، نعم. لكن الإنسان ليس زجاجًا مسحوقًا».

أجاب جريفين: «كلا، لكنَّه أكثر شفافية!».

«هذا هراءٌ!».

«أهذا كلام يصدر من طبيبٍ؟! كيف ينسى المرء! هل نسيتَ الفيزياء بالفعل، خلال تلك السنوات العشر؟ عليك أن تفكر فقط في كلِّ الأشياء الشفافة، ولا تبدو شفافة. الورق، على سبيل المثال، يتكوَّن من أليافٍ شفافة، وهو أبيض ومعتم للسبب نفسه الذي يجعل مسحوق الزجاج أبيض ومعتمًا. والورقة البيضاء الزيتية، تملأ الفجوات القائمة بين الجزيئات بالزيت؛ بحيث لن يوجد انكسارٌ أو انعكاسٌ إلَّا على الأسطح، وتصبح شفافة مثل الزجاج. ولا يصدَّق ذلك على الورق فحسب، وإنَّما أيضًا على ألياف القطن، وألياف الكتان، وألياف الصوف، والألياف الخشبية، والعظام يا كيمب، واللحم يا كيمب،

والشعر يا كيمب، والأظافر والأعصاب يا كيمب. وفي الواقع، الإنسان كلُّه -باستثناء اللون الأحمر لدمه ومادة اللون الأسود لشعره- يتكوَّن من أنسجة شفافة وعديمة اللون. يكفي القليل جدًّا ليجعلنا مرئيين لبعضنا. وأغلب أنسجة أي مخلوقٍ حيٍّ ليست أكثر عتامة من الماء».

صاح كيمب: «يا إلهي! بالطبع، بالطبع! كنتُ أفكر الليلة الماضية فقط في اليرقات التي تعيش في البحر، وقنديل البحر بكلِّ أنواعه!».

«أنا معك الآن! علاوة على كلِّ ما عرفته، وفكرت فيه بعد عامٍ من مغادرتي لندن منذ ست سنواتٍ، لكنَّني احتفظتُ به لنفسي. كنتُ مضطرًّا أن أقوم بعملي في ظلِّ ظروفٍ مخيفة غير مواتية. كان أستاذي أوليفر يتصف بالحماقة عِلميًّا، كما كان صحفيًّا بالفطرة، وسارقًا للأفكار؛ كان دائم التطفُّل! وأنت تعرف مدى رداءة المنظومة في الأوساط العلمية؛ لن أتمكَّن ببساطة من نشر أطروحتي، ويجب أن أوافق على أن يشاركني الفخر. واصلتُ العمل، واقتربتُ كثيرًا من وضع معادلتي قيد التجربة، في الواقع العملي. لم أُخبر أحدًا؛ لأنَّني أردتُ أن أقدِّم عملي إلى العالَم بتأثيرٍ ساحقٍ، وأحقِّق الشهرة بضربة واحدة. تناولتُ مسألة الأصباغ لملء بعض الثغرات، وفجأة، ليس عن قصدٍ وإما مصادفة، توصلتُ إلى اكتشافٍ في علم وظائف الأعضاء».

«ما هو؟».

«أنت تعرف المادة التي تعطي الدم لونه الأحمر. يمكن جعلها بيضاء -عديمة اللون- وتظل تؤدي جميع وظائفها!».

أطلق كيمب صيحة دهشة متشككة.

نهض الرجل الخفي، وبدأ يذرع غرفة المكتب الصغيرة جيئة وذهابًا. «أنت مُحق في صيحتك. أتذكر تلك الليلة. كان الوقت متأخرًا في الليل، حيث ينزعج المرء نهارًا من سخافة بعض الطلاب وتطفلهم، وأنا أعمل أحيانًا حتى الفجر. وفجأة تبادرت إلى ذهني فكرة رائعة ومكتملة. كنت بمفردي، والمختبر ساكنًا تمامًا، وأضواء طويلة تشتعل بسطوع وصمت. كنت دائمًا بمفردي في كل لحظاتي الكبرى. «يمكن للمرء أن يجعل حيوانًا –نسيجًا– شفافًا! يمكن للمرء أن يجعله غير مرئي! كل شيء ما عدا الصبغات. أنا يمكن أن أصبح خفيًّا!» هذا ما قلته لنفسي، وأنا أدرك فجأة ما يعنيه أن أكون مريضًا بالبَرص ولديه هذه المعرفة. كان الأمر ساحقًا. تركت عملية الترشيح التي كنت أقوم بها، وذهبت إلى النافذة الكبيرة وحدقت في النجوم وأنا أكرر: «يمكنني أن أصبح خفيًّا».

«والقيام بمثل هذا الشيء، يتجاوز السحر. تصورت دون أدنى شك، رؤية رائعة لما يمكن أن يعنيه الخفاء للإنسان: الغموض، القوة، الحرية. ولم أر أي عيوب. رأيت لا شيء. ليس عليك إلا أن تفكر! وأنا الأستاذ المساعد –المتهالك، الفقير، المُحاصر– الذي يتولى التدريس للحمقى في كلية إقليمية، قد أصبح فجأة...هذا. أسألك، يا كيمب، إذا كنت... أنت أو أي شخص، أقول لك، كان سيندفع إلى هذا البحث. لقد ظللت أعمل لثلاث سنوات، ومع كل جبل من الصعوبات أعبره، تظهر قمة جبل آخر. هناك تفاصيل لا نهائية! وتوترات! أستاذ، أستاذ إقليمي، يتطفل دائمًا، كان سؤاله الأبدي: «متى ستنشر بحثك؟»، والطلاب المُزعجين! مررت بذلك طوال ثلاث سنوات».

«وبعد ثلاث سنوات من السرية والتوتر، وجدت أن إتمامه كان مستحيلًا – مستحيلًا».

«كيف؟»، سأل كيمب.

أجاب الرجل الخفي: «بسبب المال»، وتوجه إلى النافذة مُحدقًا مرة أخرى.

استدار فجأة قائلًا: «لقد سرقت الرجل العجوز، سرقت والدي؛ لم يكن المال له، فأطلق النار على نفسه».

الفصل العشرون

في المنزل في شارع جريت بورتلاند العظيم

جلس كيمب للحظة صامتًا، يحدق في ظهر الهيئة مقطوعة الرأس عند النافذة. راودته فكرة، فنهض وأخذ ذراع الرجل الخفي، وأبعده عن المشهد.

قال له: «أنت مُتعب. أنا جالس وأنت تقطع الغرفة جيئة وذهابًا. خُذ مقعدي».

اتخذ مكانًا بين جريفين وأقرب نافذة.

جلس جريفين صامتًا لفترة، ثم استأنف فجأة قصَّته:

«كنتُ قد غادرتُ كوخ تشيسيل ستو بالفعل، عندما حدث ذلك. كان ذلك في ديسمبر الماضي. استأجرتُ غرفة في لندن؛ غرفة كبيرة غير مفروشة في بنسيون كبيرٍ سيِّئ الإدارة، في حي فقيرٍ بالقرب من شارع جريت بورتلاند. وسرعان ما امتلأت الغرفة بالأجهزة التي اشتريتها من ماله. بدأتُ العمل بانتظامٍ، وبنجاحٍ، وأخذتُ أقترب من النهاية. كنتُ مثل رجلٍ يخرج من غابة، وفجأة يواجه مأساة بلا معنى. ذهبتُ لدفنه،

وعقلي لا يزال يركز على هذا البحث، ولم أبذل جهدًا في جنازته. أتذكَّر الجنازة، وعربة رخيصة للموتى، ومراسم محدودة، ومنحدر التل الذي تعصف به رياحُ الصقيع، وصديقَ جامعته القديم الذي قرأ القُداس؛ رجلًا عجوزًا أحدب، وأسود، ورثًّا، ومصابًا بنزلة بردٍ شديدة.

«أتذكَّر أنَّني عُدتُ إلى المنزل الفارغ، عبر المكان الذي كان قرية في السابق وأصبح الآن مرقَّعًا ومشوَّهًا بتلك المباني السخيفة التي حوَّلته إلى بلدة قبيحة. وشُقَّتْ الطرق أخيرًا في جميع الاتجاهات مخترِقة الحقول، وانتهت في أكوامٍ من الأنقاض والحشائش الرطبة. أتذكرني كشخصٍ أسود هزيلٍ، يسير على طول رصيف زلقٍ لامعٍ، ولديَّ إحساسٌ غريبٌ بالانفصال تجاه بؤس المكان ونزعته التجارية الدنيئة.

«لم أشعر بأيِّ أسفٍ على والدي. بدا لي أنَّه ضحية لعاطفته الحمقاء. كان الواجب يتطلَّب حضوري جنازته، رغم أنَّها لم تكن من شأني حقًّا.

«لكنَّ سيري على طول الشارع الرئيسي أعادني لفترة إلى حياتي القديمة، حيث التقيتُ بالفتاة التي كنتُ أعرفها منذ عشر سنوات. تقابلتْ أعيننا.

«دفعني شيءٌ ما أن أستدير وأتحدَّث إليها. كانت شخصًا عاديًّا جدًّا».

«كانت تلك الزيارة إلى الأماكن القديمة أشبه بحلمٍ. لم أشعر حينها أنَّني وحيدٌ، وأنَّني خرجتُ من العالم إلى مكانٍ مقفرٍ. شعرتُ أنَّني فقدتُ التعاطُف، لكنَّني أرجعتُ ذلك إلى غموض الأشياء بوجه عامٍ. وبدتْ

عودتي إلى غرفتي أشبه بالعودة إلى الواقع. ففي غرفتي توجد الأشياء التي عرفتها وأحببتها. ها هي أجهزتي، وتجاربي مرتَّبة وفي انتظاري. وعندئذٍ لم أجد أيَّ صعوبة في تخطيط التفاصيل.

«سوف أخبركَ، يا كيمب، عاجلًا أم آجلًا، بكلِّ العمليات المعقَّدة، لا نحتاج إلى الخوض في ذلك الآن. إنَّ الجزء الأكبر، باستثناء بعض الأشياء التي اخترت أن أتذكرها، مدوَّنٌ بشفرة في تلك الكتب التي أخفاها ذلك الصعلوك. يجب أن نطارده، ونستعيد تلك الكتب مرة أخرى. لكنَّ المرحلة الأساسية كانت تكمن في وضع الشيء الشفاف، الذي يجب خفض مؤشر انكساره، بين مركزيْن مشعيْن لنوعٍ من الاهتزاز الأثيري، سأخبركَ به بشكلٍ كاملٍ في وقتٍ لاحقٍ. كلا، ليس اهتزازات رونتجن؛ أنا لا أعرف أنَّ الاهتزازات الأخرى قد وُصِفت. ومع ذلك فهي واضحة بما يكفي. كنتُ بحاجة إلى مولِّديْن كهربائييْن صغيريْن، وبدأتُ عملي بمحرك غازٍ رخيصٍ. أجريتُ تجربتي الأولى على قطعة من الصوف الأبيض. وكان أغرب شيء في العالم أن تراها في بصيصٍ من ومضاتٍ ناعمة وبيضاء، ثم تشاهدها تتلاشى مثل سحابة دخان، وتختفي.

«لم أصدق أنَّني فعلتُ ذلك. وضعتُ يدي في الفراغ، ولمستُ شيئًا صلبًا. كانت قطعة الصوف. ارتبكتُ وأنا أتحسَّسها، ورميتها على الأرض. واجهتُ صعوبة في العثور عليها مرَّة أخرى.

«ثم حدثتْ تجربة غريبة. سمعتُ مواءً خلفي. التفتُّ، ورأيتُ قطة بيضاء هزيلة، شديدة القذارة تقف فوق غطاء صهريج خارج النافذة.

واتتني فكرة. قلتُ لنفسي: «كلُّ شيء جاهزٌ أمامي». ذهبتُ إلى النافذة وفتحتها، وناديتُ على القطة بهدوءٍ. دخلتْ وهي تموء، وكانت تتضوَّر جوعًا، فأعطيتها بعض اللبن. كان طعامي كله في خزانة تقع في ركن الغرفة. أخذت القطة تتجوَّل في الغرفة وتتشمَّم رائحتها، يبدو أنَّها تريد أن تشعر أنَّها على راحتها. أزعجتها قطعة الصوف الخفية قليلًا، كان يجب أن تراها وهي تبصق عليها! لكنَّني أشعرتها بالراحة ووضعتها على وسادة سريري. دهنتها بالزبدة لحملها على الاغتسال».

«وهل حاولتَ تطبيق تجربتك عليها؟».

«نعم، لكن إعطاء العقاقير إلى قطة ليست مزحة، يا كيمب، وفشلتْ التجربة».

«فشلتْ؟!».

«فشلتْ في جانبين. المخالب والمادة الملونة. ما هي؟ تلك التي توجد في الجزء الخلفي من العين عند القطط. تعرفها؟».

«البساط الشفاف».[٤]

«نعم، البساط الشفاف. لم يختفِ. بعد أن أعطيتُ القطة المواد اللازمة لتبييض الدم، فضلًا عن قيامي بأشياءٍ أخرى معينة لها، أعطيتها الأفيون، ووضعتها هي والوسادة التي تنام عليها فوق الجهاز. وبعد أن تلاشى كلُّ شيءٍ واختفى، بقي شبحان صغيران: عيناها».

«هذا غريبٌ!».

---

(٤) طبقة من الأنسجة في أعين العديد من الفَقَاريَّات – المترجمة.

«لا أستطيع تفسير ذلك. كانت القطة مضمدة ومثبتة بإحكامٍ، بالطبع، حتى تظلَّ آمنة. لكنَّها استيقظتْ، وكانت مشوَّشة وأخذتْ تموء بشكلٍ مفزعٍ، بينما يطرق شخصٌ على الباب. كانت امرأةً عجوزًا من الطابق السفلي، اشتبهتْ في أنَّني أمارس تشريح الكائنات الحية، امرأة عجوزًا سكيرة، ليس لديها في العالم سوى قطٍّ أبيض ترعاه. أحضرتُ بعض الكلوروفورم واستخدمته، ثم فتحتُ الباب. سألتني: «هل سمعتَ مواء قطة؟ قطتي؟»، أجبتُها بأدبٍ شديدٍ: «ليست هنا». تشكَّكتْ قليلًا وحاولتْ التحديق إلى الغرفة، التي تُعتبَر غريبة دون شكٍّ؛ فالجدران عارية، والنوافذ بلا ستائر، والسرير المتحرك منخفضٌ، ومحرك الغاز يهتزُّ، والنقاط المشعَّة تُصدِر ضوضاءً، ورائحة الكلوروفورم الخافتة اللاذعة في الهواء. وشعرتْ بالرضا أخيرًا، وذهبتْ».

سأل كيمب: «كم من الوقت استغرقته التجربة؟».

«ثلاث أو أربع ساعات لاختفاء القطة. وكانت العظام والعضلات والدهون هي آخر شيء يختفي، وأطراف الشعر الملونة. وكما أخبرتك، لم يختفِ على الإطلاق الجزء الخلفي من العين، أي الأشياء الصلبة اللامعة.

«كان الليل قد حلَّ في الخارج قبل وقتٍ طويلٍ من نهاية العمل، ولم يكن هناك شيءٌ يمكن رؤيته سوى الأعين الخافتة والمخالِب. أوقفتُ محرك الغاز، تحسَّستُ القطة، لكنَّها لم تكن قد استعادتْ وعيها بعد. كنتُ متعبًا، تركتها نائمة فوق الوسادة الخفية وذهبتُ إلى الفراش. وجدتُ صعوبة في النوم. رقدتُ مستيقظًا أفكر في أشياءٍ واهية

بلا هدفٍ، وفي التجربة مرارًا وتكرارًا، أو أحلم بشكلٍ محمومٍ بأشياءٍ تنمو على نحوٍ ضبابيٍّ ثم تتلاشى، إلى أن اختفى كلُّ شيءٍ بما في ذلك الأرضية التي أقف عليها، وهكذا عشتُ ذلك الكابوس المروع الذي ينتاب المرء أحيانًا. وفي قرابة الساعة الثانية، بدأتْ القطة تموء في أنحاء الغرفة. حاولتُ إسكاتها بالتحدُّث إليها، ثم قررتُ تركها. أتذكر الصدمة التي تعرَّضتُ لها عندما أضأتُ الغرفة؛ لم أرَ من القطة سوى عينين مستديرتين، لامعتين بلونٍ أخضر، ولا شيء حولهما. رغبتُ في منحها بعض اللبن، لكنَّني لم أجد لديَّ أي حليبٍ. لم تهدأ القطة، بل جلستْ تموء عند الباب. حاولتُ الإمساك بها لإخراجها من النافذة، لكنَّني لم أتمكَّن. اختفتْ القطة، ثم بدأتْ تموء في أنحاءٍ مختلفة من الغرفة. وأخيرًا فتحت النافذة، وحدثت ضوضاء. وأعتقد أنَّها خرجتْ أخيرًا ولم أرَها ثانية.

«ثم، يا إلهي، أخذتُ أفكر في جنازة والدي مرَّة أخرى، والتلال العاصفة الكئيبة، وما مررتُ به حتى اليوم. أصبحتُ أجد صعوبة في النوم، ولذا كنتُ أخرج وأوصد الباب خلفي، وأتجوَّل في الشوارع صباحًا».

قال كيمب: «أتعني أنَّ هناك قطة خفية تتجوَّل حرة!».

أجاب الرجل الخفي: «ولِمَ لا؟ إلَّا إذا كانت قد قُتِلت».

«ولِمَ لا؟»، قال كيمب، «لا أقصد مقاطعتكَ».

قال الرجل الخفي: «من المحتمل جدًّا أنها قُتِلت. أعرف أنَّها ظلَّت حيَّة لأربعة أيامٍ، أسفل حاجز شبكي في شارع جريت تيتشفيلد؛ لأنَّني

رأيتُ حشدًا حول المكان، يحاول معرفة من أين يأتي المواء».

صمت الرجل الخفي لقرابة دقيقة، ثم استأنف فجأة:

«أتذكَّر جيدًا ذلك الصباح، قبل حدوث التغيير. ذهبتُ إلى شارع جريت بورتلاند. أتذكر الثكنات في شارع ألباني، والجنود يخرجون وهم يمتطون الخيول، ثم أخيرًا وجدتُ بريمروز هيل. كان يومًا مشمسًا من أيام شهر يناير. أحد تلك الأيام المشمسة الباردة، التي أتت قبل تساقط الثلوج هذا العام. حاول ذهني المرهق صياغة الموقف، لرسم خطة عملٍ.

«فوجئتُ عندما وجدتني أملك ناصية التجربة، بعد أن بدا تحقيقها غير مؤكَدٍ. فقد كنتُ في الواقع شديد الإنهاك؛ ولم أعد قادرًا على أيِّ شعورٍ نتيجة الإجهاد الشديد من العمل المستمر لِمَا يقرب من أربع سنواتٍ. كنتُ لا مباليًا، وحاولتُ عبثًا استعادة حماس تساؤلاتي الأولى، شغف الاكتشاف الذي مكَّنني من عدم الاهتمام حتى بسقوط شعر والدي الرمادي. بدا كلُّ شيء بلا أهمية. أدركتُ بوضوحٍ أنَّه مِزاجٌ عابرٌ، بسبب الإفراط في العمل والرغبة في النوم. كما أدركتُ أنَّ بإمكاني استعادة طاقاتي، إمَّا بالأدوية أو بالراحة.

«كلُّ ما فكرت فيه بوضوحٍ هو ضرورة تنفيذ التجربة؛ لا زالت الفكرة الثابتة تسيطر على ذهني. وسرعان ما استنفدت ما لديَّ من نقودٍ. نظرتُ حولي، في اتجاه سفح التل، حيث يلعب الأطفال والفتيات تراقبهم، وحاولتُ التفكير في جميع المزايا الرائعة التي يمكن أن يتمتَّع بها رجلٌ خفيٌّ في هذا العالم. عُدتُ إلى منزلي بعد فترة. تناولتُ

الطعام، وأخذتُ جرعة قوية من مادة الستريكنين، ونمتُ بملابسي على سريري غير المُرتَّب. الستريكنين منشطٌ قويٌّ، يا كيمب، يزيل الترهُّل من الرجل».

«إنَّها مادة شيطانية»، قال كيمب: «العصر الحجري في زجاجة».

«استيقظتُ نشطًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وسريع الانفعال إلى حدٍّ ما. تعرف؟».

«أعرف المادة».

«كان هناك شخصٌ يطرق الباب. اتَّضح أنَّه صاحب البيت، يتفوَّه بتهديداتٍ واستفساراتٍ. وصاحب البيت بولندي يهودي عجوزٌ، يرتدي معطفًا رماديًّا طويلًا وخفًّا قذرًا. كان على يقينٍ أنَّني كنتُ أعذِّب قطًّا خلال الليل؛ نقلًا عمَّا أخبرته به المرأة العجوز. أصرَّ صاحب البيت على معرفة كلِّ شيءٍ عن هذا الموضوع. كانت القوانين في هذا البلد صارمة ضد التشريح الحي؛ وقد يجد نفسه مسؤولًا كمالكٍ للعقار. أنكرتُ قصَّة القط. لكنَّه قال إنَّ الشعور باهتزاز محرك الغاز الصغير كان واضحًا في أنحاء البيت كلِّه. هذا صحيحٌ بالتأكيد. دخل إلى الغرفة، محدِّقًا خلال نظارته الألمانية الفضية. تبادر إلى ذهني خوفٌ مفاجئ من أن يعرف شيئًا عن أسراري. حاولتُ أن أقف بينه وبين جهاز التركيز، لكنَّ هذا جعله أكثر فضولًا. ماذا أفعل؟ لماذا أنا دائمًا وحيدٌ ومليءٌ بالأسرار؟ هل الوضع قانوني؟ هل خطيرٌ؟ لم أدفع سوى الإيجار المعتاد. وكان منزله دائمًا أكثر المنازل احترامًا، في حيٍّ سيِّئ السمعة. وفجأة فقدتُ أعصابي، وطلبتُ منه أن يخرج. بدأ في الاحتجاج، مثرثرًا

حول حقِّه في الدخول. وفي لحظة، أمسكته من ياقته؛ تمزَّق شيءٌ، وخرج إلى الممرِّ غاضبًا. أغلقتُ الباب، وأوصدته، وجلستُ أرتجف.

«أثار ضجة في الخارج، تجاهلتها، وانصرف بعد فترة.

«لكن ما حدث أدَّى إلى أزمة. لم أكن أعرف ماذا سيفعل، ولا حتى ما يمكنه القيام به. والانتقال إلى شقة جديدة يعني التأجير؛ ولم يكن لديَّ سوى عشرين جنيهًا، أغلبها في البنك، ولا يمكنني تحمُّل تكلفة الانتقال. فكرتُ أن أختفي! فكرة مغرية. وإلَّا سيحدث تحقيقٌ، وأُطرَد من غرفتي.

«أدى التفكير في إمكانية انكشاف عملي، أو انقطاعه وهو في ذروته، إلى أن أصبحتُ شديدَ الغضب وكذا شديد النشاط. أخذتُ دفاتر ملاحظاتي الثلاثة، ودفتر الشيكات -وجميعها مع الصعلوك الآن- وأرسلتها من أقرب مكتب بريدٍ إلى دارٍ لاستقبال الرسائل والطرود في شارع جريت بورتلاند. حاولت الخروج من دون ضوضاءٍ. وعند عودتي، وجدتُ صاحب البيت يصعد السلَّم بهدوءٍ. وأعتقد أنَّه سمِع الباب يُغلَق. كنتُ ستضحك إذا رأيته يقفز جانبًا على السلَّم وأنا أصعد خلفه. كان يحدِّق إليَّ وأنا أصعد بجانبه، وجعلتُ المنزل يرتجف مع إغلاق بابي. سمعته وهو يأتي إلى طابقي، ويتردَّد، ثم ينزل. بدأتُ على الفور التحضير للعمل.

«قمتُ بالعمل كلِّه في ذلك المساء والليل. بينما كنتُ لا أزال جالسًا تحت تأثير المرض والنعاس من الأدوية التي تزيل لون الدم، سمعتُ طرقًا متكررًا على الباب. توقَّف الطرق، تحركتْ خطواتٌ بعيدًا

ثم عادتْ، واستؤنف طرق الباب. كانت هناك محاولة لدفع شيء تحت الباب: ورقة زرقاء. نهضتُ في نوبة من الغضب، وذهبتُ إلى الباب وفتحته على مصراعيه قائلًا: «وماذا الآن؟».

«كان صاحب البيت، ومعه إشعارٌ بالطرد أو شيءٌ من هذا القبيل. أمسك بالورقة ووضعها أمامي، لكنَّه رأى شيئًا غريبًا يتعلَّق بيدي، كما أتوقَّع، ثم رفع عينيه إلى وجهي.

«تباعد للحظة، ثم أطلق صيحة مكتومة، وأسقط كلًّا من الشمعة والإشعار، ونزل متخبطًا على الممرِّ المظلم إلى السلم. أغلقتُ الباب، وأوصدته، ثم ذهبتُ إلى المرآة. أدركتُ سبب رعبه... كان وجهي أبيض اللون، مثل الحجر الأبيض.

«لكنَّ الوضع كلَّه كان فظيعًا. لم أتوقَّع هذه المعاناة؛ ليلة من إجهاد الكرب، والمرض، والإغماء. عزمتُ على المواجهة والتحمُّل، على الرغم من شعوري بأنَّ بشرتي مشتعلة، بل جسدي كله مشتعلٌ. بقيتُ مستلقيًا مثل موتٍ كئيبٍ. فهمتُ الآن كيف ظلَّت القطة تموء إلى أن أعطيتها الكلوروفورم. من حُسن الحظ أنَّني عشتُ وحيدًا وغيرَ مبالٍ في غرفتي. مررتُ بفتراتٍ من النحيب، والتأوُّه، والتحدُّث. لكنَّني تماسكتُ... أصبحتُ غير مُدركٍ، واستيقظتُ واهنًا في الظلام.

«انتهى الألم. ظننتُ أنَّني أقتل نفسي، ولم أهتم. لن أنسى أبدًا ذلك الفجر، والرعب الغريب الذي انتابني عندما رأيتُ يدي وقد أصبحتا كالزجاج الغائم، ومشاهدتهما تنموان أكثر وضوحًا ونحافة مع مرور اليوم، حتى تمكنتُ أخيرًا من رؤية الاضطراب في غرفتي من خلالهما،

على الرغم من أنَّني أغلقتُ جفوني الشفافة. أصبحتْ أطرافي زجاجية، وتلاشتْ العظام والشرايين، ثم اختفتْ، وكانت الأعصاب البيضاء الصغيرة هي آخر ما اختفى. كنتُ أجزُّ على أسناني، وبقيتُ في الغرفة حتى النهاية. لم يبقَ في النهاية سوى أطراف الأظافر، شاحبة وبيضاء، وبقع بنيَّة اللون نتيجة سقوط قطرات من الحمض على أصابعي.

«لقد كافحتُ. كنتُ عاجزًا في البداية كرضيع ملفوفٍ، يخطو بأطرافٍ لم أتمكَّن من رؤيتها. كنتُ ضعيفًا وجائعًا جدًّا. ذهبتُ إلى مرآة الحلاقة وحدَّقت بها. لم أرَ أيَّ شيءٍ، باستثناء صبغة خفيفة وراء شبكية عيني، لون أضعف من الضباب. اضطررتُ إلى الإمساك بالطاولة، والضغط بجبهتي على الزجاج.

«وفقط بجهدٍ محمومٍ من الإرادة، تمكَّنتُ من جرِّ نفسي إلى الجهاز، وأكملتُ العملية.

«نمتُ طوال الصباح، وسحبتُ الملاءة فوق عيني لأبعد الضوء عنهما. وقرابة منتصف النهار، أيقظني طرقٌ على الباب مرَّة أخرى. استعدتُ قوتي. جلستُ، وسمعتُ همسًا. وقفتُ على قدمي. وبدأتُ، بأقصى قدرٍ ممكنٍ من الهدوء، فصل وصلات جهازي وتوزيعها في أنحاء الغرفة، بهدف الحيلولة دون أي فكرة لإعادة وصلها. تجدَّد الطرق، أصواتٌ تنادي: أولًا صوت مالك العقار، ثم صوتان آخران. أجبتهم كسبًا للوقت. أخذتُ قطعة القماش والوسادة غير المرئيتين، وفتحتُ النافذة وقذفتهما إلى غطاء الصهريج. وعند فتح النافذة، وقع تصادمٌ شديدٌ عند الباب. حاول شخصٌ تحطيم القفل، لكنَّ المزلاج

القوي الذي وضعته قبل بضعة أيامٍ أوقفه. أفزعني ذلك وأغضبني. بدأتُ أرتجف وأفعل الأشياء على عجلٍ.

«جمعتُ بعض الأوراق والقشِّ وورق التعبئة وما شابه، ووضعتها في وسط الغرفة، ثم أطفأتُ الغاز. بدأتْ ضرباتٌ ثقيلة تطرق الباب. لم أتمكَّن من العثور على أعواد ثقابٍ. ضربتُ الحائط بيدي في غضبٍ. فتحت الغاز مرَّة أخرى، وخرجتُ من النافذة إلى غطاء الصهريج. قمتُ بخفض إطار النافذة بهدوءٍ شديدٍ، ثم جلستُ آمنًا وغير مرئي، وإنَّما ارتجف غضبًا، لمشاهدة الأحداث. رأيتهم يكسرون لوحًا، وفي اللحظة التالية فكُّوا مسامير المزلاج، ثم وقفوا في مدخل الغرفة المفتوح. كان المالك وابنيه: شابين قويين، في عمر الثلاث أو الأربع وعشرين سنة. وخلفهم تحوم المرأة، العجوز الشمطاء، من الطابق السفلي.

«لكَ أن تتخيَّل دهشتهم عندما وجدوا الغرفة فارغة. اندفع أحد الشابين إلى النافذة على الفور، وفتحها محدِّقًا. كانت عيناه المحدقتان ووجهه الملتحي غليظ الشفتين على بُعد قدمٍ من وجهي. فكرتُ بذهنٍ مشوَّشٍ أن أضرب طلعته السخيفة، لكنَّني تماسكتُ ومنعتُ قبضتي. كان نظره متجهًا نحوي مباشرة. فعل الآخرون مثله عندما انضموا إليه. ذهب الرجل العجوز ليبحث تحت السرير، ثم اتجهوا جميعًا نحو الدولاب. أخذوا يتجادلون حول هذا الموضوع مطولًا بلغتين: البيدش، والإنجليزية العامية؛ وخلصوا إلى أنَّني لم أرد عليهم، وأنَّ خيالهم خدعهم. حلَّ شعورٌ بالبهجة غير العادية محلَّ غضبي، وأنا جالسٌ خارج النافذة أشاهد هؤلاء الأشخاص الأربعة (لأنَّ السيدة

العجوز جاءت لتلقي نظرة مريبة حول المكان مثل أي قطة في محاولة لفهم لغز سلوكي).

«اتفق الرجل العجوز، بقدر ما تمكَّنتُ من فهم لهجته العامية، مع السيدة العجوز أنَّني أمارس تشريح الحيوانات الحية. احتجَّ الأبناء بلغة إنجليزية مشوَّهة، قائلين إنَّني كهربائي، مستشهدين بالأجهزة والدينامو والإشعاع. كانوا جميعًا متوترين بشأن وصولي، على الرغم من أنَّني اكتشفتُ لاحقًا أنَّهم أوصدوا الباب الأمامي. نظرتْ السيدة العجوز داخل الدولاب وتحت السرير، ودفع أحد الشابين جهاز التسجيل ونظر داخل المدخنة. ظهر مستأجرٌ على السلَّم، وهو بائعٌ متجولٌ يتقاسم الغرفة المقابلة مع جزارٍ. نادوا عليه وأخبروه بأشياءٍ غير مترابطة.

«تبادر إلى ذهني أنَّ أجهزة الإشعاع، إذا سقطتْ في أيدي شخصٍ يتمتَّع بتعليمٍ جيِّدٍ، سوف تُكشَف حقيقتي. ولذا، انتظرتُ فرصتي، ودخلتُ إلى الغرفة وأملتُ الدينامو الصغير قليلًا قبالة الدينامو الثاني، وحطَّمتُ الجهازين. وبينما كانوا يحاولون تفسير التحطيم، تسلَّلتُ من الغرفة، ونزلتُ بهدوءٍ إلى الطابق السفلي.

«ذهبتُ إلى إحدى غرف الجلوس وانتظرتُ حتى نزلوا، وهم لا يزالون يتكهنون ويتجادلون، مع شعورهم بالإحباط لعدم العثور على أي «أهوالٍ»، فضلًا عن شعورهم بالحيرة حول موقفهم القانوني تجاهي. وجدتُ علبة أعواد ثقابٍ، وأحرقتُ كومة الورق والنفايات، كما أحرقتُ الكراسي والفراش، واستعنتُ بالغاز عن طريق أنبوبٍ مطاطيٍّ، ثم لوَّحتُ بيدي وداعًا للغرفة التي تركتها للمرة الأخيرة».

صاح كيمب: «أحرقتَ البيت!».

«نعم، أحرقتُ البيت. فهذه هي الطريقة الوحيدة لتغطية أثري؛ ولا شكَّ أنَّ البيت مؤمنٌ عليه. فككتُ الباب الأمامي بهدوءٍ، وخرجتُ إلى الشارع. كنتُ خفيًّا، وبدأتُ أدرك على الفور تلك الميزة غير العادية التي منحني إياها التخفي. كان رأسي زاخرًا بالفعل بخططٍ لكلِّ الأشياء الجامحة والرائعة التي أملك الآن حصانة الإفلات من عقاب القيام بها».

الفصل الحادي والعشرون

في شارع أكسفورد

عند نزولي إلى الطابق السفلي، للمرَّة الأولى بعد الخفاء، وجدتُ صعوبة غير متوقَعة لأنَّني لم أتمكَّن من رؤية قدمي. تعثرتُ مرتين، كما وجدتُ صعوبة غير معتادة في فتح المزلاج. لكنَّني تمكَّنتُ من السير بشكلٍ جيدٍ، عن طريق عدم النظر إلى أسفل.

«أقول لك، كان مِزاجي رائعًا. شعرتُ كما يشعر الرجل المبصر، بأقدامٍ مبطَّنة وملابس لا تحدث ضجيجًا، في مدينة المكفوفين. مارستُ دافعًا جامحًا للمزاح، وإدهاش الناس، وصفع ظهور الرجال، وقذف القبعات؛ أي الاستمتاع بشكلٍ عامٍ بميزتي الاستثنائية.

«وما إن وصلت إلى شارع جريت بورتلاند (كان مسكني بالقرب من متجرٍ كبيرٍ للستائر هناك)، حتى سمعتُ هزَّة تصادم وضربة عنيفة تأتيني من الخلف. استدرتُ، فرأيتُ رجلًا يحمل سلة من زجاجات مياه الصودا، وينظر في ذهولٍ إلى حمولته. وعلى الرغم من أنَّ الضربة قد آذتني حقًّا، فقد وجدتُ شيئًا تصعب مقاومته في دهشة الرجل، لدرجة

أنَّني ضحكتُ بصوتٍ عالٍ. قلتُ: «الشيطان في السلة»، وجذبتها فجأة من يده. تركها ببساطة، وأخذت أهزُّ الحمولة كلها في الهواء. لكنَّ سائق عربة أجرة أحمق، يقف خارج حانة، اندفع فجأة نحو الحمولة، وأصابتني أصابعه الممتدة بعنفٍ تحت أذني. تركتُ الحمولة تسقط محطَّمة على سائق عربة الأجرة. ومع الصيحات ووقع الأقدام حولي، وخروج الناس من المحلات التجارية، وتوقف المركبات، أدركتُ ما فعلته، ولعنتُ حماقتي، ثم وقفتُ مستندًا إلى نافذة متجرٍ تفاديًا للارتباك الحادث. قد أجد نفسي، خلال لحظة، محشورًا بين حشد الناس، وحتمًا سيكتشفون أمري. دفعني صبي جزارٍ، لم يستدر لحسن الحظ لرؤية اللا شيء الذي دفعه جانبًا، وتسلَّلتُ خلف العجلات الأربع لسيارة الأجرة. لا أعرف كيف انتهى الأمر. أسرعتُ مباشرة عبر الطريق، الذي كان خاليًا لحسن الحظ، وعرفتُ بالكاد الطريق الذي اتخذه. ومع شعوري بالخوف من الانكشاف، نتيجة الحادث، وجدتُ نفسي في زحام شارع أكسفورد في فترة بعد الظهر.

«حاولتُ الدخول إلى هذا التيار من الناس، لكنَّه كان كثيفًا جدًّا بالنسبة لي. وفي لحظة، هناك من داس على قدمي. أصبحتُ في حالة يُرثى لها؛ مع ألمٍ شديدٍ في قدمي، وبعده مباشرة أُصيب أسفل عظم كتفي بضربة من عمود عربة تجرها الخيول. ولا زلتُ أذكر إصابتي بالفعل بكدماتٍ شديدة. ترنَّحتُ مبتعدًا عن عربة الأجرة، وتحركتُ متشنجًا لأتجنب التجوال، فوجدتُ نفسي خلف العربة التي تجرُّها الخيول. أنقذني حظي السعيد. سرتُ في أعقاب العربة، التي كانت

تتحرك ببطءٍ. كنتُ مرتعدًا ومندهشًا من هذا التحوُّل في مغامرتي. لم أكن مرتعدًا فحسب، وإنما كنتُ أرتعش أيضًا. كان يومًا مشرقًا من أيام شهر يناير، وكنت عاريًا تمامًا، كما كان الوحل الطيني الرقيق الذي يغطي الطريق متجمدًا. ومن حماقتي، التي تبدو لي الآن، أنّني لم أضع في حسباني أنَّني أتأثر بالطقس وتقلباته، سواء كنتُ خفيًّا أو مرئيًّا.

«ثم فجأة تبادرت إلى ذهني فكرة رائعة. ركضتُ حول العربة وركبتُ في الكابينة. وهكذا، سارت العربة ببطءٍ على طول شارع أكسفورد، مرورًا بطريق توتنهام كورت؛ وأنا أرتجف، وخائف، وأنفي توحي ببدايات إصابة برد، وكدمات في ظهري تثير انتباهي من شدة الألم. اختلف مِزاجي عن تلك الحالة التي عشتها قبل عشر دقائق، كما يمكن أن تتخيل. يا لهذا الخفاء، حقًّا! تملكتني فكرة وحيدة: كيف أخرج من هذه الورطة.

«مررنا بمكتبة مودي[٥]. أشارت امرأة طويلة القامة، تحمل خمسة أو ستة كتب صفراء، إلى العربة التي أركبها؛ قفزتُ في الوقت المناسب لأتجنَّبها، ونجوتُ بصعوبة من شاحنة سكة حديد خلال رحلتي. خرجتُ من الطريق إلى ساحة بلومزبري، منتويًا التوجه شمالًا بعد المتحف، وبالتالي أدخل إلى المنطقة الهادئة. شعرتُ ببرودة قاسية، وأزعجتني غرابة وضعي لدرجة أنَّني كنتُ أتذمَّر أثناء ركضي. رأيتُ، في الزاوية الشمالية من الساحة، كلبًا صغيرًا أبيض يخرج راكضًا من مكاتب جمعية الصيدلة. اقترب مني خافضًا أنفه.

(٥) المكتبة التي افتتحها الناشر الإنجليزي تشارلز إدوارد مودي في لندن – المترجمة

«لم أدرك من قبل أنَّ الأنف بالنسبة لعقل الكلب تماثل العين في عقل رجلٍ مبصرٍ. تدرك الكلاب رائحة رجلٍ يتحرَّك، بمثل ما يدرك الرجل بصره. بدأ الكلب ينبح ويقفز، موضحًا، كما تصورت، أنَّه يعلم بوجودي. عبرتُ شارع جريت راسل، ثم ألقيتُ نظرة خاطفة من فوق كتفي وواصلتُ سيري على طول شارع مونتاج قبل أن أدرك ما أتوجه نحوه.

«تبينتُ الآن صخب الموسيقى. نظرتُ على طول الشارع، ورأيتُ عددًا من الأشخاص يتقدَّمون من ساحة راسل، يرتدون القمصان الحمراء، ويحملون راية جيش الخلاص. لم أكن أود اختراق مثل هذا الحشد، الذي يسير هاتفًا في الطريق ومتهكمًا فوق الرصيف. وخوفًا من التراجع والابتعاد عن المنزل مرة أخرى، اتخذتُ قراري في لحظة: ركضتُ حتى السلالم البيضاء لمنزل يواجه سور المتحف، ووقفتُ هناك إلى أن يمرَّ الحشد. ولحسن الحظ توقَّف الكلب أمام ضجيج المجموعة أيضًا، تردَّد، وهزَّ ذيله، ثم عاد إلى ساحة بلومزبري مرة أخرى.

«وصلت المجموعة وهي تصيح بسخرية ودون وعي بترنيمة: «متى نرى وجهه؟». بدا لي وقتًا لا نهاية له قبل أن تنجرف موجة الحشد على طول الرصيف بجواري. بوم، بوم، بوم – وصل معهم صوت الطبل برنينٍ اهتزازي. وفي تلك اللحظة، لم أرَ ولدين صغيرين يقفان عند السور بجواري. قال أحدهم: «انظر». رد الثاني: «انظر إلى ماذا؟». «لماذا آثار أقدامهم عارية. مثلما يحدث عندما تسير حافيًا على الطين».

«نظرت إلى الأسفل، ورأيت الصغار يتوقفون ويتباعدون عند العلامات الموحلة التي تركتها خلفي على السلالم المدهونة حديثًا باللون الأبيض. اصطدم بهم المارة نتيجة التزاحم، مما أدى إلى توقف حيرتهم. «بوم، بوم، بوم، متى نرى، بوم، وجهه، بوم، بوم». قال شخصٌ: «يوجد رجلٌ صعد السلم حافيًا، وإلَّا قولوا إنَّني لا أعرف شيئًا. وهو لن ينزل مرة أخرى. وكانت قدمه تنزف».

«مرَّت بالفعل جمهرة الحشد. «انظر هناك، يا تيد»، قال أصغر الولدين، بحِدة من المفاجأة في صوته، وهو يشير مباشرة إلى قدمي. نظرت إلى أسفل ورأيت على الفور خطًّا ضعيفًا يحدد موقع قدمي في بقع من الطين. أصابني الشلل للحظة.

«لماذا، هذا غريبٌ»، قال الولد الأكبر. «خطٌّ غريبٌ متقطعٌ! مثل شبح القدم، أليس كذلك؟». تردَّد وتقدَّم بيدٍ ممدودة. توقَّف رجلٌ ليرى ما الذي يمسك به. ثم توقفت فتاة. كان على وشك أن يلمسني في لحظة أخرى، ولذا قررت ما أفعله. تحركت خطوة، وتعجَّب الصبي مرة أخرى، ثم تأرجحت بحركة سريعة نحو رواق المنزل التالي. لكن الصبي الأصغر كان حاد العينين بما يكفي لمتابعة الحركة. وقبل أن أنزل السلم وأضع قدمي على الرصيف، كان قد تعافى من دهشته اللحظية وأخذ يصرخ قائلًا إنَّ القدمين قد مرَّتا من فوق السور.

«اندفعوا في المكان، ورأوا الآثار الجديدة لقدمي تظهر على الدرجة السفلى من السلم، ثم على الرصيف. «ما الأمر؟» سأل شخصٌ. «أقدام! انظر! أقدام تركض!».

«كان الجميع في الشارع يتدفقون خلف جيش الخلاص، باستثناء مطاردي الثلاثة. وهذا الموقف لم يعيقني فحسب، بل أعاقهم أيضًا. بدأتْ دوامة من الدهشة والاستفسار. طرحتُ شابًّا أرضًا كي أمر، وفي لحظة أخرى كنتُ أسرع حول ساحة راسل، مع ستة أو سبعة أشخاصٍ مندهشين يتبعون آثار أقدامي. لا وقت للتفسير، وإلَّا لكان الحشد بأكمله يلاحقني.

«دُرتُ مرتين حول النواصي المستديرة، وعبرتُ الطريق ثلاث مرات، ثم عدتُ إلى مساراتي. وعندما أصبحتْ قدماي ساخنتين وجافتين، بدأتْ آثارها الرطبة تتلاشى. وصلتُ أخيرًا إلى مساحة يمكنني فيها أن أتوقَّف وأتنفَّس. نظفتُ قدمي بيدي، وهكذا أفلتُ تمامًا. آخر ما رأيته في المطاردة كان مجموعة صغيرة من اثني عشر شخصًا ربَّما، يدرسون بحيرة لا نهائية أثر قدمٍ، جفَّ ببطءٍ، نتج عن بركة في ساحة تافيستوك. أثر قدمٍ معزولٍ وغير مفهومٍ بالنسبة لهم، مثل اكتشاف كروزو المنفرد.

«أدفأني هذا الركض إلى حدٍّ ما، وواصلتُ طريقي بقدرٍ أكبر من الشجاعة عبر متاهة الطرق الأقل التفافًا التي تمتدُّ هنا. أصبح ظهري أكثر تصلُّبًا وتقرُّحًا، وشعرتُ بألمٍ في لوزتيْ حلقي من جرَّاء أصابع سائق عربة الأجرة، فضلًا عن خدش بشرة رقبتي من أظافره. كما كان ألم قدمي شديدًا، وكنت أعرُج من جرحٍ بسيطٍ في إحدى القدمين. رأيتُ في الوقت المناسب رجلًا أعمى يقترب مني. هربتُ منه وأنا أعرُج، لأنَّني خشيتُ حدسه الخفي. اصطدمتُ بالناس مرَّة أو مرتين، وتركتهم

مندهشين مع سماعهم لعناتٍ لا يقدرون على تفسيرها. ثم جاء شيءٌ صامتٌ وهادئٌ أمام وجهي، وعبر الساحة سقط حجابٌ رفيعٌ من رقائق الثلج المتساقطة ببطءٍ. أصابتني نزلة بردٍ، وحاولتُ قدر استطاعتي أن أتجنَّب العطس، لكنَّني لم أنجح أحيانًا. كان كلُّ كلبٍ يظهر أمامي، بأنفه الممتدَّة وتشمُّمه الغريب، يمثِّل رعبًا لي.

«جاء رجالٌ وفتيانٌ يركضون، ظهر الأوَّل ثم تبِعه الآخرون. كانوا يصرخون وهم يركضون؛ فقد اندلع حريقٌ. كانوا يركضون في اتجاه مسكني. نظرتُ إلى الوراء في الشارع، ورأيتُ كتلة من الدخان الأسود تتدفَّق فوق الأسقف وأسلاك الهاتف. كان مسكني يحترق، وملابسي، وجهازي، كل مواردي في الواقع، ما عدا دفتر الشيكات ودفاتر مذكراتي الثلاثة التي تنتظرني في شارع جريت بورتلاند العظيم، الحريق! لقد أحرقتُ قواربي، إن كان قد فعلها رجلٌ من قبل! كان المكان يحترق».

توقَّف الرجل الخفي وأخذ يفكر. نظر كيمب بعصبية من النافذة، ثم قال: «ماذا؟ واصِل حديثَكَ».

الفصل الثاني والعشرون

في المركز التجاري

«كان الوقت شهر يناير الماضي، وتحيط بي بداية عاصفة ثلجية يمكن أن تكشف أمري إذا سقطتْ فوقي. كنتُ متعبًا، وأشعر ببردٍ وألمٍ وبؤسٍ يصعب التعبير عنه. ومع ذلك، بدأتُ هذه الحياة الجديدة وأنا شبه مقتنع بميزة الخفاء. لم يكن لديَّ مأوى، ولا أجهزة، ولا إنسان في العالم يمكنني أن أثق به.

«كان البوح بسرِّي يمكن أن يسفر عن نتائج سيئة؛ ربما يجعلني مجرد شخصٍ يتمتَّع بميزة نادرة يقدِّم عرضًا. ومع ذلك، فكرت بنصف عقلٍ أن أبادر بالحديث إلى أحد المارة وأطلب الرحمة. لكنَّني أعرف بوضوحٍ تامٍّ الرعب والقسوة الوحشية التي قد يثيرها ذلك. لم أفكِّر في أيِّ خططٍ وأنا في الشارع؛ بل كان هدفي الوحيد هو الحصول على مأوى من الثلج، والحصول على غطاءٍ ودفءٍ، وبعدها يمكنني أن آمل في التخطيط. وإنَّما حتى بالنسبة لي، كرجلٍ خفيٍّ، كانت صفوف المنازل في لندن مغلقة، وذات حواجز حديدية، وموصدة بشكلٍ منيعٍ.

«شيءٌ واحدٌ فقط كان يمكنني رؤيته بوضوحٍ أمامي: مواجهة البرد والبؤس، من جرَّاء العاصفة الثلجية والليل.

«ثم خطرتْ لي فكرة رائعة. سلكتُ إحدى الطرق المؤدية من شارع جوفر إلى طريق توتنهام كورت، ووجدتُ نفسي أمام مركز أومنيوم التجاري؛ تلك المؤسسة الكبيرة التي يمكنكَ شراء كل شيء منها، أنت تعرف المكان: اللحوم، والبقالة، والكِتان، والأثاث، والملابس، وحتى اللوحات الزيتية، إنَّه مجموعة ضخمة من المحلات التجارية وليس مجرد متجرٍ. تصوَّرت أن أجد الأبواب مفتوحة، لكنها كانت مغلقة. وبينما أقف في مدخله الواسع توقَّفت عربة في الخارج، ونزل منها رجلٌ يرتدي الزي الرسمي، أنتَ تعرف نوع الشخصية التي ترتدي قبعة عليها علامة أومنيوم، وفتح الباب. تدبرتُ الدخول، ومشيتُ في المحل. كنتُ في القسم الذي يبيعون فيه شرائط، وقفازات، وجوارب وهذا النوع من الأشياء. ثم وصلتُ إلى مساحة أكثر اتساعًا، مكرَّسة لبيع سِلال النزهة، والأثاث المصنوع من الخوص.

«ومع ذلك، لم أشعر بالأمان هناك؛ فالناس يتحركون جيئة وذهابًا. تجوَّلتُ بقلقٍ حتى وصلتُ إلى قسمٍ ضخمٍ في الطابق العلوي، يضم العديدَ من المفروشات، تسلَّقتُ فوقها، ووجدتُ أخيرًا مكانًا للراحة بين كومة ضخمة من المراتب المطوية. كان المكان مضاءً بالفعل، ودافئًا إلى حدٍّ كبيرٍ. قررتُ البقاء في مكاني، وأن أراقب بحذرٍ مجموعتين أو ثلاثة من رجال المتجر والعملاء الذين يتجوَّلون في المكان إلى أن يجيء وقت الإغلاق. عندها سأتمكَّن من سرقة المكان؛ للحصول

على الطعام، والملابس، والتنكُّر. يمكنني أيضًا التجوُّل في المكان ومعرفة موارده، وربما النوم على فراشٍ ما. وبدتْ هذه خطة مقبولة. كانت فكرتي هي شراء ملابس تجعلني شخصية مضمدة ولكن مقبولة، فضلًا عن الحصول على نقودٍ؛ ومن ثمَّ استرداد دفاتري وطرودي التي تنتظرني، وأن أجد مسكنًا في مكانٍ ما، وأضع الخطط اللازمة لتحقيق كاملٍ للمزايا التي منحتني إياها التخفِّي على زملائي الرجال (كما كنتُ لا أزال أتخيَّل).

«سرعان ما حلَّ وقت الإغلاق. لم يكن قد مرَّ أكثر من ساعة بعد أن اتخذت موقعي فوق المراتب، لاحظتُ بعدها إسدال ستائر النوافذ وحركة الزبائن نحو الباب. ثم بدأ عددٌ من الشباب النشط يُعيد ببراعة ترتيب السلع. تركتُ مخبأي، مع تناقص الحشود، وتوجهتُ بحذرٍ إلى الأجزاء الأقل ازدحامًا من المحل. فوجئتُ حقًّا لرؤية مدى سرعة الشباب والشابات في ترتيب السلع المعروضة للبيع خلال النهار. كانوا يقومون بربط وطي وترتيب جميع صناديق السلع، والأقمشة المُعلقة، وأكاليل الدانتيل، وعلب الحلويات في قسم البقالة، والمعروضات من هذا وذاك؛ وكانوا يغطون كلَّ ما لا يمكن إنزاله بنسيجٍ خشنٍ. وفي النهاية، وضعوا جميع الكراسي بطريقة مقلوبة فوق المناضد، بحيث أصبحت الأرضية خالية. وبمجرد انتهاء هؤلاء الشباب من عملهم، توجهوا مباشرة نحو الباب بحيوية نادرًا ما رأيتها لدى أي مساعد في متجرٍ من قبل. ثم جاء الكثير من الشباب، ينثرون نشارة الخشب ويحملون الدلاء والمكانس. اضطررتُ للتسلُّل لأجد طريقي إلى

الخارج، وتعرَّض كاحلي لبعض الإصابات من جرَّاء نشارة الخشب. تجوَّلتُ قليلًا في الأقسام التي انتهوا من تنظيفها وأغلقوا أنوارها، وكنتُ أسمع صوت المكانس في الأقسام الأخرى. وأخيرًا، بعد ساعة أو أكثر من إغلاق المحل، بدأ ضجيج إغلاق الأبواب. ساد الصمت في المكان، ووجدتني أتجوَّل بمفردي بين المتاجر الواسعة، والأروقة، وصالات العرض في المكان. السكون شديدٌ. تذكرتُ في أحد الأماكن مروري بالقرب من أحد مداخل طريق توتنهام كورت، وسمع أصوات وقع أقدام المارة.

«كانت زيارتي الأولى إلى المكان الذي رأيتُ فيه جوارب وقفازات للبيع. كان الظلام حالكًا، وأخذتُ أبحث عن علبة أعواد ثقاب، ووجدتها أخيرًا في أحد أدراج مكتبٍ للنقود الصغيرة. كان يجب أن أجد شمعة؛ اضطررت إلى فكِّ بعض الأغلفة والبحث في عددٍ من الصناديق والأدراج، وتمكَّنتُ أخيرًا من إيجاد ما أبحث عنه. حمل ملصق أحد الصناديق عبارة ملابس داخلية من الصوف؛ ثم وجدتُ الجوارب، ووشاحًا سميكًا. ذهبتُ بعد ذلك إلى قسم الملابس وحصلتُ على بنطلون، وسترة، ومعطفٍ، وقبعة ذات حافة واسعة مرنة من النوع الكهنوتي وذات حافة مقلوبة. بدأتُ أشعر أنَّني إنسانٌ مرة أخرى. اتجه فكري الآن إلى الطعام.

«عثرتُ على قسم المرطبات في الطابق العلوي، وهناك تناولتُ اللحم البارد. كانت القهوة لا تزال في الوعاء المعدني؛ فأشعلتُ الغاز وسخنتها، ولم يكن أدائي سيئًا. تجوَّلت بعد ذلك في المكان بحثًا عن

بطانيات، واضطررتُ إلى البحث في كومة من الألحفة. ثم وصلتُ إلى قسم البقالة؛ حيث الكثير من الشوكولاتة والفواكه المسكرة، أكثر مما أحتاج في الواقع، فضلًا عن نبيذ البورجوندي الأبيض. ووجدتُ على مسافة قريبة قسم اللعب، وهنا واتتني فكرة رائعة. وجدتُ بعض الأنوف الاصطناعية/ أنوف وهمية، كما تعلم؛ وفكرت في النظارات القاتمة، لكنَّ محلات الأومنيوم لم يكن لديها قسمٌ للبصريات. كان أنفي مشكلة بالفعل؛ فكرت في طلائه. لكن الاكتشاف جعل ذهني يتجه نحو الشعر المستعار والأقنعة وما شابه. وأخيرًا ذهبت إلى النوم في كومة من الألحفة، دافئة ومريحة للغاية.

«كانت أفكاري الأخيرة قبل النوم هي الأكثر قبولًا منذ حدوث التغيير. كنتُ في حالة من الصفاء الجسدي، وانعكس ذلك على ذهني. تصوَّرتُ أنَّ بمقدوري التسلُّل دون مراقبة في الصباح وأنا أرتدي هذه الملابس، وأضع على وجهي ضمادات بيضاء أشتريها بالنقود التي أخذتها، فضلًا عن النظارة وغيرها حتى يكتمل تنكُّري. غرقتُ في أحلامٍ مشوَّشة عن كلِّ الأشياء الغريبة التي حدثت خلال الأيام القليلة الماضية. رأيتُ مالك العقار اليهودي الصغير القبيح وهو يصرخ في الغرفة؛ ورأيتُ ولديه في حالة تعجُّبٍ، ووجه المرأة العجوز المتجعد وهي تسأل عن قطها. اختبرت مرة أخرى الإحساس الغريب برؤية القماش يختفي، ثم رأيتني عند سفح التل العاصف ورجل الدين العجوز يتشمَّم ويتمتم: «من الأرض إلى الأرض، ومن التراب إلى التراب، ومن الرماد إلى الرماد» عند قبر والدي المفتوح.

«ثم قال صوتٌ «أنت أيضًا»، وفجأة دُفِعت نحو القبر. كافحتُ وصرختُ وناشدتُ المُشيِّعين، لكنَّهم استمروا في متابعة القداس. والقسيس العجوز، أيضًا، لم يتلعثم أبدًا ولم يكف عن التشمُّم خلال الطقوس. أدركتُ أنَّني غير مرئي وغير مسموعٍ، وأنَّ قوى ساحقة كانت تسيطر عليَّ. كافحتُ عبثًا، ودُفِعت إلى حافة الحفرة. أصدر التابوت صوتَ رنينٍ أجوف عندما سقطتُ فوقه، وتطاير الحصى فوقي بكمية كبيرة. لم ينتبه إليَّ أحدٌ، لم يكن أحدٌ يعلم بي. دخلتُ في صراعاتٍ متشنجة، ثم استيقظت.

«بزغ فجر لندن الشاحب، وامتلأ المكان بضوءٍ رماديٍّ باردٍ يتدفَّق حول حواف ستائر النوافذ. جلستُ، وبقيتُ لفترة غير قادرٍ على التفكير في هذه الشقة الفسيحة، أين تقع، بطاولاتها، وأكوامِها من الأشياء الملفوفة، وكومة الألحفة والوسائد، والأعمدة الحديدية. ثم بدأتُ استعيد ذاكرتي، وسمعتُ أصواتًا تتحدث.

«ثم رأيتُ عن بُعدٍ في المكان، في ضوءٍ أكثر سطوعًا في قسم رُفِعت ستائره بالفعل، رجلين يقتربان. نهضتُ على قدمي، وبحثتُ حولي عن طريقة ما للهروب. لكنَّ صوت حركتي جعلهما يدركان وجودي. أعتقد أنَّهم رأوا مجرد شخصٍ يتحرك بهدوءٍ، ويبتعد بسرعة. «من هناك؟»، صاح أحدهما. ثم صاح الآخر: «قِف مكانك!». اندفعتُ نحو ركنٍ، ووجدتني أميل بالكامل –وأنا شخصٌ بلا وجهٍ، لا تنسَ!– على صبيٍّ نحيلٍ في عمر الخامسة عشر. صرخ الصبي، فدفعته ومررتُ من أمامه، ثم توجهتُ إلى ركنٍ آخر، وألهمني حظي السعيد أن ألقي

بنفسي خلف منضدة. وفي اللحظة التالية، مرَّت أقدامٌ، وسمعتُ أصواتًا تصيح: «كلُّ الأيدي تمسك بالأبواب!» وتتساءل ماذا حدث، وتتبادل النصح حول كيفية الإمساك بي.

«استلقيتُ على الأرض خائفًا. ومن الغريب أنَّه لم يخطر ببالي حينذاك أن أخلع ملابسي لأكون خفيًّا. أعتقد أنَّني اتخذتُ قراري للابتعاد عن المكان، وهذا ما سيطر على تصرفاتي. ثم من أسفل المنضدة، سمعتُ صيحة: «ها هو!».

«قفزتُ واقفًا، وأمسكتُ بكرسي المنضدة، وقذفتُ به الأحمق الذي صرخ، ثم استدرتُ متوجهًا إلى ركنٍ آخر، وهرعتُ إلى أعلى السلم. حافظ الرجل على توازنه، وألقى نظرة، ثم صعد السلم مسرعًا خلفي. كان أعلى السلم مكدسًا بالعديد من تلك الأواني ذات الألوان الزاهية – ما هي؟».

قال كيمب: «الأواني الفنيَّة».

«إنَّها هي! الأواني الفنية. حسنًا، استدرتُ عند أعلى درجة في السلم، وتأرجحتُ مستديرًا وأنا ألتقط إحدى تلك الأواني من وسط الكومة وألقي بها على رأسه السخيف، عندما كان يواجهني. سقطتْ كومة الأواني كاملة، وسمعتُ صراخًا وخطواتٍ تركض من جميع الأنحاء. اندفعتُ بجنونٍ إلى قسم المرطبات، ووجدتُ رجلًا في رداءٍ أبيض، مثل الطباخ، شرع في مطاردتي. استدرتُ لمرة أخيرة يائسة، ووجدتني بين المصابيح والصناعات الحديدية. اختبأتُ خلف طاولة البيع في انتظار طباخي. وعندما كان يتسلَّل إلى رأس المطاردة، ألقيتُ

عليه مصباحًا. سقط على الأرض، بينما بقيتُ جاثمًا خلف الطاولة وأنا أخلع ملابسي بأسرع ما يمكن. كان المعطف، والجاكيت، والبنطلون، والحذاء على ما يرام، لكن الصديري الصوفي يلتصق بالرجل مثل الجلد. سمعتُ صوتَ المزيد من الرجال قادمين. كان طباخي مستلقيًا بهدوءٍ على الجانب الآخر من الطاولة، مذهولًا أو خائفًا وعاجزًا عن الكلام؛ فاضطررتُ إلى دفعه مرة أخرى، كأرنبٍ يصطاد من كومة خشبية.

«سمعتُ أحدهم يصيح: «مِن هنا، أيُّها الشرطي!». وجدتُ نفسي في مخزن المراتب ثانية، في نهاية خزائن الملابس. أسرعتُ بينهم، انبطحتُ أرضًا لأتخلَّص من الصديري. ونجحتُ بالفعل بعد أن تلوَّيت كثيرًا، ثم وقفتُ رجلًا حرًّا مرَّة أخرى، لاهثًا وخائفًا، بينما كان الشرطي وثلاثة من رجال المتجر يقتربون من الركن. اندفعوا نحو الصديري والسراويل، وأمسكوا بالبنطلون. قال أحد الشبان: «لقد أسقط ما نهبه. لا بُدَّ أنَّه في مكانٍ ما هنا.

«لكنَّهم لم يجدوني.

«وقفتُ لفترة أشاهدهم وهم يبحثون عني، وألعن سوء حظي لفقداني الملابس. ذهبتُ بعد ذلك إلى قسم المرطبات، وشربتُ القليلَ من الحليب الذي وجدته هناك، ثم جلستُ بجانب المِدفأة أفكر في موقفي.

«جاء عاملان بعد فترة وجيزة، وسمعتُ حديثهما الحماسي الأحمق عمَّا حدث. سمعت رواية مضخَّمة عن عمليات النهب التي

قمتُ بها، وتكهنات أخرى حول مكان وجودي. عُدتُ إلى التخطيط مرة أخرى. كانت الصعوبة الأساسية أمامي، وخاصة الآن بعد أن عرفوا بوجود شخصٍ ما، هي التمكُّن من الحصول على أي شيء من المكان والخروج منه. نزلتُ إلى المخزن لمعرفة ما إذا كانت توجد أي فرصة لتعبئة طردٍ وإرساله. لكنَّني لم أستطع فهم نظام الفحص. ونحو الساعة الحادية عشرة، بعد ذوبان الجليد عند سقوطه، وكان اليوم ألطف وأكثر دفئًا قليلًا من يوم أمس، قررتُ أنَّ مركز إمبوريوم التجاري ميؤوسٌ منه، وخرجتُ مستاءً من رغبتي في النجاح، وليس في ذهني سوى خطط العمل».

الفصل الثالث والعشرون

في دروري لين

قال الرجل الخفي: «أظنُّ أنَّكَ بدأتَ تدرك الآن مجمل ظروفي الصعبة. كنتُ بلا مأوى وبلا غطاءٍ؛ ويعني الحصول على الملابس أن أتخلَّى عن كلِّ ما لديَّ من ميزة، وأجعل من نفسي شيئًا غريبًا ورهيبًا. كنتُ أصوم. ذلك أنَّني كي أتناول الطعام، وأمتلئ بمادة غير مهضومة، سيجعلني أصبح مرئيًّا مرة أخرى بصورة بشعة».

قال كيمب: «لم أفكر في ذلك أبدًا».

«ولا أنا. وحذَّرني الثلج من مخاطر أخرى. لا يمكنني الخروج خلال تساقط الثلوج، لأنَّه يستقر فوقي ويكشفني. المطر، أيضًا، يجعلني مخططًا مائيًّا، سطحًا لامعًا لرجل/ فقاعة. والضباب؛ سوف أصبح مثل فقاعة باهتة في الضباب، مجرد سطحٍ، وميضٍ ضبابي للبشرية. علاوة على ذلك، عندما خرجتُ إلى هواء لندن، تجمَّعتْ الأوساخ حول كاحلي، فضلًا عن تطاير اللطخات والغبار على جلدي. ولذا لم أكن أعرف كم سيستغرق الوقت لأصبح مرئيًّا؛ لكنَّني عرفتُ بوضوحٍ أنَّ الخفاء لا يمكن أن يستمرَّ لفترة طويلة».

«ليس في لندن، على أي حالٍ».

«ذهبتُ إلى الأحياء الفقيرة في اتجاه شارع جريت بورتلاند، ووجدتني في نهاية الشارع الذي كنتُ أسكن فيه. لم أتخذ هذا الطريق، نظرًا لوجود حشدٍ في منتصف الطريق أمام الدخان المتصاعد من أنقاض البيت الذي أحرقته. مشكلتي الأكثر إلحاحًا هي الحصول على ملابس. واحترتُ في ما يمكنني القيام به تجاه وجهي. ثم رأيتُ في إحدى تلك المحلات التجارية الصغيرة التي تبيع أشياءً متنوعة، الصحف، والحلويات، ولعب الأطفال، والأدوات المكتبية، وهدايا عيد الميلاد المتبقية، وهلمَّ جرًّا- مجموعة من الأقنعة والأنوف. أدركتُ أنَّني وجدتُ حلًّا للمشكلة. وعرفتُ مساري على الفور. التفتُّ حولي، لم أعُد بلا هدفٍ. سرتُ بشكلٍ دائريٍّ، لأتجنَّب الطرق المزدحمة، نحو الشوارع الخلفية شمال ستراند. فقد تذكرتُ أنَّ بعض مصممي الأزياء المسرحية لديهم متاجر في تلك المنطقة، وإن لم أتذكر موقعها بالتحديد.

«كان النهار باردًا، مع رياحٍ شديدة في الشوارع المتجهة شمالًا. مشيتُ بسرعة لتجنُّب أي تصادُم. كان كلُّ تقاطع طرقٍ يمثّل خطرًا، فضلًا عن ضرورة الانتباه إلى كلِّ راكبٍ. كنتُ على وشك العبور أعلى شارع بيدفورد، عندما انعطف رجلٌ ناحيتي فجأة وأصبح أمامي، مما أدَّى إلى إلقائي داخل الشارع وكدتُ أسقط تحت عجلات عربة يجرُّها حصانان. اتَّضح أنَّ قائد عربة الأجرة أصيب بسكتة دماغية. أثارت هذه الحادثة أعصابي إلى حدٍّ كبيرٍ، فذهبتُ إلى سوق كوفنت جاردن

وجلستُ لبعض الوقت في ركنٍ هادئ بجوار كشك البنفسج، ألهثُ وأرتجف. اكتشفتُ أنَّني أُصبت بنزلة بردٍ جديدة؛ واضطررتُ للخروج بعد فترة، خشية أن يجذب العطس الانتباه.

«وصلتُ أخيرًا إلى هدفي؛ متجرٍ صغيرٍ متسخٍ، مليء بالذباب، بالقرب من دروري لين، ونافذته مملوءة بملابس مبهرجة، ومجوهرات صورية، وشعرٍ مستعارٍ، ونعالٍ، وعباءات، وصورٍ مسرحية. كان المحل من الطراز القديم، منخفضًا ومظلمًا، ويرتفع فوقه منزلٌ مظلمٌ وكئيبٌ من أربعة طوابق. نظرت عبر النافذة، ولم أرَ أيَّ شخصٍ في الداخل، فدخلت. أدَّى فتح الباب إلى رنين الأجراس في المدخل. تركتُ الباب مفتوحًا، ومشيتُ حول حامل أزياءٍ، وصولًا إلى ركنٍ خلف مرآة طويلة مثبتة في منتصفها بإطارٍ بحيث يمكن إمالتها. لم يأتِ أحدٌ لدقيقة أو نحو ذلك، ثم سمعتُ وقع أقدامٍ ثقيلة تخطو عبر غرفة، وظهر رجلٌ في المحل.

«أصبحتْ خططي الآن واضحة تمامًا. فكرت أن أشقَّ طريقي إلى المنزل، وأختبئ في الطابق العلوي في انتظار فرصتي. وعندما يسود الهدوء، أبحث عن شعرٍ مستعارٍ، وقناعٍ، ونظارة، وملابس؛ ثم أخرج إلى العالم، ربما كشخصية بشعة وإنَّما لا تزال ذات مصداقية. ويمكنني بالطبع سرقة أيِّ أموالٍ متاحة في المنزل.

«كان الرجل الذي دخل المحل للتوِّ قصيرًا، ونحيلًا، ومنحنيًا؛ وحاجباه كثيفان؛ وذراعاه طويلتان؛ وساقاه قصيرتان ومقوَّستان. يبدو أنَّني قاطعتُ وجبة طعامٍ؛ فقد وقف يحدِّق بالمحل حوله بتعبيرٍ عن

التوقُّع. ولذا فوجئ الرجل وغضِب عندما رأى المحل فارغًا. قال: «اللعنة على الأولاد!»، وخرج إلى الشارع باحثًا. دخل مرة أخرى بعد دقيقة، وركل الباب بقدمه بفظاظة، ثم مضى يتمتم مرَّة أخرى إلى باب المنزل.

«تقدَّمت لأتبعه، لكنَّه توقَّف مع ضجيج حركتي. توقَّفتُ أنا أيضًا، وأذهلتني قدرته السمعية. أغلق باب المنزل في وجهي.

«وقفتُ متردِّدًا. وفجأة سمعتُ خطواته السريعة تعود، ثم فتح الباب ثانية. وقف ينظر حول المحل، كأنَّما لا يزال غير راضٍ. تمتم لنفسه، ثم فحص الجزء الخلفي من طاولة المحل، وأطلَّ وراء بعض التجهيزات. وقف متشككًا. كان قد ترك باب المنزل مفتوحًا، فتسلَّلتُ إلى الغرفة الداخلية.

«كانت غرفة صغيرة غريبة، مفروشة بشكلٍ سيِّئ، ويضم أحدُ أركانها عددًا من الأقنعة الكبيرة. كان إفطاره المتأخر على المائدة. شعرتُ باستفزازٍ، يا كيمب، أن أشم رائحة قهوته وأقف أشاهده وهو يأتي ويستأنف وجبته. كانت آداب مائدته مزعجة. تفتح أبواب ثلاثة على الغرفة الصغيرة؛ أحدهما للصعود إلى الطابق العلوي، والثاني للهبوط إلى أسفل، لكنها جميعًا مغلقة. لم أتمكَّن من الخروج من الغرفة طوال وجوده فيها، وبالكاد ما استطعت التحرك بسبب يقظته. شعرت بألمٍ أسفل ظهري، وخنقت عطسة مرتين في الوقت المناسب.

«كانت الجودة المذهلة لأحاسيسي غريبة وجديدة، على أنَّني كنتُ شديد التعب والغضب قبل أن يتناول طعامه بفترة طويلة. لكنَّه انتهى

أخيرًا، ووضع الأواني الفخارية الفقيرة على صينية سوداء من القصدير، التي كان قد وضع عليها إبريق الشاي. جمع كلَّ الفتات بقطعة قماش ملطَّخة بالخردل، ثم أخذ الأشياء كلها معه. حال ما يحمله دون إغلاق الباب خلفه، كما كان يريد. لم أرَ قطُّ مثل هذا الرجل الذي يهتم بإغلاق الأبواب. تبعته إلى قبوٍ يضمُّ مطبخًا وحوضًا للاغتسال، كليهما شديد القذارة. كان من دواعي سروري أن أراه يبدأ في الاستحمام، ولم أجد أيَّ جدوى في البقاء هناك، والأرضية المبلطة بالطوب باردة على قدمي؛ فعُدتُ إلى الطابق العلوي، وجلستُ على كرسيه بجوار المِدفأة. كانت نيران المِدفأة تخبو، ودون أن أفكر أضفتُ بعض الفحم. ظهر الرجل على الفور نتيجة سماعه ضجيج احتراق الفحم، فوقف مندهشًا ينظر في أنحاء الغرفة على مسافة قريبة تمكِّنه من لمسي. وبعد فحصه للغرفة، لم يبدُ راضيًا. توقَّف عند المدخل، وبدأ في تفتيشٍ أخيرٍ قبل أن ينزل.

«انتظرتُ في صالة الاستقبال الصغيرة لفترة طويلة، وأخيرًا جاء وفتح باب الطابق العلوي، وتمكَّنتُ من تتبُّعه.

توقَّف على السلم فجأة، لدرجة أنَّني كدتُ اصطدم به. وقف ينظر إلى الخلف، إلى وجهي مباشرة، ويستمع.. قال: «كان بإمكاني أن أقسم». أمسك شفته السفلى بيده الطويلة المشعرة. وتجوَّلتْ عيناه أعلى وأسفل السلم. ثم أصدر صوتًا كالنخير، وصعد مرة أخرى.

«وضع يده على مقبض الباب، ثم توقَّف مرة أخرى بنفس الحيرة الغاضبة على وجهه. أصبح على دراية بالأصوات الخافتة التي تصدر عن حركتي. لا بُدَّ أنَّ الرجل يتمتَّع بسمعٍ حادٍّ شيطاني. وفجأة استشاط

غضبًا. صاح وهو يُقسِم: «إذا كان هناك أيُّ شخصٍ في هذا البيت...»، وترك التهديد غير مكتملٍ. وضع يده في جيبه، لكنَّه لم يعثر على ما يريد؛ فأسرع متخبطًا، وهو يمرُّ بي، لينزل بشكلٍ عدوانيٍّ إلى الطابق السفلي مُحدِثًا ضجة. لم أتبعه، بل جلستُ عند قمة السلَّم أنتظر عودته.

«صعد مرة أخرى، وهو لا يزال يتمتم، وفتح باب الغرفة. أغلق الباب في وجهي، قبل أن أتمكَّن من الدخول.

«قررتُ استكشاف المنزل، وقمتُ بذلك لفترة دون ضجيجٍ قدر الإمكان. المنزل قديمٌ جدًّا، ومهدمٌ، ورطبٌ؛ حتى إنَّ الورق الملصق على جدران العِلية كان يتقشَّر، فضلًا عن انتشار الفئران. كانت بعض مقابض الأبواب صلبة، لدرجة أنَّني خشيتُ أن أديرها. كما كانت العديد من الغرف التي قمت بتفتيشها مملوءة بأخشاب المسرح، وأدركتُ من مظهرها أنَّها مستعمَلة. وجدتُ في غرفة بجوار غرفته الكثير من الملابس القديمة. بدأتُ أسير بين هذه الأشياء. ونتيجة لشغفي، نسيتُ مرَّة أخرى حدَّة سمعه الواضحة. سمعتُ خطوة تتحرَّك خلسة. وبالنظر إلى أعلى، في الوقت المناسب، رأيته يطلُّ في كومة سقطتْ ويحمل في يده مسدسًا من الطراز القديم. وقفتُ ساكنًا تمامًا، بينما كان يحدِّق وفمه مفتوحٌ ومليءٌ بالشك. قال ببطءٍ: «لا بُدَّ أنَّها هي. عليها اللعنة!

«أغلق الباب بهدوءٍ، وعلى الفور سمعتُ المفتاح يدور في القفل، ثم تراجعتْ خطاه. أدركتُ فجأة أنَّني محبوسٌ. بقيتُ لدقيقة لا أعرف ماذا أفعل. مشيتُ من الباب إلى النافذة والعكس، ثم وقفتُ في حيرة. انتابتني عاصفةٌ من الغضب، لكنَّني قررتُ تفتيش الملابس قبل القيام

بأي شيءٍ آخر. أسفرتْ أولى محاولاتي عن سقوط كومة من الرفِّ العلوي. هذا أعاده ثانية، أكثر شرًّا من ذي قبل. عندئذٍ لمسني بالفعل. قفز إلى الخلف مندهشًا، ووقف في وسط الغرفة مذهولًا.

«هدأ قليلًا الآن. قال بصوتٍ خافتٍ، وأصابعه على شفتيه: «إنَّها الجرذان». من الواضح أنَّه كان خائفًا قليلًا. خرجتُ من الغرفة بهدوءٍ، لكنَّ صريرًا صدر عن لوحٍ خشبيٍّ. ثم بدأ الوحش الجهنمي الصغير يتحرَّك في أنحاء المنزل كافة، والمسدس في يده، ويغلق الأبواب واحدًا تِلْوَ الآخر ويضع المفاتيح في جيبه. عندما أدركتُ ما يرمي إليه، أصابتني نوبة الغضب. تمكَّنتُ بالكاد من السيطرة على نفسي لأجد فرصة ملاءمة. أدركتُ حينذاك أنَّه بمفرده في المنزل، ولذا حاولتُ عدم إثارة أي ضجة، وضربته على رأسه».

صاح كيمب: «ضربته على رأسه؟».

«نعم، أذهلته، بينما كان ينزل إلى الطابق السفلي. ضربته من الخلف بمقعدٍ على مدخل السلم، ووقع إلى الطابق السفلي مثل كيسٍ من الأحذية القديمة».

«ولكن.. أقول! إنَّ الأعراف المشتركة بين البشر...».

«كلها جيِّدة جدًّا لعامة الناس. لكن هدفي، يا كيمب، كان الخروج من هذا المنزل متنكِّرًا، دون أن يراني. لم أتمكَّن من التفكير في أيِّ طريقة أخرى لتحقيق ذلك. قمتُ بعد ذلك بتكميم فمه بسترة لويس الرابع عشر، مع لفِّه بملاءة».

«لفقته بملاءة!».

«صنعتُ نوعًا من الكيس. كانت فكرة جيدة لإبقاء هذا الأبله خائفًا وهادئًا، كما أنَّها شيءٌ شيطانيٌّ يصعب الخروج منها، ورأسه بعيدٌ عن الخيط. عزيزي كيمب، ليس من الجيِّد أن تجلس غاضبًا كأنَّني قاتلٌ. كان يجب أن أفعل ذلك؛ فلديه مسدسه، كما أنَّه لو رآني مرة واحدة، يمكنه أن يقدم أوصافي...».

قال كيمب: «مع ذلك، نحن في إنجلترا اليوم. والرجل كان في منزله، وأنتَ كنتَ، حسنًا، تسرق».

«أسرق! أنتَ تخلط بين الأمور! ستدعونني باللص بعد ذلك! بالتأكيد يا كيمب أنتَ لستَ بالأحمق الذي يرقص على الأوتار القديمة. ألا يمكنك رؤية موقفي؟».

قال كيمب: «وموقفه أيضًا».

وقف الرجل الخفي بحدَّة قائلًا: «ماذا تقصد بقولِكَ؟».

تصلَّب وجه كيمب قليلًا. كان على وشك التحدُّث، لكنَّه تراجع؛ ثم قال بتغييرٍ مفاجئٍ في أسلوبه: «أعتقد أنَّك اضطررتَ إلى القيام بذلك، فقد كنتَ في مأزقٍ. ومع ذلك...».

«بالطبع كنتُ في مأزقٍ، مأزقٍ جهنمي. وقد جعلني متوحشًا أيضًا؛ يطاردني في أنحاء المنزل، ويتلاعب بمسدسه، ويغلق الأبواب ويفتحها. كان ببساطة مستفِزًا، وأنتَ لا تلومني. أليس كذلك؟ أنتَ لا تلومني؟».

قال كيمب: «أنا لا ألوم أحدًا أبدًا. إنَّه أمرٌ عفا عليه الزمن. ماذا فعلتَ بعد ذلك؟».

«كنتُ جائعًا. وجدتُ في الطابق السفلي رغيفًا وبعض أنواع الجبن، أكثر مما يكفي لسد جوعي. أخذتُ بعض البراندي والماء، ثم صعدتُ متجاوزًا الرجل في الكيس، حيث كان مستلقيًا على الأرض. ذهبتُ إلى الغرفة التي تحتوي على الملابس القديمة. تطلُّ تلك الغرفة على الشارع، ونافذتها مغطاة بستارتين من الدانتيل البني، فضلًا عن التراب. نظرتُ من خلال الفجوات بين الستارتين. كان اليوم مشرقًا، مشرقًا بشكلٍ مذهلٍ، على عكس الظلال البنية في ذلك المنزل الكئيب الذي وجدتُ نفسي فيه. رأيتُ حركة المرور السريعة، عربات فاكهة، العربات التي تجرها الأحصنة، العربات ذات العجلات الأربع ومحمَّلة بكومة من الصناديق، عربة بائع سمك. استدرتُ، ولا زالت بقعٌ ملونة تسبح أمام عيني في مواجهة المظهر المظلل داخل الغرفة. كان حماسي يفسح المجال لتوجُّسٍ واضحٍ من وضعي مرة أخرى. امتلأتْ الغرفة برائحة باهتة من البنزولين، الذي أظن أنه يُستخدم في تنظيف الملابس.

«بدأتُ عملية بحثٍ منهجية في المكان. يجب أن أكوِّن رأيًا حول هذا الرجل الأحدب الذي يعيش وحيدًا في المنزل منذ فترة. كان شخصًا فضوليًّا. جمعتُ من مخزن الملابس كلَّ شيء من المحتمل أن يفيدني، ثم قمتُ باختيارٍ متأنٍ. وجدتُ حقيبة يدٍ مناسبة، وبعض البودرة، أحمر الشفاه، وضمادات لاصقة.

«فكرتُ في طلاء وجهي وكلَّ ما يمكن أن يظهر مني بالبودرة، حتى أصبح مرئيًّا. لكن عيب هذه الفكرة يكمن في ضرورة حصولي على زيت التربنتين، وأجهزة أخرى، وقدرٍ كبيرٍ من الوقت، قبل أن أتمكَّن من الاختفاء مرة أخرى. وأخيرًا، اخترتُ قناعًا من أفضل نوعٍ. قناعًا بشعًا قليلًا، لكنَّه ليس أبشع من العديد من البشر. اخترتُ أيضًا نظَّارة داكنة، وسوالف رمادية، وشعرًا مستعارًا. لم أجد أي ملابس داخلية، لكنْ بإمكاني شراؤها في وقتٍ لاحقٍ. ولففتُ نفسي بشرائط من القماش القطني، وبعض الأوشحة من الكشمير الأبيض. لم أجد جوارب، لكنَّ حذاء الأحدب كان واسعًا وكافيًا. وجدتُ في المكتب بالمحل ثلاثة جنيهات ذهبية وقرابة ثلاثين شلنًا من الفضة. كما وجدتُ في خزانة مقفلة، فتحتها في الغرفة الداخلية، ثمانية جنيهات من الذهب. أصبح بإمكاني الآن الخروج إلى العالم مرة أخرى، مُجهزًا.

«ثم شعرتُ بتردُّدٍ غريبٍ. هل يتَّسم مظهري بالمصداقية حقًّا؟ نظرتُ إلى نفسي في مرآة صغيرة في غرفة النوم، وفحصتُ مظهري من كل الجوانب لاكتشاف أي ثغرة منسية، لكن كل شيء بدا سليمًا. كنتُ بشعًا على مستوى خشبة المسرح -البخيل على المسرح- لكنني بالتأكيد لم أكن استحالة جسدية. استعدتُ الثقة، وأخذتُ المرآة معي إلى المحل، وأغلقتُ ستائره، وفحصتُ نفسي ثانية من جميع الجوانب من خلال المرآة الطويلة القابلة للإمالة الموجودة عند الركن.

«قضيتُ بضع دقائق لاستجماع شجاعتي، ثم فتحتُ باب المحل وخرجتُ إلى الشارع، تاركًا الرجل الصغير يخرج من ملاءته مرة أخرى

عندما يريد. سرتُ لخمس دقائق في عشرات المنعطفات لأبتعد عن متجر الأزياء المسرحية. ولم يلاحظني أحدٌ بشكلٍ واضحٍ. وهكذا، بدا أنَّني تغلبتُ على آخر صعوبة».

توقَّف عن الحديث ثانية.

قال كيمب: «وأنتَ، ألم يقلقك وضع الأحدب؟».

أجاب الرجل الخفي: «لا. ولم أسمع ماذا حدث له. أعتقد أنَّه فكَّ قيوده، أو تمكَّن من تخليص نفسه. فالقيد كان ضيقًا».

صمتُ، وذهب إلى النافذة محدِّقًا.

«ماذا حدث عندما خرجتَ إلى شارع ستراند؟».

«أوه! خيبة الأمل مرة أخرى. تصوَّرتُ أنَّ مشاكلي انتهت، وأنَّ لديَّ حصانةً لأفعل كلَّ ما أريد؛ كلَّ شيءٍ، باستثناء التخلي عن سري. هذا ما تصورته. كل ما أفعله، ومهما كانت العواقب، لا يمثِّل شيئًا بالنسبة لي؛ حيث يمكنني ببساطة أن أخلع ملابسي وأختفي. لا يمكن أن يمسك بي أيُّ شخصٍ، ويمكنني أخذ أموالي حيث وجدتها. قررتُ مكافأة نفسي بوليمة فاخرة، والإقامة في فندقٍ جيدٍ، وأجمع مجموعة جديدة من الممتلكات. شعرتُ بثقة مذهلة. ليس شيئًا سارًّا أن أتذكر أنَّني كنتُ حمارًا. ذهبتُ إلى مكانٍ، وبدأتُ أطلب الغداء بالفعل، لكنَّني تذكرتُ عدم قدرتي على تناول الطعام إلَّا إذا كشفتُ وجهي الخفي. انتهيتُ من طلب الغداء، وأخبرتُ الرجل أنَّني سأعود خلال عشر دقائق، وخرجتُ ساخطًا. لا أعرف ما إن كان أملُكَ قد خاب من قبل أمام رغبتك في تناول الطعام».

قال كيمب: «ليس على هذا النحو السيِّئ، لكنَّني أستطيع أن أتخيَّل موقفك».

«كان بإمكاني تحطيم أي شيء أمامي. في النهاية، ونظرًا لشعوري بالضعف واحتياجي إلى طعامٍ جيِّدٍ، ذهبتُ إلى مكانٍ آخر، وطلبتُ غرفة خاصة قائلًا: «أنا مُصابٌ بتشوُّهاتٍ سيئة». نظروا نحوي بغرابة، لكنَّ الأمر بالطبع لا يخصُّهم؛ وهكذا تناولتُ غدائي أخيرًا. لم يكن الطعام جيِّدًا بشكلٍ خاصٍ، لكنَّه كان كافيًا. وبعد أن انتهيت، أخذتُ أدخن سيجارًا، وأحاول وضع خطة. أما في الخارج، فكانت العاصفة الثلجية قد بدأت.

«كلما فكرتُ في الأمر أكثر، يا كيمب، كلما أدركتُ مدى عجز عبثية رجلٍ خفيٍّ، في مناخٍ باردٍ وقذرٍ ومدينة متحضِّرة مزدحمة. كنتُ أحلم بألف ميزة قبل أن أقوم بهذه التجربة المجنونة. لكنَّني شعرتُ بخيبة الأمل بعد ظهر ذلك اليوم. لقد تجاوزتُ قمة الأشياء التي يعتقد الإنسان أنَّها مرغوبة. فمما لا شكَّ فيه أنَّ الخفاء يتيح إمكانية الحصول عليها، لكنَّه يجعل من المستحيل الاستمتاع بها بعد الحصول عليها. الطموح؛ ما فائدة المكانة وأنت لا تستطيع الظهور؟ ما فائدة حب المرأة عندما يتطلَّب الأمر أن يكون اسمها دليلة؟ ليس لديَّ أيُّ اهتمامٍ بالسياسة، ولا بإثارة الفضائح من أجل الشهرة، ولا للأعمال الخيرية، ولا للرياضة. ماذا سأفعل؟ ولهذا أصبحتُ لغزًا ملفوفًا، صورة كاريكاتورية لرجلٍ ملفوفٍ ومضمدٍ!».

توقَّف، وأوحى سلوكه بإلقاء نظرة على النافذة.

سأله كيمب، وهو حريصٌ على إبقاء ضيفه مشغولًا بالحديث: «ولكن كيف وصلتَ إلى إيبينج؟».

«ذهبتُ إلى هناك للعمل. كان لديَّ أملٌ واحدٌ. كانت فكرة غير مكتملة! ولا تزال لديَّ. لكنَّها الآن فكرة كاملة. طريقة للعودة! طريقة لاستعادة ما فعلته. عندما اخترت. عندما فعلتُ كلَّ ما عنيتُ أن أفعله وأنا خفيٌّ. وهذا ما أريد أن أحدثك عنه الآن».

«هل ذهبت إلى إيبينج مباشرة؟».

«نعم. كان يجب ببساطة أن أحصل على دفاتر مذكراتي الثلاثة، ودفتر شيكاتي، وأمتعتي، وثيابي الداخلية، وأن أطلب كمية من المواد الكيميائية للعمل على فكرتي، وسوف أُريكَ الحسابات التي أجريتها بمجرد الحصول على دفاتري. وبعد ذلك بدأتُ. يا إلهي! أتذكر العاصفة الثلجية الآن، ومدى انزعاجي الشديد من أن تؤدي الثلوج المتساقطة إلى الكشف عن أنفي المصنوع من الكرتون».

قال كيمب: «في النهاية، أول أمس، عندما اكتشفوك، فإنَّك، حسب ما ورد في الصحف...».

«ماذا تعني. هل قتلتُ ذلك الشرطي الأحمق؟».

قال كيمب: «لا، من المتوقَّع أن يتعافى».

«هذا حظُّه إذن. لقد فقدتُ أعصابي، يا لهؤلاء الحمقى! لماذا لم يتركوني وشأني؟ وماذا عن ذلك البقَّال الأخرق؟».

قال كيمب: «لا توجد وفيات متوقعة».

«أنا لا أعرف شيئًا عن المتشرِّد الذي رافقني»، قال الرجل الخفي، بضحكة غير سارة.

«يا إلهي، أنت لا تعرف يا كيمب ما هو الغضب! أن تعمل لسنواتٍ، تخطِّط وتُدبِّر، ثم تجد أحمقَ جاهلًا يفسد مسارَكَ! كلُّ مخلوقٍ سخيف يمكنك تصوره، ظهر ليفسد مساري.

«وإذا ظهر آخرون، سأتعامل بوحشية. سوف أقضي عليهم.

«هذا هو الحال؛ فقد جعلوا الأمور أكثر صعوبة ألف مرة».

قال كيمب بجفاءٍ: «لا شكَّ أنَّه أمرٌ يثير السخط».

الفصل الرابع والعشرون

الخطة التي فشلتْ

قال كيمب، وهو يلقي نظرةً جانبية إلى النافذة: «والآن، ماذا علينا أن نفعل؟».

اقترب من ضيفه وهو يتحدَّث بطريقة تمنع من إمكانية إلقاء نظرة مفاجئة على الرجال الثلاثة الذين يتقدَّمون على طريق التل، ببطءٍ لا يُطاق كما بدا لكيمب.

«ماذا كانت خططكَ، عندما كنتَ متجهًا إلى بورت بوردوك؟ هل كانت لديكَ أيُّ خطة؟».

«كنتُ سأخرج من البلد، لكنَّني غيرتُ تلك الخطة منذ أن رأيتكَ. أعتقد من الحكمة التوجه إلى الجنوب، لا سيَّما أنَّ الطقس حارٌ الآن والخفاء ممكنٌ. كما أنَّ سري أصبح معروفًا، وسيبحث الجميع عن رجلٍ ملثَّمٍ ومضمدٍ. يوجد خط بواخر من هنا إلى فرنسا. كانت فكرتي أن أصعد على متن إحداها وأخاطر طوال الطريق. وبعد ذلك يمكنني الذهاب بالقطار إلى إسبانيا، أو إلى الجزائر العاصمة. لن يكون الوضع

صعبًا؛ فهناك يمكن أن أظلَّ خفيًّا، ومع ذلك أعيش وأفعل أشياءً. كنت أستخدم ذلك الصعلوك كصندوق نقودٍ وحامل أمتعة، حتى قررت إرسال دفاتري وأشيائي».

«هذا واضحٌ».

«وبعد ذلك حاول هذا الحيوان القذر سرقتي، ونجح! لقد أخفى دفاتري، يا كيمب، أخفى دفاتري! أريد أن أضع يدي عليه!».

«أفضل خطة هي أخذ الدفاتر منه أولًا».

«ولكن أين هو؟ هل تعرف؟».

«إنَّه في مركز شرطة المدينة، محبوسًا بناءً على طلبه، في أقوى زنزانة هناك».

قال الرجل الخفي: «يا له من خسيسٍ!».

«لكن ذلك يُعلِّق خططك قليلًا».

«يجب أن نحصل على تلك الدفاتر؛ فهي مهمة جدًّا».

«بالتأكيد»، قال كيمب بعصبية، متردِّدًا عمَّا اذا كان سمِع خطواتٍ في الخارج، ثم أضاف: «بالتأكيد يجب أن نحصل على تلك الدفاتر. ولن يكون الأمر صعبًا إذا لم يكن يعرف أنَّها لك».

«لا»، قال الرجل الخفي، وأخذ يفكر.

حاول كيمب التفكير في شيءٍ للحفاظ على استمرار الحديث، لكن الرجل الخفي استأنف من تلقاء نفسه.

قال: «لقد أدَّى وجودي في منزلك، يا كيمب، إلى تغيير كل خططي. لأنَّك رجلٌ يمكنه أن يفهم. وعلى الرغم مما حدث، وعلى الرغم من نشر الموضوع، وفقدان دفاتري، وما عانيته، فلا تزال هناك إمكانياتٌ كبيرة، إمكانياتٌ هائلة».

وفجأة سأل: «أنتَ لم تخبر أحدًا أنَّني هنا؟».

تردَّد كيمب. وقال «كان ذلك ضمنيًّا».

«لا أحد؟»، أصرَّ جريفين.

«لم أخبر أحدًا».

«آه! الآن...»، وقف الرجل الخفي، واضعًا ذراعيه على وركيه ومرفقيه إلى الخارج، وبدأ يتحرَّك في غرفة المكتب.

«أنا أخطأتُ يا كيمب، خطأً فادحًا عند تنفيذ هذا العمل بمفردي. فقد أهدرتُ القوة، والوقت، والفرص. بمفردي؛ يا لقلة ما يستطيع شخصٌ بمفرده القيام به! يسرق قليلًا، يؤذي قليلًا، وهناك نهاية.

«ما أريده يا كيمب هو حارس مرمى، مساعد، ومكان للاختباء؛ وهذا ترتيبٌ يمكنني بواسطته النوم، وتناوُل الطعام، والراحة في سلامٍ، ودون أن يشكَّ فيَّ أحدٌ. أحتاجُ إلى شريكٍ. ومع هذا الشريك، إضافة إلى توفُّر الغذاء والراحة، يصبح ألف شيء ممكنًا.

«مضيتُ حتى الآن عبر خطوطٍ غامضة. علينا أن نضع في حسباننا كلَّ ما يعنيه الخفاء، وكلَّ ما لا يعنيه. وهذا يعني ميزة ضئيلة تتمثَّل في التنصُّت، وهلمَّ جرًّا، فالمرء يصدِر أصواتًا. وهي ميزة لا تساعد كثيرًا،

ربما قليل من المساعدة، عند اقتحام المنزل وما إلى ذلك. بمجرد أن تقبض عليَّ، يمكنك سجني بسهولة. لكنَّني، من ناحية أخرى، يصعب الإمساك بي. يفيد هذا الخفاء، في الواقع، في حالتين فقط: في الابتعاد، وفي الاقتراب. ولذا، فهو مفيدٌ، بشكلٍ خاصٍ، في القتل. يمكنني أن أسير بالقرب من رجلٍ، أيًّا كان السلاح الذي يحمله، ثم أختار لحظةً مناسبةً وأوجِّه ضربتي كما أريد. أتفادى كما أريد، وأهرب كما أريد».

وضع كيمب يده على شاربه. هل كانت هناك حركة في الطابق السفلي؟

«والقتل هو ما علينا القيام به، يا كيمب».

كرَّر كيمب: «والقتل هو ما علينا القيام به.

«أنا أستمع إلى خطتكَ يا جريفين، لكنَّني لا أتفق معك. لماذا القتل؟».

«ليس القتل العمد، وإنَّما القتل الحكيم. النقطة الأساسية هي أنَّهم يعرفون بوجود رجلٍ خفيٍّ، كما نعلم نحن بوجود رجلٍ خفيٍّ. وهذا الرجل الخفي، يا كيمب، يجب أن يؤسِّس الآن عهد الإرهاب. نعم؛ لا شكَّ أنَّه أمرٌ مذهلٌ، لكنَّني أعني ذلك. عهد الإرهاب. يجب أن يبدأ ببلدة، مثل بلدتكَ بوردوك، ويثير فيها الرعب ويهيمن عليها. كما يجب أن يصدر أوامره. ويمكنه تحقيق ذلك بألف طريقة؛ تكفي قصاصاتٍ من الورق تحت الأبواب. ويجب قتل كل من يعصي أوامره، وكلِّ من يدافع عن هؤلاء».

«همم!»، قال كيمب، الذي لم يعُد يستمع إلى جريفين، وإنَّما كان مهتمًّا بصوتِ فتح بابه الأمامي وإغلاقه.

قال كيمب ليغطِّي على تشتُّت انتباهه: «يبدو لي، يا جريفين، أنَّ موقف شريكك سيكون صعبًا».

قال الرجل الخفي بصبرٍ نافدٍ: «لن يعرف أحدٌ أنَّه شريكي». وفجأة قال: «هش! ماذا يحدث في الطابق السفلي؟».

«لا شيء»، قال كيمب، وبدأ فجأة يتحدَّث بصوتٍ عالٍ وسريعٍ. قال: «لا أوافق على ذلك، يا جريفين، عليكَ أن تفهمني. أنا لا أوافق على ذلك. لماذا تحلم بلعب مباراة عكس السباق؟ كيف تأمل في تحقيق السعادة؟ لا تكن ذئبًا وحيدًا. عليكَ أن تنشر النتائج التي توصَّلتُ إليها؛ دعْ العالم، دعْ هذه الأمة على الأقل، تثق بكَ. فكِّر في ما يمكنكَ أن تفعله ومعك مليون مساعد...».

قاطعه الرجل الخفي، وهو يمدُّ ذراعه. وقال بصوتٍ منخفضٍ: «هناك خطواتٌ تصعد إلى الطابق العلوي».

«هراءٌ»، قال كيمب.

قال الرجل الخفي: «اسمح لي أن أرى»، وتقدَّم وذراعه ممتدَّة إلى الباب».

جرت الأحداث بسرعة كبيرة. تردَّد كيمب لثانية، ثم تحرَّك ليعترض طريق الرجل الخفي الذي وقف ساكنًا. «خائنٌ!» صاح الصوت. وفجأة انفكَّت أزرار الثوب، وجلس الرجل الخفي وبدأ يخلع ملابسه. خطا

كيمب ثلاث خطوات سريعة نحو الباب. وعلى الفور اندفع الرجل الخفي، وقد اختفت ساقاه، إلى قدمي كيمب صائحًا. فتح كيمب الباب.

وعندئذٍ، جاء صوتُ وقع أقدامٍ مسرعة أسفل السلَّم، وضوضاء.

دفع كيمب الرجل الخفي مرة أخرى بحركة سريعة، وقفز جانبًا، ثم أغلق الباب. كان المفتاح في الخارج وجاهزًا للغلق. كان يمكن، في لحظة تالية، أن يجد جريفين نفسه حبيسًا بمفرده في غرفة المكتب العلوية، إلَّا أنَّ شيئًا بسيطًا حدث. فقد انزلق المفتاح قليلًا في الصباح، ثم سقط على السجادة عندما أغلق كيمب الباب بشدَّة.

شحب وجه كيمب. حاول الإمساك بمقبض الباب بكلتا يديه، وظلَّ للحظة يجذبه. تمكَّن من فتح الباب ست بوصاتٍ، لكنَّه انغلق ثانية. تمكَّن في المرة الثانية من فتح الباب لمسافة قدمٍ، لكنَّ الثوب الفارغ حشر نفسه في الفتحة. أمسكتْ أصابع خفية برقبته، فترك مقبض الباب للدفاع عن نفسه. أُجبِر على التراجُع، وتعثَّر، ووقع بقوة في ركن بداية السلَّم، والثوب الفارغ مُلقى فوقه.

وصل العقيد آديا إلى منتصف السلَّم، وهو رئيس شرطة بوردوك الذي تلقَّى رسالة كيمب. كان يحدِّق بذهولٍ في ظهور كيمب المفاجئ، ثم مشهد غير عادي لملابس مقوَّسة فارغة في الهواء. رأى كيمب يسقط، ويكافح للوقوف على قدميه. ثم رآه يندفع للأمام، وينخفض مرة أخرى، ويسقط كالثور.

وفجأة تعرَّض لضربة عنيفة، من لا شيء! وبدا أنَّ ثقلًا كبيرًا يقفز فوقه، ويُلقي به أسفل السلَّم وهو قابضٌ على رقبته ويضع ركبته في

فخذه. داست قدمٌ خفية على ظهره، ثم سمِع وقع أقدامٍ شبحية في الطابق السفلي، وضابطي الشرطة في القاعة يصرخان ويهربان، والباب الأمامي للمنزل يُغلق بعنفٍ.

تدحرج على السلَّم ثم جلس محدِّقًا. رأى كيمب يترنَّح أسفل السلم. كان متربًا وأشعثَ، وأحد جانبي وجهه شاحبٌ من جرَّاء ضربة، وشفته تنزف، ويمسك بين ذراعيه بملابس وردية وبعض الملابس الداخلية.

صاح كيمب: «يا إلهي! انتهت اللعبة! لقد رحل!».

الفصل الخامس والعشرون

مطاردة الرجل الخفي

ظلَّ كيمب لفترة غير قادرٍ عن التعبير بدقة وشرح الأمور للعقيد آديا، كي يفهم الأشياء السريعة التي حدثتْ للتوِّ. وقفا عند السلَّم، وكيمب يتحدث بسرعة، وملابس وضمادات جريفين البشعة لا تزال على ذراعه. لكن آديا بدأ يفهم الوضع.

قال كيمب: «إنَّه مجنونٌ، ومجردٌ من الإنسانية، وفي منتهى الأنانية. لا يفكر في شيء سوى مصلحته الخاصة وسلامته. لقد استمعتُ اليوم صباحًا إلى قصته، التي تُعبِّر عن وحشية أنانيته.. لقد أصاب رجالًا بجراحٍ. وسيقتل أيضًا إن لم نتمكَّن من منعه. سوف يثير الذعر، ولن يوقفه أيٌّ شيءٍ. لقد خرج الآن، غاضبًا!».

قال آديا: «يجب القبض عليه، بالتأكيد».

صاح كيمب، والأفكار تتزاحم فجأة في رأسه: «ولكن كيف؟ يجب أن تبدأ في الحال. يجب أن تُصدِر أوامرك لرجالِك للبدء في العمل. يجب أن تمنعه من مغادرة هذه المنطقة؛ فبمجرد أن يهرب، قد يذهب إلى

أيِّ مكانٍ يريد في الريف، ويمارس القتل والتشويه. أقول لك إنَّه يحلم بعهدٍ من الرعب! عهدٍ من الإرهاب. عليكَ مراقبة القطارات، والطرق، والنقل البحري. كما يجب أن تحصل على مساعدة من الجيش. يجب أن ترسل برقية طلبًا للمساعدة. الشيء الوحيد الذي يبقيه هنا هو التفكير في استعادة دفاتر ملاحظاته، التي يهتم بها كثيرًا. سأخبرك عن ذلك! هناك رجلٌ لديكَ في مركز الشرطة، اسمه مارفل».

قال آديا: «أعرف، أعرف. نعم، أعرف عن هذه الدفاتر. لكن ذلك الصعلوك...».

«يقول إنَّها ليست معه. لكنَّ الرجل الخفي يعتقد أنَّها مع الصعلوك. يجب منعه من الأكل أو النوم؛ وأن تتحرَّك البلدة ليلًا ونهارًا بحثًا عنه. يجب التحفُّظ على الطعام وتأمينه، كل الطعام، حتى يضطرُّ لكسر الأبواب ليصل إليه. ولا بُدَّ من تأمين المنازل في كلِّ مكانٍ. ولترسل لنا السماء الليالي الباردة والمطر! يجب يبدأ الريف كلُّه في مطاردته ومواصلة المطاردة. أقول لك، يا آديا، إنَّه خطرٌ، كارثة. ما لم يُقبَض عليه ويُحبَس، من المخيف التفكير في الأشياء التي قد تحدث».

قال آديا: «ماذا يمكننا أن نفعل أيضًا؟ يجب أن أنزل على الفور، وأبدأ في التنظيم. ولكن، لماذا لا تأتي؟ نعم، أنتَ أيضًا! هيَّا، علينا أن نعقد نوعًا من مجلس الحرب، ومديري السكك الحديدية. يا إلهي! إنَّها حالة طوارئ. هيَّا، واصل حديثكَ خلال سيرِنا. ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟ ضع ملابسه جانبًا».

وفي اللحظة التالية، شرع آديا في قيادة الطريق إلى الطابق السفلي.

وجدا الباب الأمامي مفتوحًا، ورجال الشرطة يقفون في الخارج محدِّقين بالهواء الفارغ. قال أحدهم: «لقد هرب يا سيدي».

قال آديا: «يجب أن نذهب إلى المركز الرئيسي في الحال. ليذهب أحدكم ليأتينا بعربة أجرة بسرعة. والآن، يا كيمب، ماذا أيضًا؟».

قال كيمب: «الكلاب. أحضر الكلاب. إنَّها لا تراه، لكنها تشمُّ رائحته. أحضر الكلاب».

قال آديا: «هذا جيِّدٌ، وإن كان غير معروفٍ بوجهٍ عامٍ. لكنَّ مسؤولي السجن في هالستيد يعرفون رجلًا لديه كلاب صيدٍ. الكلاب إذن، ماذا أيضًا؟».

قال كيمب: «ضع في اعتبارِك أنَّ طعامه مرئيٌّ؛ يظلُّ مرئيًّا بعد أن يتناوله، إلى أن ينتهي هضمه. ولذا عليه أن يختبئ بعد الأكل. يجب أن تستمرَّ في البحث؛ لا تترك أيَّ غابة، أو أيَّ ركنٍ هادئ. كما يجب أن تبعد جميع الأسلحة، وجميع الأدوات التي قد تكون أسلحة. لا يمكنه حمل هذه الأشياء لفترة طويلة، وإنَّما يجب إبعاد كل ما يمكنه انتزاعه وضرب الرجال به».

قال آديا: «هذا جيِّدٌ أيضًا. سوف نقبض عليه!».

أضاف كيمب: «والطرق»، ثم تردَّد.

سأله آديا: «ماذا؟».

أجاب كيمب: «الزجاج المسحوق. إنَّه أمرٌ قاسٍ، أعرف ذلك. ولكن فكَّر في ما قد يفعله!».

سحب آديا الهواء بحدَّة بين أسنانه، وقال: «هذا لا يليق. لا أعرف. لكنَّي سأجهز الزجاج المسحوق. وإذا تمادى...».

قال كيمب: «لقد أصبح الرجل غير إنساني، أقول لك. وأنا متأكدٌ من أنَّه سيؤسِّس لعهدٍ من الإرهاب، بمجرد أن يتجاوز مشاعر هروبه، بمثل تأكدي من أنَّني أتحدَّث إليكَ. تكمن فرصتنا الوحيدة في أن نسبقه. لقد فصل نفسه عن أبناء جنسه. وعليه أن يتحمَّل مسؤولية سفك دمه».

الفصل السادس والعشرون

جريمة قتل السيد ويكستيد

يبدو أنَّ الرجل الخفي اندفع خارجًا من منزل كيمب في حالة من الغضب الأعمى. فقد أمسك بطفلٍ صغيرٍ يلعب بالقرب من بوابة كيمب، وألقاه جانبًا بعنفٍ، بحيث كُسِر كاحله. وبعد ذلك انقطعتْ أخبار الرجل الخفي لبضع ساعاتٍ. لا أحد يعرف إلى أين ذهب أو ماذا فعل. ولكن يمكن للمرء أن يتصوَّر اندفاعه، تحت شمس يونيو الحارة، إلى أعلى التلِّ وعلى الأراضي المنخفضة المفتوحة وراء بورت بوردوك، غاضبًا ويائسًا من مصيره الذي لا يُطاق، ومحتميًا في النهاية، وهو محمومٌ ومرهقٌ، وسط غابة هينتوندين، ليستجمع مرة أخرى خططه المحطَّمة ضد أبناء جنسه. يبدو أنَّ هذا كان الملاذ الأكثر احتمالًا بالنسبة له؛ لأنَّه هناك تمكَّن من استعادة نفسه بطريقة مأساوية قاتمة، نحو الساعة الثانية بعد الظهر.

ويتساءل المرء عمَّا كانت عليه حالته الذهنية خلال تلك الفترة، وما الخطط التي وضعها. لا شكَّ في غضبه الشديد من خيانة كيمب. وعلى الرغم من أنَّ بإمكاننا فهم الدوافع التي أدَّت إلى ذلك الخداع، فلا يزال بمقدورنا أن نتخيَّل، وحتى نتعاطف قليلًا، مع الغضب الذي سبَّبته المفاجأة. ربَّما أعادت إلى ذاكرته ما شعر به من دهشة خلال التجارب التي مرَّ بها في شارع أكسفورد، لأنَّه كان يعتمد بوضوحٍ على تعاوُن كيمب في حلمه الوحشي بعالمٍ مرعبٍ. على أيِّ حالٍ، اختفى نحو منتصف النهار، ولا يمكن لأيِّ شاهدٍ حيٍّ أن يقول ما فعله حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. ربَّما هذا من حُسن حظ البشرية، لكنَّه كان بالنسبة له تقاعسًا قاتلًا.

وخلال تلك الفترة، تزايد عدد الرجال الذين انتشروا في أنحاء الريف بحثًا عن الرجل الخفي. وفي الصباح، كان لا يزال مجرد أسطورة، ورعبٍ. أمَّا في فترة بعد الظهر، ونتيجة تصريح كيمب شديد اللهجة الذي أعلن فيه أنَّ الرجل الخفي خصمٌ ملموسٌ، يمكن إصابته أو القبض عليه أو التغلُّب عليه، بدأ الريف في تنظيم نفسه بسرعة مذهلة. ربما كان هروبه من المنطقة محتملًا، بركوبه أحد القطارات، لكن ذلك أصبح مستحيلًا بعد الساعة الثانية. فقد تحرَّكتْ جميع قطارات الركاب على طول خطوط متوازية الأضلاع –بين ساوثهامبتون، ومانشستر، وبرايتون، وهورشام– بأبوابٍ محكمة الإغلاق؛ وتوقَّفت حركة قطارات البضائع بالكامل تقريبًا. كما كان الرجال المسلحين بالبنادق والهراوات

ينطلقون في مجموعاتٍ من ثلاثة وأربعة ومعهم الكلاب، على طول محيط دائرة كبيرة يمتدُّ قطرُها إلى عشرين ميلًا حول بورت بوردوك، للبحث في الطرق والحقول.

تحرَّكتْ شرطة الخيَّالة على طول الممرَّات الريفية، مع التوقُّف عند كلِّ بيتٍ وتحذير الناس كي يغلقوا منازلهم والبقاء داخلها ما لم يكونوا مسلَّحين. وأغلقت جميع المدارس الابتدائية أبوابها بحلول الساعة الثالثة، وأسرع الأطفال في مجموعاتٍ إلى منازلهم خائفين. كما قام آديا بتوقيع التصريح الذي أدلى به كيمب، وتعليقه في جميع أنحاء المنطقة بأكملها تقريبًا نحو الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر. أوجز التصريح بوضوحٍ جميعَ الظروف، وضرورة منع الرجل الخفي من الطعام والنوم، وضرورة اليقظة المستمرة، والانتباه الشديد لأي دليلٍ على تحركاته. كانت تحركات السلطات وقراراتها سريعة جدًّا، كما كان تصديق وجود هذا الكائن الغريب فوريًّا وشاملًا، بحيث أصبحت المنطقة الممتدَّة لعدة مئاتٍ من الأميال المربعة في حالة حصارٍ صارمٍ قبل حلول الظلام. على أنَّ شعورًا بالرعب امتدَّ عبر كافة أنحاء الريف المتوتِّر، قبل حلول الظلام أيضًا. فقد تناقلتْ الأفواه همسًا، سريعًا ومؤكدًا على طول البلد وعرضها، عن مقتل السيد ويكستيد.

إذا كنَّا افترضنا أنَّ ملجأ الرجل الخفي كان غابة هينتوندين، فإنَّنا نفترض أيضًا أنَّه انطلق مرَّة أخرى، في وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهر، عازمًا

على تنفيذ خطة تتضمَّن استخدام سلاح. لا يمكننا معرفة خطته، ولكن الدليل الدامغ، بالنسبة لي على الأقل، أن قضيبًا حديديًّا كان بحوزته قبل أن يلتقي بويكستيد.

لا يمكننا بالطبع معرفة أيِّ شيء عن تفاصيل ذلك اللقاء، الذي حدث عند حافة حفرة من الحصى على بُعد أقل من مائتي ياردة من بوابة فندق اللورد بوردوك. يشير كلُّ شيءٍ إلى صراعٍ يائسٍ: وقع الأقدام على الأرض، الجروح العديدة التي تلقَّاها السيِّد ويكستيد، وعصاه المكسورة. ولكن من المستحيل تصوُّر سبب حدث الهجوم، إلَّا في حالة جنونٍ قاتلٍ. والواقع أنَّ نظرية الجنون تكاد تكون حتمية؛ فالسيِّد ويكستيد يبلغ من العمر الخامسة أو السادسة والأربعين، وهو وكيل اللورد بوردوك، ومُسالِمٌ من حيث عاداته ومظهره، وهو آخر شخصٍ في العالم يمكن أن يثير مثل هذا العداء الرهيب. ويبدو أنَّ الرجل الخفي استخدم ضده قضيبًا حديديًّا، التقطه من قطعة مكسورة من سياجٍ. ويبدو أنَّه أوقف هذا الرجل الهادئ، الذي كان متجهًا في هدوءٍ إلى منزله لتناول وجبة منتصف النهار، وهاجمه. ضرب دفاعاته الضعيفة، وكسر ذراعه، وانقضَّ عليه، وحطَّم رأسَه.

ولا بُدَّ، بالطبع، أنَّه التقط هذا القضيب من السياج قبل أن يقابل ضحيته، لا بُدَّ أنَّه كان يحمله جاهزًا في يده. ويبدو أنَّ هناك تفصيلين فقط لهما علاقة بما ذُكِر بالفعل في هذه المسألة. الأوَّل أنَّ حفرة الحصى لم تكن في طريق السيِّد ويكستيد المباشر إلى المنزل، بل على بُعد مئات الياردات تقريبًا من طريقه. والثاني هو تأكيد فتاة صغيرة أنَّها رأتْ، وهي ذاهبة إلى مدرستها بعد الظهر، الرجل المقتول «يهروِل» بطريقة غريبة

عبر حقلٍ في اتجاه حفرة الحصى. قامت الفتاة بأداء تمثيلٍ صامتٍ لِمَا رأته، وكان يوحي بأنَّ رجلًا يلاحق شيئًا على الأرض أمامه، ويضربه تكرارًا ومرارًا بعصاه التي تعينه على السير. وكانت الفتاة آخر من رآه حيًّا؛ فقد ابتعد عن بصرِها متجهًا إلى موته. لم تشهد الفتاة العراك، حيث أخفته مجموعةٌ من أشجار الزان وانخفاضٌ طفيفٌ في الأرض.

إنَّ قصَّة الفتاة الصغيرة تستبعد جريمة القتل العمد، على الأقل من وجهة نظر الكاتب الحالي. فقد نتخيَّل أنَّ جريفين اتَّخذ القضيب كسلاحٍ بالفعل، وإنَّما دون أيِّ نية متعَمَّدة لاستخدامه في القتل. وربَّما جاء ويكستيد بعد ذلك، ورأى قضيبًا يتحرَّك بشكلٍ غير مفهومٍ في الهواء. وربما سار لمتابعته دون أيِّ تفكيرٍ في الرجل الخفي؛ حيث تقع بورت بوردوك على مسافة عشرة أميالٍ، ومن الممكن تمامًا أنَّه ربَّما لم يسمع حتى عن الرجل الخفي. يمكن للمرء عندئذٍ أن يتخيَّل محاولة الرجل الخفي الهرب بهدوءٍ ليتجنَّب اكتشاف وجوده في الحي؛ وأنَّ ويكستيد، منفعلًا ومستغربًا، تابع هذا الشيء المتحرك الذي لا يمكن تفسيره، وفي النهاية تعرَّض لضرباته.

لا شكَّ أنَّ الرجل الخفي كان يسهل عليه، في ظلِّ ظروفٍ عادية، الابتعاد عن رجلٍ في منتصف العمر يطارده. لكنَّ الموقع الذي وُجِدت فيه جثة ويكستيد يشير إلى أنَّ حظه السيِّئ جعله يقود طريدته إلى زاوية بين كومة من نبات القراص اللاذع وحفرة الحصى. وبالنسبة لمن يُقدِّرون الانفعال الغاضب غير العادي عند الرجل الخفي، يسهل تصوُّر بقية الأحداث.

لكنَّ هذه فرضية محضة. أمَّا الحقائق الوحيدة التي لا يمكن إنكارها، لأنَّ قصص الأطفال غالبًا لا يمكن التعويل عليها، فهي اكتشاف جثة

ويكستيد الذي ضُرِب حتى الموت، وقضيب الحديد الملطَّخ بالدماء المُلقى بين كومة نبات القراص. ويشير تخلي جريفين عن القضيب إلى أنَّه، في ظلِّ التوتُّر الانفعالي حينذاك، ترك الغرض الذي أخذه لهدفٍ ما، إن كان لديه هدفٌ. والرجل الخفي بالتأكيد رجلٌ أنانيٌّ للغاية وعديم الشعور؛ لكنَّ مشهد ضحيته الأولى، بينما كان غارقًا في الدماء ومثيرًا للشفقة عند قدميه، ربما أطلق نافورة الندم المكبوتة طويلًا، التي ربَّما غطَّت لفترة أيَّ خططٍ عملٍ ابتكرها.

ويبدو أنَّه تجوَّل في كافة أنحاء البلد بعد مقتل السيد ويكستيد، واتجه نحو منطقة الأراضي المنخفضة. فهناك قصَّةٌ عن صوتٍ سمعه رجلان في حقلٍ بالقرب من فيرن بوتوم، في فترة غروب الشمس. سمِعا صوتًا يبكي ويضحك، يشهق ويئنُّ، ويصرخ مِرارًا وتكرارًا. لا بُدَّ أنَّه كان صوتًا غريبًا. وقد استمرَّ حتى منتصف حقل البرسيم، ثم أخذ يتلاشى في اتجاه التلال.

لا بُدَّ أنَّ الرجل الخفي عرف شيئًا، بعد ظهر ذلك اليوم، عن سرعة استفادة كيمب من المعلومات التي قالها له. لا بُدَّ أنَّه وجد المنازل موصدة؛ وربما تسكَّع حول محطات السكك الحديدية وطاف حول الفنادق، وقرأ التصريحات دون شكٍّ وأدرك طبيعة الحملة ضده. ومع حلول المساء، انتشرت في الحقول مجموعاتٌ من ثلاثة أو أربعة رجال، وبصحبتهم كلابٌ تنبح. كان لدى هؤلاء الرجال المطارِدين تعليماتٌ خاصة، في حالة المواجهة، عن كيفية دعم بعضهم لبعضٍ. لكنَّه تجنَّبهم جميعًا. قد نفهم سبب سخطه؛ لأنَّه هو نفسه من قدَّم المعلومات التي

تُستخدَم ضده الآن بلا رحمة. لقد فقد قلبه، على الأقل في ذلك اليوم؛ فقد ظلَّ لِمَا يقرب من ٢٤ ساعة، باستثناء فترة مواجهته مع ويكستيد، رجلًا مُطارَدًا. ولا بُدَّ أنَّه حصل على طعامٍ أثناء الليل، وتمكَّن من النوم. ذلك أنَّه استعاد نفسه مرة أخرى في الصباح؛ نشطًا، وقويًّا، وغاضبًا، وخبيثًا، ومستعدًّا لصراعه الكبير الأخير في مواجهة العالم.

الفصل السابع والعشرون

حصار منزل كيمب

قرأ كيمب رسالة غريبة، مكتوبة بقلمٍ رصاصٍ، على ورقة قذرة.

جاء في الرسالة: «لقد كنتَ نشيطًا وماهرًا على نحوٍ يثير الدهشة، على الرغم من أنَّني لا أستطيع أن أتصوَّر ما الذي ستستفيده. أنتَ تقف ضدي. لقد طاردتني ليومٍ كاملٍ، وحاولتَ أن تسلبني الراحة في الليل. لكنَّني تناولتُ الطعام على الرغم منك، ونمتُ على الرغم منك، واللعبة لا زالت في بدايتها. اللعبة لا زالت في بدايتها، وما من سبيلٍ إلَّا أن يبدأ الرعب. هذا إعلانٌ باليوم الأوَّل من الإرهاب. لم تعُد بورت بوردوك تحت حكم الملكة، أخبِر عقيد الشرطة وبقية أفرادها أنَّهم أصبحوا تحت حكمي أنا... الرعب! هذا هو أوَّل يومٍ من السنة الأولى في العصر الجديد: عصر الرجل الخفي. أنا الرجل الخفي الأول. وبداية حكمي ستكون سهلة. في اليوم الأول سوف يُعدَم، على سبيل المثال، رجلٌ اسمه كيمب. يبدأ موته اليوم. يمكنه أن يحبس نفسه، أو يختبئ، أو يحيط نفسه بالحراس، أو ويرتدي دِرعًا إذا شاء؛ فالموت، الموت

الخفي، قادمٌ. فليتخذ الاحتياطات اللازمة؛ ليثير إعجاب شعبي. يبدأ الموت من صندوق البريد بحلول منتصف النهار. سيأتي ساعي البريد بالرسالة، ثم نبدأ! تبدأ اللعبة. يبدأ الموت. لا تساعدوه، يا شعبي، خشية أن ينالكم الموت أيضًا. كيمب يموت اليوم».

قرأ كيمب هذه الرسالة مرتين، ثم قال: «إنَّها ليست خدعة. هذه طريقته! وهو يعني ما يقول».

قلَّب الورقة المطوية، ورأى في الموضع المخصَّص لعنوان الراسل ختم بريد هينتوندين، والتفاصيل النثرية «يومان للسداد».

نهض ببطءٍ، تاركًا غداءه دون أن يكمله، إذ وصلت الرسالة في بريد الساعة الواحدة، وذهب إلى غرفة مكتبه. دقَّ الجرس لاستدعاء مدبِّرة منزله، وطلب منها أن تدور حول المنزل على الفور وتفحص جميع النوافذ وتتأكد من إغلاق مصاريعها، وإغلاق شيش جميع النوافذ أيضًا. وأغلق بنفسه شيش غرفة مكتبه. أخرج من درجٍ مغلقٍ في غرفة نومه مسدسًا صغيرًا، وفحصه بعناية، ووضعه في جيب سترته. كتب عددًا من الرسائل الموجزة، إحداها إلى العقيد آديا، وأعطاها لخادمته لتأخذها، مع تعليماتٍ صريحة حول طريقتها في مغادرة المنزل. قال لها: «لا يوجد خطرٌ»، ثم أضاف، «عليكِ». ظلَّ لفترة في حالة تأمُّلٍ، ثم عاد إلى غدائه الذي أصبح باردًا.

كان يفكر وهو يأكل، ثم ضرب على الطاولة بحدَّة. قال: «سوف نمسك به! وأنا الطُعم. سيجعله ذلك يأتي». صعد إلى الغرفة العلوية، وأغلق بعناية كل بابٍ وراءه. قال: «إنَّها لعبة، لعبة غريبة، لكنَّ الفرص

كلها لصالحي، سيد جريفين، على الرغم من خفائك. جريفين في مواجهة العالم ... لينتقم».

وقف عند النافذة يحدِّق إلى منحدر التل الحار. «يجب أن يحصل على الطعام كلَّ يومٍ، وأنا لا أحسده. هل نام حقًّا ليلة أمس؟ في العراء، في مكانٍ ما، آمنًا من أي تصادم. أتمنَّى أن ينقلب هذا الطقس الحار إلى طقسٍ باردٍ.

«ربما يراقبني الآن».

اقترب من النافذة. سمِع طرقة حادة على جدار المنزل في الخارج، ما جعله يتراجع بعنفٍ إلى الخلف.

قال كيمب: «بدأتُ أشعر بالتوتُّر». مرَّت خمس دقائق قبل أن يعود ثانية إلى النافذة. قال: «لا بُدَّ أنَّه عصفورٌ».

سمِع جرس الباب الأمامي يدقُّ، فأسرع إلى الطابق السفلي. فتح المزلاج، وفحص السلسلة، وفتح بحذرٍ دون أن يُظهِر نفسه. ناداه صوتٌ مألوفٌ؛ كان آديا.

قال وهو يقف بجوار الباب: «لقد تعرَّضتْ خادمتك للاعتداء، يا كيمب».

صاح كيمب: «ماذا!».

«لقد أُخِذت رسالتكَ منها. إنَّه قريبٌ من هنا. دعني أدخل».

فتح كيمب السلسلة، ودخل آديا من فتحة ضيقة قدر الإمكان. وقف في القاعة ينظر بارتياحٍ كبيرٍ إلى كيمب وهو يعيد إغلاق الباب.

«لقد انتُزِعت رسالتُكَ من يدها، مما أخافها بشكلٍ فظيعٍ. وهي في مركز الشرطة، في حالة هيستيرية. إنَّه قريبٌ من هنا. ماذا كان في الرسالة؟».

لعن كيمب نفسه.

قال: «يا لي من أحمق. كان يجب أن أعرف. فالمسافة من هينتوندين ليست ساعة سيرًا على الأقدام. وصل بالفعل؟».

سأله آديا: «ما الأمر؟».

قال كيمب: «تعالَ، وانظر!»، وقاد الطريق إلى غرفة مكتبه، وأعطى آديا رسالة الرجل الخفي. قرأها آديا، وأصدر صفيرًا بهدوءٍ، ثم قال: «وأنتَ...؟».

قال كيمب: «اقترحتُ أن ننصب له فخًّا. أنا أحمق، لأنَّني أرسلتُ اقتراحي مع خادمتي... إليه».

تفوَّه آديا بلعناتٍ، مثله مثل كيمب.

وقال: «سوف يظهر».

قال كيمب: «ليس هو».

صدر من الطابق العلوي صوت مدوٍ لنافذة تتحطَّم. لمح آديا مسدسًا صغيرًا يخرج نصفه من جيب كيمب. قال كيمب: «إنَّها نافذة في الطابق العلوي!، وقاد الطريق إلى أعلى. دوى صوتُ تحطيمٍ ثانٍ، وهما يصعدان السلَّم. وعندما وصلا إلى غرفة المكتب، وجدا نافذتين من النوافذ الثلاث محطمتين، والزجاج المكسور يتناثر على أرضية نصف الغرفة، وقطعة حجرٍ كبيرة على طاولة الكتابة. توقَّف الرجلان

عند المدخل، يتأمَّلان الحطام. أطلق كيمب لعناته مرة أخرى، وعندئذٍ سقطتْ النافذة الثالثة بفرقعة تشبه طلقة مسدسٍ، وتعلَّقتْ للحظة، ثم انهارتْ على شكل مثلثاتٍ مدبَّبة مهتزَّة، على أرضية الغرفة.

تساءل آديا: «لماذا كل هذا؟».

أجاب كيمب: «إنَّها البداية».

«هل توجد وسيلة للتسلُّق إلى هنا؟».

قال كيمب: «كلا، ولا حتى لقطٍّ».

«ألا يوجد شيش؟».

«ليس هنا، وإنَّما في جميع غرف الطابق السفلي. يا إلهي!».

صدر من الطابق السفلي صوتٌ قويٌّ لتحطيمٍ، ثم طرق بألواحٍ. قال كيمب: «إنَّه يحطِّم في كلِّ مكانٍ!. لا بُدَّ أنَّها... نعم، إنَّها إحدى غرف النوم. سوف يحطِّم المنزل كله. يا له من أحمق. الشيش مغلقٌ، والزجاج سيسقط في الخارج. سيجرح قدميه».

دوى صوت تدمير نافذة أخرى. وقف الرجلان عند السلَّم في حيرة من أمرِهما. قال آديا: «سوف أجده! أعطني عصا أو شيئًا مماثلًا، وسأذهب إلى مركز الشرطة وأحضر الكلاب. لا بُدَّ أنَّ هذا سيوقفه! فهي كلابٌ قوية. قبل أقل من عشر دقائق...».

سقطت نافذة أخرى مثل زميلاتها.

سأل آديا: «أليس لديك مسدسٌ؟».

وضع كيمب يده في جيبه، ثم تردَّد. «ليس لديَّ سوى مسدسٍ واحدٍ، ولا يمكنني الاستغناء عنه».

قال آديا: «سوف أعيده لك. ستكون في أمانٍ هنا».

خجل كيمب من عدم صدقه اللحظي، وناوله المسدس».

قال آديا: «والآن إلى الباب».

وبينما وقفا مترددين في القاعة، سمِعا إحدى نوافذ غرفة النوم في الطابق الأول تتصدَّع وتسقط. ذهب كيمب إلى الباب، وبدأ فتح الترباس بأقل هدوءٍ ممكنٍ. كان وجهه أكثر شحوبًا من المعتاد. قال: «يجب أن تخرج على الفور». وفي اللحظة التالية كان آديا على عتبة الباب، والترباس يعود إلى مكانه. تردَّد للحظة، ثم شعر بمزيدٍ من الراحة مع إدارة ظهره إلى الباب. ثم سار منتصب القامة وهو يهبط السلم الخارجي. سار فوق الحشائش مقتربًا من البوابة. بدا نسيمٌ خفيفٌ يموج فوق الحشائش. تحرَّك شيءٌ بالقرب منه، ثم قال صوت: «توقَّف قليلًا». توقَّف آديا ويده تقبض على المسدس.

قال آديا، وهو شاحبٌ وكئيبٌ، وشديد التوتُّر: «ماذا بعد؟».

قال الصوت، وهو متوتِّر وكئيبٌ مثل آديا: عليكَ أن تعود إلى المنزل».

«أنا آسفٌ»، أجاب آديا بصوتٍ أجش قليلًا، وبلَّل شفتيه بلسانه. كان يعتقد أنَّ الصوت على يساره. هل يمكنه أن يحظى بإطلاق النار؟

قال الصوت: «ماذا تريد أن تفعل؟»، وتحرَّك الاثنان بسرعة، كما خرج وميضٌ من أشعة الشمس من فتحة جيب آديا.

وقف آديا وفكر، ثم قال ببطءٍ: «إلى أين أذهب، هو شأني الخاص». كانت الكلمات لا تزال على شفتيه عندما التفَّ ذراعٌ حول عنقه، وشعر بضربة من ركبة على ظهره، وأُجبِر على التراجُع. سحب مسدسه بشكلٍ أخرق وأطلق النار برعونة، وفي اللحظة التالية أُصيب بلكمة في فمه، وانتُزِع المسدس من قبضته. حاول عبثًا الإمساك بفرعٍ متدلٍ لكي ينهض، لكنَّه سقط مرة أخرى، قائلًا: «اللعنة!»، ضحك الصوت وهو يقول: «يمكنني قتلك الآن، لكنني لا أريد أن أخسر رصاصة». رأى آديا المسدس في الجو، على بعد ستة أقدامٍ، ومصوبًا نحوه.

فجلس قائلًا: «وماذا بعد؟».

«انهض»، قال الصوت.

وقف آديا.

«انتبه»، قال الصوت، ثم أضاف بشراسة، «لا تحاول أي ألاعيب. تذكر أنَّني أستطيع رؤية وجهك، وأنت لا تستطيع رؤية وجهي. يجب أن تدخل إلى المنزل ثانية».

قال آديا: «لن يسمح لي بالدخول».

قال الرجل الخفي: «هذا مؤسفٌ. فلا ضغينة بيني وبينك».

بلَّل آديا شفتيه مجددًا. أبعد عينيه عن المسدس؛ فرأى البحر على بُعدٍ بلونه الأزرق، وقاتمًا تحت شمس منتصف النهار، والسهول بلونها

الأخضر الرقيق، والجرف الأبيض عند القمة، والبلدة متعددة الطوائف، وأدرك فجأة أنَّ الحياة جميلة. عادت عيناه إلى ذلك الشيء المعدني الصغير، المعلَّق بين السماء والأرض، على بعد ست ياردات. وقال متجهمًا: «ماذا تريدني أن أفعل؟».

«ماذا أفعل أنا؟»، قال الرجل الخفي، «سوف تطلب مساعدة. الشيء الوحيد المطلوب منك هو أن تعود إلى داخل المنزل».

«سأحاول. وإذا سمح لي بالدخول، هل تعدني بعدم الاندفاع إلى الداخل؟».

قال الصوت: «ليس بيني وبينك أيُّ خلاف».

كان كيمب قد سارع إلى الطابق العلوي بعد خروج آديا، وجثم بين الزجاج المكسور وطلَّ بحذرٍ من فوق حافة نافذة غرفة المكتب، ورأى آديا واقفًا يتحدَّث مع شخصٍ غير مرئيٍّ. همس لنفسه: «لماذا لا يُطلِق النار؟». ثم تحرَّك المسدس قليلًا، وومض بريق ضوء الشمس في عيني كيمب. ظلَّل عينيه، وحاول رؤية مصدر ذلك الشعاع القوي.

قال: «لقد تخلَّى آديا بالتأكيد عن المسدس».

كان آديا يقول: «عدني ألَّا تندفع من الباب. لا تضغط في مباراة رابحة. امنح الرجل فرصة».

«عُد إلى المنزل. أقول لك بشكلٍ قاطعٍ إنَّني لن أعدك بأيِّ شيء».

يبدو أنَّ آديا اتخذ قراره فجأة. التفتَ نحو المنزل، وسار ببطءٍ ويداه خلفه. شاهده كيمب في حيرة. اختفى المسدس، وومض مرَّة أخرى في

المشهد، اختفى ثانية. وعند نظرة مدقِّقة، بدا كشيءٍ مظلمٍ قليلًا يتبع آديا. ثم جرت الأمور بسرعة كبيرة. قفز آديا إلى الخلف متأرجِحًا، وأمسك بهذا الشيء الصغير، لكنَّه أفلت منه. ألقى يديه وسقط على وجهه، تاركًا نفخة صغيرة من الدخان الأزرق في الهواء. لم يسمع كيمب صوتَ الطلقة. تلوَّى آديا، رفع نفسه على ذراعٍ واحدة، ثم سقط ساكنًا.

ظلَّ كيمب لفترة يفكر بهدوء في موقف آديا وإهماله. كانت فترة بعد الظهر شديدة الحرارة والسكون. لا شيء يبدو متحركًا في العالم إلَّا بضع فراشاتٍ صفراء، تطير خلال الشجيرات بين المنزل والبوابة على الطريق. كان آديا مستلقيًا على الحشائش بالقرب من البوابة. وكانت ستائر جميع الفيلات أسفل طريق التل مُسدَلة. ظهرت هيئةٌ بيضاءُ في منزلٍ صيفيٍّ أخضر صغيرٍ، على ما يبدو رجلٌ عجوزٌ نائمٌ. تجوَّلت عينا كيمب تفحص محيط المنزل، في محاولة لأن يلمح المسدس، لكنَّه اختفى. عادت عيناه إلى آديا. لقد بدأتْ اللعبة.

سُمِع رنينٌ وطرقٌ على الباب الأمامي، ثم تزايد بصخبٍ. حبس الخدم أنفسَهم في غرفِهم، وِفقًا لتعليمات كيمب. أعقب ذلك صمتٌ. جلس كيمب يستمع، ثم بدأ يطلُّ بحذرٍ من النوافذ الثلاث، واحدة تِلْوَ الأخرى. ذهب إلى بداية السلَّم، ووقف يستمع بقلقٍ. سلَّح نفسَه بقضيب المِدفأة في غرفة نومه، ثم ذهب لفحص الترابيس الداخلية لنوافذ الطابق الأرضي مرَّة أخرى. كان كلُّ شيءٍ آمنًا وهادئًا. عاد إلى الغرفة العلوية. كان آديا يرقد بلا حراكٍ على حافة الحصى، تمامًا كما سقط. وكانت خادمة المنزل وشرطيان قادمين على طول الطريق بجانب الفيلات.

ساد سكونٌ مميتٌ، وبدا اقتراب الأشخاص الثلاثة بطيئًا. تساءل عمَّا يفعله خصمه.

تملَّكه الفزع، حيث سمِع صوتَ تحطيمٍ يأتي من أسفل. تردَّد، ثم نزل إلى الطابق السفلي مرَّة أخرى. وفجأة دوى المنزل بضرباتٍ قوية وصوت خشبٍ ينكسر. كما سمِع أصواتَ تحطيمٍ، وجلجلة تدمير الترابيس الحديدية التي تغلِق الشيش. أدار المفتاح وفتح بابَ المطبخ، وعندئذٍ طارتْ الأجزاء المنكسِرة والمتشقِّقة من الشيش إلى الداخل. وقف مرعوبًا. لا يزال إطار النافذة سليمًا، باستثناء عارضة واحدة؛ ولكن لم يبقَ في الإطار سوى قطعٍ زجاجية صغيرة مدبَّبة كالأسنان. استخدم الرجل الخفي فأسًا لكسرِ الشيش، والآن ينزل الفأس بضرباتٍ كاسحة على إطار النافذة والقضبان الحديدية التي تحميها. ثم فجأة قفز الفأس جانبًا واختفى. رأى كيمب المسدس مُلقى على الطريق في الخارج، ثم انطلق السلاح الصغير في الهواء، لكنَّه تمكَّن من تفادي الرصاصة. فرِغتْ رصاصات المسدس، وإنَّما بعد فوات الأوان؛ حيث طارتْ قطعةٌ انكسرت من حافة الباب المُغلَق فوق رأسه. أغلق الباب وأوصده. وبينما كان يقف في الخارج، سمِع جريفين يصيح ويضحك. ثم استؤنِفتْ ضربات الفأس، وما ينتج عنها من تكسيرٍ وتحطيمٍ.

وقف كيمب في الممرِّ محاولًا التفكير. فالرجل الخفي سرعان ما سيتمكَّن من دخول المطبخ. ولن يمنعه هذا الباب، وعندئذٍ…

دقَّ جرس الباب الأمامي مرَّة أخرى. ربَّما وصل رجال الشرطة. ركض إلى القاعة، وأغلق السلسلة، وفتح الترباس. طلب من الفتاة

أن تتحدث قبل أن يفتح السلسلة، ثم دخل الأشخاص الثلاثة معًا إلى المنزل، وأغلق كيمب الباب مرَّة أخرى.

«الرجل الخفي!»، قال كيمب، «معه مسدسٌ، وبقيت لديه طلقتان. لقد قتل آديا. أطلق عليه النار. ألم ترونه على الحشائش؟ إنَّه راقدٌ هناك».

سأل أحد رجال الشرطة: «مَن؟».

قال كيمب: «آديا».

قالت الفتاة: «لقد جئنا من الطريق الخلفي».

سأل أحد رجال الشرطة: «ما هذا التحطيم؟».

«إنَّه في المطبخ، أو على وشك دخول المطبخ. فقد وجد فأسًا...».

وفجأة امتلأ المنزل بضرباتِ الرجل الخفي المدوية على باب المطبخ. حدَّقت الفتاة إلى المطبخ، وارتجفت، ثم تراجعتْ إلى غرفة الطعام. حاول كيمب أن يشرح في جملٍ متقطِّعة. سمِعوا باب المطبخ يتهاوى.

قال كيمب، الذي بدا نشطًا: «من هنا»، وجمع رجال الشرطة في مدخل غرفة الطعام.

«قضيب المِدفأة»، قال كيمب وهو يندفع إلى الدرابزين. أعطى قضيب المِدفأة الذي يحمله إلى الشرطي وقضيب مِدفأة غرفة الطعام إلى الشرطي الآخر. وفجأة ألقى بنفسه إلى الوراء.

«أووووه»، قال أحد رجال الشرطة متفاديًا ضربة الفأس، وتلقَّاها على قضيب المِدفأة الذي بحوزته. أطلق المسدس الرصاصة قبل

الأخيرة، التي مزَّقتْ لوحةً قيّمة للفنان سيدني كوبر. ضرب الشرطي الثاني السلاح الصغير بقضيب المدفِأة، وأسقطه أرضًا، كمن يُسقِط دبورًا.

صرختْ الفتاة أثناء الاشتباك الأول، ووقفتْ تصرخ للحظة بجانب المِدفأة، ثم ركضتْ لفتح الشيش - ربما بفكرة الهروب من النافذة المحطمة.

تراجع الفأس إلى الممرِّ، وسقط في وضعٍ يبعد عن الأرض بمسافة قدمين. كانوا يسمعون الرجل الخفي يتنفَّس. قال: «ابتعدا أنتما الاثنان، أنا أريد ذلك الرجل: كيمب».

«ونحن نريدُكَ»، قال الشرطي الأوَّل، وهو يخطو خطوةً سريعةً إلى الأمام، ويحرك قضيب المِدفأة في اتجاه الصوت. لا بُدَّ أنَّ الرجل الخفي قد تراجع، وتعثَّر في حامل المظلات.

تمايل الشرطي نتيجة الضربة التي صوَّبها، وردَّ الرجل الخفي بالفأس؛ فتجعَّدتْ خوذته كالورقة، بينما أسقطتْ الضربة الرجل وهو يدور على أرض المطبخ بالقرب من بداية السلم. لكن الشرطي الثاني، الذي كان يستهدف الفأس بقضيب المِدفأة، ضرب شيئًا أملسَ، ودوى صوتُ تحطُّمٍ. انطلقتْ صرخة ألمٍ حادَّة، ثم سقط الفأس على الأرض. عاود الشرطي الضرب في الهواء، لكنَّه لم يصب شيئًا. وضع قدمه على الفأس، وضرب مرَّة أخرى. توقَّف، وأوقف الضرب بقضيب المِدفأة، وأخذ يحاول الاستماع إلى أقل حركة.

سمِع نافذة غرفة الطعام تُفتَح، واندفاع أقدامٍ سريعة إلى الداخل.

تقلَّب رفيقه وجلس، والدم يسيل بين عينه وأذنه. «أين هو؟»، سأل الرجل الجالس على الأرض.

«لا أعرف. لقد ضربته. إنَّه يقف في مكانٍ ما في القاعة، ما لم يكن تسلَّل من جانبِكَ. دكتور كيمب، يا سيدي».

صمت.

«دكتور كيمب»، صاح الشرطي مرَّة أخرى.

بدأ الشرطي الثاني يكافح للنهوض على قدميه. وقف. وفجأة أصبح في الإمكان سماع وقع أقدامٍ حافية خافتة على سلَّم المطبخ. صاح الشرطي الأول: «ها هو!»، وأخذ يضرب بقضيب المِدفأة على نحوٍ مستمرٍّ؛ مما أدَّى إلى تحطيم حاملٍ صغيرٍ لأنبوبة غازٍ.

كان على وشك ملاحقة الرجل الخفي في الطابق السفلي، ثم بعد تفكيرٍ دخل غرفة الطعام.

نادى: «دكتور كيمب»، ثم توقَّف.

قال وهو ينظر من فوق كتفه إلى رفيقه: «دكتور كيمب بطلٌ».

كانت نافذة غرفة الطعام مفتوحة على مصراعيها، ولم تكن خادمة المنزل موجودة، ولا كيمب.

كان رأي الشرطي الثاني في كيمب مقتضبًا وواضحًا.

الفصل الثامن والعشرون

اصطياد الصياد

كان السيِّد هيلاس، أقرب جيران السيِّد كيمب من بين أصحاب الفيلات، نائمًا في منزله الصيفي عندما بدأ حصار منزل كيمب. كما كان السيِّد هيلاس أحد الأقلية القوية التي رفضتْ تصديق «كل هذا الهراء» الخاص بوجود رجلٍ خفيٍّ. غير أنَّ زوجته كانت تصدِّق ذلك، كما قامت بذكيره لاحقًا. أصرَّ على السير حول حديقته كأنَّما لم يحدث أيُّ شيءٍ، ثم ذهب لينام في فترة ما بعد الظهيرة كما اعتاد منذ سنواتٍ. كان نائمًا عندما كانت النوافذ تتحطَّم، ثم استيقظ فجأة بشعورٍ غريبٍ بحدوث شيءٍ خاطئٍ. نظر إلى منزل كيمب، فرك عينيه ونظر مرَّة أخرى. ثم أنزل قدميه على الأرض، وجلس يستمع. قال إنَّه ملعونٌ، لكنَّه رأى شيئًا غريبًا. بدا منزل كيمب كما لو أنَّه مهجورٌ منذ أسابيع، بعد أعمال شغبٍ عنيفة. فجميع النوافذ مكسورة، وكلها، باستثناء نوافذ غرفة المكتب العلوية، مغلَقة بشيشها الداخلي.

قال، بعد أن نظر إلى ساعته: «كان بإمكاني أن أقسم، قبل عشرين دقيقة، إنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام».

أصبح على بيِّنة من حدوث اهتزازٍ معتدلٍ واصطدامٍ في الزجاج، على بُعدٍ. وبينما كان يجلس متعجبًا، حدث شيءٌ أكثر إدهاشًا. كان شيش نافذة غرفة الاستقبال بمنزل كيمب مفتوحًا بعنفٍ، وبدت خادمة المنزل، وهي مرتدية قبعة وملابس الخروج، تكافح بطريقة محمومة لتتخلَّص من الوشاح. وفجأة ظهر رجلٌ بجانبها، يساعدها: الدكتور كيمب! وفي اللحظة التالية فُتِحت النافذة، والخادمة تكافِح لتخرج. تأرجحتْ، وخرجتْ، ثم سارتْ واختفتْ بين الشجيرات. وقف السيد هيلاس صائحًا، لغموض وغرابة كلِّ هذه الأشياء العجيبة. رأى كيمب يقف على حافة النافذة، ثم يقفز، ويظهر مرَّة أخرى على الفور تقريبًا وهو يركض منحنيًا على طول الطريق بين الشجيرات، مثل رجلٍ يتهرَّب من المراقبة. اختفى خلف شجر الأبنوس، ثم ظهر مرَّة أخرى وهو يتسلَّق سياجًا متاخمًا للعراء. تعثَّر بعد ثانية، ثم واصل الركض بسرعة هائلة على المنحدر في اتجاه منزل السيِّد هيلاس.

صاح السيِّد هيلاس، وفكرة تجول بخاطره: «يا إلهي! إنَّه ذلك الرجل الخفي الوحشي! يبدو أنَّ القصَّة صحيحة!».

كان السيِّد هيلاس يعتقد أنَّ الموقف في مثل تلك الحالات هو التصرُّف؛ بينما طبَّاخه يراقبه من النافذة العليا، مندهشًا لرؤيته يأتي مندفعًا نحو المنزل بسرعة تسعة أميالٍ في الساعة. طَرَقَ على الأبواب، ودقَّ على الأجراس، وصوت السيِّد هيلاس هائجًا كالثور. «أغلِقوا

الأبواب، أغلِقوا النوافذ، أغلِقوا كلَّ شيءٍ! الرجل الخفي قادمٌ!». امتلأ المنزل على الفور بالصرخات والحركة في مختلف الاتجاهات، وهرولة الأقدام. ركض بنفسه لإغلاق النوافذ الفرنسية الطويلة التي تُفتَح على الشرفة الأرضية. وعندئذٍ ظهر رأس كيمب، وكتفاه، وركبته، على حافة سور الحديقة. وفي اللحظة التالية كان كيمب قد عبر حقل نبات الأسباراجوس، واستمرَّ يركض عبر حديقة التنس إلى المنزل.

قال السيِّد هيلاس، وهو يُغلِق المزلاج: «لا يمكنكَ الدخول. أنا آسفٌ جدًّا، إذا كان الرجل الخفي يسعى وراءك. ولكن، لا يمكنكَ أن تدخل!».

ظهر كيمب بوجهٍ مرتعبٍ بالقرب من الزجاج، متوتِّرًا ومرتعشًا بشكلٍ محمومٍ أمام النافذة الفرنسية. وعندما رأى أنَّ جهوده عديمة الفائدة، ركض على طول الشرفة الأرضية، وقفز عند نهايتها متوجهًا إلى الباب الجانبي. ركض بالقرب من البوابة الجانبية إلى الجزء الأمامي من المنزل، ومنه إلى طريق التلِّ. كان السيد هيلاس يحدِّق من نافذته بوجهٍ مرتعبٍ، إلى أن شاهد كيمب يختفي، قبل أن يرى سحق نبات الأسباراجوس بأقدامٍ خفيَّة. هرب السيِّد هيلاس إلى الطابق العلوي على عجلٍ، وأصبحت بقية المطاردة خارج نطاقه. لكنَّه عندما مرَّ بنافذة السلَّم، سمِع البوابة الجانبية تُغلَق بقوة.

توجَّه كيمب إلى طريق التلِّ واتَّخذ، بطبيعة الحال، اتجاه الهبوط. وها هو يركض بنفسه في مطاردة مماثلة لتلك التي شاهدها بعينٍ ناقدة من غرفة مكتبه العلوية قبل أربعة أيام فقط. ركض جيِّدًا، كرجلٍ لا

يمارس التمارين الرياضية، لكنَّ وجهه كان شاحبًا، بينما ظلَّ عقلُه يفكر طوال الوقت. ركض بخطواتٍ واسعة. وعندما يجد رقعة من الأرض الوعرة، أو الحجر الخام، أو بعض الزجاج المكسور يسطع بتألُّقٍ، كان يعبرها ويترك للقدمين الحافيتين غير المرئيتين اللتين تتبعانه أن تتخذا المسار الذي تريدانه.

اكتشف كيمب، لأوَّل مرَّة في حياته، أنَّ طريقَ التلِّ واسعٌ ومقفرٌ بشكلٍ لا يُوصف، وأنَّ بدايات المدينة التي تقع أدناه عند سفح التلِّ كانت بعيدة بشكلٍ غريبٍ. لم تكن هناك طريقة أبطأ أو أكثر إيلامًا للتقدُّم من الجري. بدت جميع الفيلات الهزيلة، النائمة في شمس الظهيرة، مقفلة وموصدة؛ لا شكَّ أنَّ ذلك يرجع إلى الأوامر التي أصدرها. ولكن، على أي حالٍ، ربَّما ظلَّ سكَّانُها يراقبون حدثًا مثل هذا! بدأتْ البلدة الآن تظهر مرتفعة، ويغيب خلفها البحرُ عن الأنظار، والناس في أسفل يتحركون. كان الترام يصل لتوِّه إلى سفح التلِّ، ويقع خلفه مركز الشرطة. ما هذه الخطوات التي سمِعها خلفه؟ انطلق مسرعًا.

كان الناس أدناه يحدِّقون إليه، يركض شخصٌ أو شخصان، بينما كانت أنفاسه قد بدأت تتقطع. أصبح الترام قريبًا الآن، وكان روَّاد فندق «جولي كريكيترز» يغلقون أبوابه في صخبٍ. ظهرت خلف الترام أعمدةٌ وأكوامٌ من الحصى، تتعلَّق بأعمال الصرف الصحي. واتته فكرة عابرة أن يقفز إلى الترام ويُغلِق الأبواب، ثم قرَّر الذهاب إلى مركز الشرطة. وفي اللحظة التالية مرَّ بباب فندق «جولي كريكيترز»، ووصل إلى نهاية الشارع، والناس يتجمَّعون حوله. أثار مشهد سرعته الغاضبة سائق

الترام ومساعده، فوقفا يحدِّقان دون تقييد خيول الترام. بدت كذلك ملامح الدهشة على عمَّال الحفر فوق أكوام الحصى.

تباطأت وتيرته قليلًا، ثم سمِع وقع أقدام مُطارِده السريعة، فقفز مسرعًا مرَّة أخرى. «الرجل الخفي!»، صاح موجِّهًا كلامه إلى عمَّال الحفر، مع إيماءة موحية غامضة. وبإلهامٍ، قفز عبر أعمال الحفر، ووقفتْ مجموعة قوية البنية بينه وبين المطاردة. ثم تخلَّى عن فكرة مركز الشرطة، وتحوَّل إلى شارعٍ جانبيٍّ صغيرٍ. ركض بجوار عربة بائع خضراوات، وتردَّد لمدة عشر ثوانٍ عند باب متجر الحلويات، ثم اتَّجه إلى زقاقٍ يصل إلى شارع هيل الرئيس مرَّة أخرى؛ حيث كان طفلان أو ثلاثة أطفالٍ يلعبون، صرخوا وتفرَّقوا عند ظهوره، وعلى الفور فُتِحت الأبواب والنوافذ وكشفتْ الأمهات عمَّا في قلوبهنَّ من قلقٍ. خرج من الزقاق وانطلق في شارع هيل مرَّة أخرى، على بعد ثلاثمائة ياردة من نهاية خط الترام، وعلى الفور أدرك وجود اضطرابٍ صاخبٍ وبشرٍ يركضون.

نظر أعلى الشارع في اتجاه التلِّ. تحرَّك عامل حفرٍ ضخم الجثة على مسافة تصل بالكاد إلى اثنتي عشرة ياردة، يطلِق لعناتٍ متقطِّعة ويشقُّ طريقه بقوةٍ بمجرفةٍ، وخلفه جاء سائق الترام يلوِّح بقبضاته المشدودة، ويتبعهما في أعلى الشارع آخرون، يصيحون ويهتفون. وقُرب البلدة، كان الرجال والنساء يركضون. كما لاحظ بوضوحٍ رجلًا يخرج من باب متجرٍ وفي يده عصا. صاح شخصٌ: «انتشروا! انتشروا!». أدرك كيمب فجأة تغيُّر وضع المطاردة. توقَّف ونظر حوله لاهثًا. صاح: «إنَّه قريبٌ من هنا! عليكم الوقوف صفًّا عبر...».

أصابته ضربة قوية تحت أذنه، استدار مترنِّحًا في محاولة لمواجهة خصمه الخفي. تمكَّن من الحفاظ على توازنه، وسدَّد عدة ضرباتٍ في الهواء. ثم أصابته ضربة أخرى تحت الفكِّ، فسقط مُمدَّدًا على الأرض. وفي اللحظة التالية، ضغطتْ ركبة على معدته، وأمسكتْ يدان برقبته، لكنَّ إحداهما كانت أضعف من الأخرى. أمسك المعصمين، وسمِع صرخة ألمٍ من مُهاجِمه؛ ثم رأى مجرفة عامل الحفر تدور في الهواء فوقه، وتصيب شيئًا بقوة. شعر بقطراتٍ من البلل على وجهه. تراختْ فجأة القبضة التي تمسك برقبته. تمكَّن كيمب، بجهدٍ جهيدٍ، من تحرير نفسه، وأمسك بكتفٍ ضعيفٍ، والتفَّ فوق خصمه. أمسكَ بالمرفقين غير المرئيين بالقرب من الأرض. صاح كيمب: «لقد أمسكتُ به! ساعدوني! ساعدوني، أمسكوه! لقد سقط! أمسكوا قدميه!».

اندفع الجميع على الفور إلى العِراك؛ وكان المشهد، لأيِّ شخصٍ غريبٍ يمرُّ على الطريق، يبدو وكأنَّها لعبة كرة الرجبي، وإن كانت وحشية بشكلٍ استثنائي. لم يصدر أيُّ صياحٍ بعد صيحة كيمب؛ وإنَّما فقط صوت لكماتٍ وركلاتٍ وتنفُّسٍ لاهثٍ.

وبعد جهدٍ جهيدٍ، تخلَّص الرجل الخفي من خصمين من خصومه، ونهض على ركبتيه. تشبَّث كيمب به من الأمام، مثل كلب الصيد الذي يمسك بظبي. وأخذتْ عشرات الأيدي تقبض على الرجل الخفي وتمسك به وتمزِّقه. وفجأة تمكَّن سائق التِرام من الإمساك برقبته وكتفيه، وجرَّه إلى الخلف.

تجمَّعت فوقه كومة من الرجال المتصارعين مرَّة أخرى. أخشى أنَّه

تعرَّض لركلاتٍ وحشيَّة. وفجأة صدرتْ صرخةٌ: «الرحمة! الرحمة!»، وتلاشتْ سريعًا إلى صوتٍ يشبه الاختناق.

صاح كيمب بصوتٍ مكتومٍ: «تراجعوا، أيُّها الحمقى!». تراجع الرجال الأقوياء. «إنَّه مصابٌ، أقول لكم. تراجعوا!».

حدث اضطرابٌ قصيرٌ لإخلاء المكان، وشهدتْ دائرة الوجوه المتلهِّفة الطبيب راكعًا، قرابة خمس عشرة بوصة في الهواء، وهو يمسك بذراعين غير مرئيتين على الأرض، وخلفه شرطيٌّ يمسك بكاحلين غير مرئيين.

قال عامل الحفر الضخم: «لا تتركه يذهب»، وهو يمسك بمجرفة ملطَّخة بالدماء، «إنَّه مخادعٌ».

قال الطبيب وهو يرفع ركبته بحذرٍ: «إنَّه لا يخدعنا. وسأمسكه جيِّدًا». كان وجه كيمب مصابًا بكدماتٍ، وبدأ يتخذ اللون الأحمر بالفعل. تحدَّث بتثاقلٍ بسبب نزيف شفته. مدَّ إحدى يديه، وبدا أنَّه يتحسَّس وجهه. قال: «الفمُّ كلُّه مبلَّلٌ»، ثم أضاف: «يا إلهي!».

وقف بسرعة، ثم ركع على الأرض بجوار الشيء غير المرئي. حدث تدافُعٌ واضطرابٌ، وصوتُ أقدامٍ ثقيلة مع زيادة الأعداد وبالتالي زيادة ضغط الحشد. كان الناس يخرجون الآن من المنازل. فتح فندق «جولي كريكيترز» أبوابه على مصراعيها. وقلَّت أحاديث الناس. تحسَّس كيمب الشخص الخفي؛ وبدت يده تمرُّ في الهواء. قال: «إنَّه لا يتنفَّس». وبعد برهة: «لا أشعر بضربات قلبه. وجانبه... أووه».

وفجأة صرختْ بحدَّة امرأةٌ عجوزٌ، كانت تنظر من تحت ذراع عامل الحفر: «انظروا هناك!»، ومدَّت إصبعًا متجعدة.

وبالنظر إلى المكان الذي أشارتْ إليه، رأى الجميع ملامحَ جسدٍ باهتٍ وشفافٍ كأنَّما مصنوعٌ من الزجاج؛ بحيث يمكن تمييز الأوردة، والشرايين، والعظام، والأعصاب، والخطوط التي تحدِّد اليد، وارتخاء اليد وميلها. ثم أصبح الجسد ضبابيًّا وغير شفافٍ، وهم يحدِّقون إليه.

صاح الشرطي: «يا إلهي! ها هي أقدامه تظهر!».

وهكذا، استمرَّ هذا التغيير الغريب ببطءٍ؛ بدءًا من يديه وقدميه، ثم زحف على طول أطرافه إلى المراكز الحيوية من جسده. كان أشبه بانتشارٍ بطيءٍ للسمِّ. ظهرت أولًا الأعصاب الصغيرة البيضاء، ثم خطوطٌ رمادية ضبابية للأطراف، ثم العظام الزجاجية والشرايين المعقَّدة، تلاها اللحم والجلد على نحوٍ ضبابيٍّ خفيفٍ في البداية وسرعان ما نما بكثافة ووضوحٍ. ثم أصبح بإمكانِهم رؤية صدره المحطَّم وكتفيه، والخطوط العريضة القاتمة لملامحه المصابة.

وأخيرًا أفسح الحشد المجال لكيمب لكي يقف منتصب القامة. وأمامهم يرقد جسدٌ عارٍ على الأرض، يثير الشفقة، مليء بالكدمات والكسور، لشابٍّ في نحو الثلاثين من عمره. كان شعره وجبينه أبيضين؛ ليس رماديين بسبب التقدُّم في العمر، لكنَّه بياض مرض البَرص، وكانت عيناه مثل العقيق. كانت يداه مشدودتين، وعيناه مفتوحتين، ويظهر على وجهه تعبيرٌ ينمُّ عن الغضب والفزع.

قال رجل: «غطُّوا وجهه! باسم الرب، غطُّوا هذا الوجه!». اندفع

ثلاثة أطفالٍ صغارٍ إلى الأمام من خلال الحشد، لكنَّ النَّاس أبعدتهم على الفور.

أحضر شخصٌ ملاءةً من فندق «جولي كريكيترز». وبعد أن غطُّوه، حملوه إلى ذلك الفندق. وهناك، على سريرٍ رثٍّ في غرفة نومٍ رديئة وسيئة الإضاءة، أحاط حشدٌ من النَّاس الجهلاء والذين تملَّكتهم الإثارة، بجسد جريفين المكسور والجريح، الذي تعرَّض للخيانة ولم يشفق عليه أحدٌ؛ جريفين، أوَّل من تمكَّن من إخفاء نفسه؛ جريفين، الفيزيائي الأكثر موهبة شهدها العالم على الإطلاق؛ انتهت مسيرة حياته الشخصية والمهنية الغريبة بكارثة رهيبة.

الخاتمة

هكذا تنتهي قصَّة تجارب الرجل الخفي الغريبة والشريرة. وإذا أردتَ أن تعرِف المزيدَ، يجب أن تذهب إلى نُزُلٍ صغيرٍ بالقرب من بورت ستو، وتتحدَّث مع المالك. علامة النُزُل عبارة عن لوحة فارغة باستثناء قبعةٍ وحذاءٍ، واسمه هو عنوان هذه القصة. أمَّا المالك، فهو رجلٌ قصيرٌ وبدينٌ، وأنفه ذو أبعادٍ أسطوانية، وشعره مشعَّثٌ، ووجهه ذو بقعٍ وردية متفرقة. يشرب كثيرًا، وسوف يخبرُكَ بسخاءٍ كلَّ الأشياء التي حدثتْ له بعد ذلك الوقت، وكيف حاول المحامون معرفة أسرار الكنز الذي وجده.

يقول: «أنا محظوظٌ. فقد اكتشفوا أنَّهم لا يستطيعون إثبات أيِّ شيءٍ عن المال، كانوا يريدون أن يصنعوا مني كنزًا دفينًا! هل أبدو ككنزٍ دفينٍ؟ ثم أعطاني رجلٌ نبيلٌ جنيهًا في الليلة لأحكي القصَّة في قاعة الموسيقى الإمبراطورية؛ أحكيها بكلماتي، مع حذف شيءٍ واحدٍ».

وإذا أردت قطع تدفُّق ذكرياته فجأة، يمكنُكَ دائمًا القيام بذلك عن طريق سؤاله عمَّا إذا لم تكن هناك ثلاثة دفاتر مخطوطة في القصة. وتجده يعترف ويبدأ في التفسير، مع تأكيداتٍ تجعل الجميع يعتقد أنَّها لديه! لكنَّها ليست لديه. فهو يقول: «لقد أخذهم الرجل الخفي لإخفائهم،

عندما هربتُ وركضتُ إلى بورت ستو. لكنَّ السيِّد كيمب هو من وضع في أذهان النَّاس أنَّ الدفاتر معي».

يهدأ بعد ذلك في حالة تأمُّلٍ، ويراقبكَ خلسة، ويحرك نظَّارته بعصبية، ثم يغادر الحانة.

ومارفل رجلٌ أعزب؛ مزاجه أعزب، ولا توجد نساءٌ في النُزُل. وهو يغلق أزرار سترته عندما يكون في الخارج، وهذا متوقعٌ، لكنَّه أكثر بساطة في خصوصياته؛ ففي مسألة الحمالات، على سبيل المثال، لا يزال يستخدم الخيط. يدير نُزُله دون تنظيم، ولكن بلياقة بارزة. حركته بطيئة، وهو مُفكِّر عظيمٌ. يشتهر في القرية بحكمته، وكذلك ببخله الشديد. كما أنَّ معرفته بالطرق في جنوب إنجلترا قد تفوق معرفة كوبيت(٦).

وفي صباح يوم الأحد، كل يوم أحد على مدار السنة، بينما يغلق على نفسه بعيدًا عن العالَم الخارجي، وكل ليلة بعد العاشرة، يذهب إلى صالون البار الخاص به، حاملاً كأسًا من شراب الجين مخفَّفًا بالماء، ويضعه على طاولة، ثم يغلق الباب ويفحص الستائر، وحتى ينظر تحت الطاولة. وبعد أن يتأكد من عزلته، يفتح خزانة وصندوقًا في الخزانة ودرجًا في هذا الصندوق. ويُخرِج ثلاثة دفاتر مغلَّفة بجلدٍ بنيِّ اللون، ويضعها باحترامٍ في وسط الطاولة. تهرَّأت أغلفتها من جراء الطقس، وملطَّخة بلونٍ أخضر طحلبي؛ فقد وضعها مؤقتًا مرَّة واحدة في مصرفٍ، ومحت المياه القذرة الكتابة في بعض الصفحات. يجلس المالك على

(٦) وليام كوبيت (William Cobbett): (١٧٦٣ - ١٨٣٥). ناشر وصحفي إنجليزي، ومزارعٌ وعضو في البرلمان. أشهر مؤلفاته كتاب «جولات ريفية» الذي صدر عام ١٨٣٠ - المترجمة

كرسيٍّ بذراعين، ويملأ أنبوبًا طينيًّا طويلًا ببطءٍ، مبتهجًا وهو ينظر إلى الدفاتر بين الحين والآخر. ثم يسحب أحدها ويفتحه، ويبدأ في دراسته؛ مقلِّبًا الصفحاتِ إلى الوراء وإلى الأمام. حواجبه متماسكة وشفاهه تتحرَّك بشكلٍ مؤلمٍ. «سداسي، اثنان صغيران في الهواء، علامة، خدعة، دو، دي. يا إلهي! يا له من مُفكِّرٍ!».

يرتاح بعد ذلك، ويميل إلى الوراء. ينظر من خلال دخانه عبر الغرفة إلى أشياءٍ غير مرئية لأعين أخرى. يقول: «إنَّها مليئة بالأسرار. أسرار رائعة!».

«ما أن أتمكَّن من فهمِها. يا إلهي!».

«لن أفعل ما فعله. بل سأفعل فقط... حسنًا!»، ثم يدخن غليونه.

ويغوص في حلمٍ، حلم حياته الرائع. وعلى الرغم من أنَّ كيمب كان يبحث دون انقطاعٍ، لا يوجد إنسانٌ سوى المالك يعرف بوجود هذه الدفاتر هناك، وما تحويه من سر الخفاء، وعشراتٍ من الأسرار الغريبة الأخرى. ولن يعرفها أيُّ شخصٍ آخر غير المالك، إلى أن يموت.